



شراع ابيض في الافق



دار التقدم • موسكو

فالنتين
كاتاييف

شراع ابيض في الافق

دار التقدم
موسكو

ترجمة كامل نصيف

В. Катаев
БЕЛЕЕТ ПАРУС ОДИНОКИЙ
На арабском языке

بضع كلمات عن نفسى

عندما احدد ما حققت من نتائج اتذكر حـالات لعبت فى مصيرى وفى فهمى لدور الكاتب دورا ليس بالهين .

لقد التقيت وجها لوجه بحياة الشعب وفهمت على أفضل صورة أية قوة تضم بين طياتها الكلمة المنشورة حينما وجدت نفسى احارب على جبهات الحرب الامبريالية الأولى وشطبت فى مخيلتى وقتئذ كل ما قد كتبت سابقا تقريبا وعزمت على أن اكتب فيما بعد كل ما يمكن ان يأتى بفائدة على العمال والفلاحين والجنود وكل الناس الكادحين ليس الا .

فى سنة ١٩١٩ ، وفى حين كنت فى صفوف الجيش الأحمر أسير جنبـا الى جنب مع الثوار الحمر ضـد شراذم دينيكين قطعت على نفسى عهدا بأن اكرس قلمى لقضية الثورة .

اننى اعتبر الحديث عن ذلك ممكنا لكون الكثيرين من الكتاب قد ساهموا فى الحربين الأهلية والوطنية قـولا وعملا ملهمين المقـاتلين على الـذود عن الوطن . فكان الـكسندر سيرافيموفيتش مراسلا حربيا . واقتسم الكسندر فادييف لقمة

الخبز وجرعة الماء مع انصار الشرق الاقصى . وعمل ديمتري فورمانوف قوميسارا في فرقة القائد الاسطوري تشاپايف . وقاتل نيكولاي اوستروفسكي الغزاة في اوكرانيا . وحارب ميخائيل شولوخوف ضد قطاع الطرق الأشقياء البيض . وتوجه ادوارد باغريتسكي الى الجبهة في قطار الدعاية والارشاد . واستشهد في حومة الوغى في أثناء الحرب الوطنية العظمى أكثر من ٢٠٠ كاتب سوفييتي نقشت اسماؤهم على اللوحة المرمرية في دار الادباء .

صادفت طفولتي ثورة عام ١٩٠٥ . وقد بلغت الثامنة آنذاك . لكنني أتذكر جيدا كيف مرت الدارعة « بوتمكين » بمحاذاة شواطيء اوديسا ترفرف فوقها الراية الحمراء . وصرت شاهدا على معارك المتاريس ، ورأيت عربات الترام المقلوبة والاسلاك الساقطة والبراونغات والبنادق وجثث القتلى .

مر الكثير من السنين قبل أن أكتب « شراع أبيض في الافق »* . وقد تخللت هذا النتاج انفاس طازجة للحياة التي ولدتها الثورة الأولى .

اما كتاب « انا ــ ابن الشعب الكادح » ** فهو ذكريات عن جبهة الحرب العالمية الأولى ، حيث تحتم على القتال .

عندما بدأ انشاء محطة « دنيبروغيس » الكهرمائية توجهت الى هناك بصحبة دميان بيدني . ومن عندها انتقلنا الى

* كتبت الرواية في سنة ١٩٣٦ . ــ المحرر .
** الف الكتاب في سنة ١٩٣٧ . ــ المحرر .

كولخوزات الدون والفولغا ، ثم الى الاورال .

اذكر مرة توقف قطارنا عند جبل مغنيتنايا وقد سحرت بما يحيط بى الى درجة جعلتنى اقرر ترك القطار فورا والبقاء فى مغنيتوغورسك .

— الى اللقاء يا يقيم الكسييفيتش ! — قلت ذلك لدميان بيدنى وقفزت من على درجات العربة .

— اتمنى لك العافية والنجاحات — اجابنى هو ثم اردف قائلا : للاسف الشديد اننى لست شابا مثلك وتتحتم على العودة الى موسكو . والا لبقيت هنا بكل سرور .

لقد ابهرتنى ضخامة ما رأيت فى مغنيتوغورسك والمبادرة الهائلة لذلك الشعب الذى يبنى لنفسه . كان ذلك ثورة أيضا . وعندها ظهر كتابى « لنعجل الوقت ! » * .

ثم بدأت الحرب . وكنت حينها مراسلا على الجبهة فرأيت الكثير . ولكننى لسبب ما بقيت اتذكر أكثر من أى شىء آخر الصبية المشردين الفقراء يذرعون الأرض مشيا فى دروب الحرب . رأيت الجنود الروس . رأيتهم متعبين وسخين جائعين يأخذون معهم اليتامى وفى ذلك تجلت الانسانية العظيمة للفرد السوفييتى . انهم كانوا يقاتلون الفاشست ، وهذا يعنى انهم أيضا كانوا مشاعل للثورة . هذا هو ما دفعنى لكتابة « ابن الفوج » .

* الف الكتاب فى سنة ١٩٣٢ . ـ المحرر

انني اعتبر حياتي امتع حياة . وها انذا اخيرا ارى ما تطلعنا اليه في عام ١٩١٧ ، أرى لماذا قمنا بثورة فنية ، لماذا بنينا المغنيتكا ، من أجل ماذا مات اصدقائي على الجبهة ..

لقد اقلقني دائما السؤال : « ماذا يعني ان يكون المرء كاتبا سوفييتيا ؟ » . اما الى الجواب عليه فتوصلت هكذا ..

كان ذلك منذ زمن بعيد . مرة ، حينما كنت راجعا الى البيت وجدت في صندوق بريدي مظروفا طويلا لصقت عليه طوابع أجنبية . وبعد ان فتحته قرأت فيه دعوة من اتحاد الادباء البرجوازي الشهير « بن كلوب » المساهمة في مؤتمره الاعتيادي في فينا . كنت حينها كاتبا شابا فأدخلت هذه الدعوة على نفسي شعورا بالنشوة والسرور فرحت احدث كل من التقيه عن الشرف العظيم الذي منحته . وفي احد اقسام التحرير التقيت بمايكوفسكي فأريته طبعا هذه الرسالة الأجنبية . فدس فلاديمير مايكوفسكي بدوره يده في جيب سترته واخرج منه بهدوء مظروفا أنيقا يشبه بالضبط ما عندي وقال :

— أنظر ! فقد دعوني أيضا . لكنني لا أتبجح بذلك . لأنني قد دعيت طبعا لا كمايكوفسكي ، بل كممثل للادب السوفييتي . وحضرتكم كذلك . مفهوم ؟ فكروا يا كاتايتش (هكذا كان يسميني في لحظات الفرح) ماذا يعني ان يكون المرء كاتبا سوفييتيا !

انطبعت كلمات مايكوفسكي في ذاكرتي الى مدى الحياة .

وفهمت انني مدين بنجاحاتي الادبية للشعب السوفييتي الذي عمل على تربيتي . لقد فهمت ان المرء حينما يصبح كاتبا سوفييتيا يعني ان يسير في ركاب الشعب ويكون دائما في ذروة الموجة الثورية .

لدي قصة تدعى « الراية » كتبتها ، كما يقال ، من واقع الحياة . اما فحواها فكالآتي : طوق الفاشست مقاتلينا وعرضوا عليهم الاستسلام . ولكن بدلا من الراية البيضاء رفع جنودنا علما أحمر خيط من قطع قماش حمراء متباينة الدكنة .

ان ادبنا السوفييتي قد كون أيضا من مؤلفات كثيرة متباينة المسحات تتألق مجتمعة كراية الثورة النارية الحمراء .

عكفت مرة بالصدفة ، وانا اتمشى في شوارع شنغهاي ، على السوق الذي يقع فيه ما يدعى « بمعبد شريف المدينة » . هناك تباع الشموع المؤمنين . ووقفت خلف منضـدة صغيرة صينية عجوز كانت تأخذ عيدانا غريبة الشكل من اناءين . وبعد أن تدفع لها عشرة يوآنات تسمح لك المرأة بان تسحب عودا واحدا نقشت عليـه بعض الرموز الهيروغليفية . بعد ذلك تنظر في كتاب عندها سائلة اياك على الصفحة التي حددت على العود . ثم تنتزع هذه الصفحة من الكتاب وتسلمها لك . كتب على صفحتي ما يلي : « ان فينيكس يغني امام الشمس . والامبراطورة لا تصغي له . من الصعب تغيير رأي الامبراطورة لكن اسمك سيبقى خالدا الى الأبد » .

ليس عندنا امبراطورة . لذا فهذا الجزء من العرافة قد جاء في غير مكانه . ومن المشكوك فيه جدا ان يبقى اسمي خالدا الى الابد . أي أن هذا الجزء أيضا كاذب .

بقي شيء واحد فقط ـ هو ان « فينيكس يغني امام الشمس » . على هذا اوافق . فهذه الشمس هي وطني .

١٩٥٨

شراع أبيض فى الافق

١

الوداع

كانت الساعة الخامسة صباحا قد أزفت حينما تعالى صوت بوق فى باحة المزرعة .

هذا الصــوت الحاد كأنما تمزق من أحشــاء مجموعة من الأوتار المدوية ، دوى عبر بســتان أشجــار المشمش وطار فى السهب المقفر الى البحر متدحرجا زمنا طويلا فى الوهاد بحزن كأنه صدى يتلاشى فى مرامى البعد .

كان هذا أول نفير لرحيل العربة .

انتهى كل شىء وأزفت ساعة الوادع المريرة .

ما عــاد ليوجــد أحد ـ والحق يقــال ـ لتلقى عليه تحيــة الوداع . كان المصطافون قد روعتهم الأحداث وهم غير كثيرين مع ذلك فشرعوا يلوذون بالمدينة فى منتصف الصيف .

لم يبق فى المزرعة سوى أسرة غريبة ، وهى أسرة باتشى ، مؤلفة من الأب وهو معلم فى أوديسا ومن ولدين أحدهما له من العمر ثلاثة أعوام ونصف والآخر له من العمر ثمانية أعوام ونصف . كان الولد الأكبر يدعى بيتيا والولد الأصــغر يدعى

بافليك . ولكن هؤلاء أيضا كانوا سيبارحون المزرعة فى هـذا اليوم .

كان البوق يدوى لهم ، وقد أخرجت الخيول الكبيرة السود من الاصطبلات لأجلهم .

وكان بيتيا قد استيقظ قبل اعلان النفير بوقت طويل . كان نومه مضطربا فأيقظته شقشقة الطيور فارتدى ملابسه وخرج من البيت .

البستان والسهب والباحة ، كان كل شىء يغشاه ظل قارس ، وكانت الشمس تصعد من البحر الا أن منحدر الشاطىء ما يزال يحجبها

كان بيتيا يرتدى بدلة مدنية لأيام الأعياد وكانت قد أصبحت قصيرة جدا عليه لأنه قد شب كثيرا خلال الصيف ، وهـذه البدلة مؤلفة من : قميص بحرى من الصوف الأزرق مع أشرطة بيضاء مخيطة فى الياقة ، وبنطلون قصير وجورب قطنى طويل ومتين وجزمة ذات أزرار وقبعة من القش مستديرة ذات حافة عريضة .

جاس بيتيا فى المزرعة وهو منكمش قليلا ، وذلك ليودع جميع الأركان التى قضى فيها أوقاتا طيبة .

كان بيتيا طيلة الصيف تقريبا يتجول وهو يكاد يكون عاريا . فلوحت الشمس جسمه حتى غدا بلون البرونز كأنه هندى ، وكان قد تعود أن يسير حافيا على الاشواك وكان يغتسل ثلاث

مرات فى اليوم . ويدلك نفســه من رأسه حتى قدميــه على الشاطىء بطين البحر الأحمر ، وينقش على صدره رسوما تجعله يشبه فعلا رجلا من الهنود الحمر ولا سيما حينما كان يغرس فى شعره المشعث الريش الأزرق من الطيور الجميلة ، طيــور الحكايات الخرافيــة التى تعشش فى سفوح الآكام المنحدرة .
والآن بعد هذه البحبوحة ، بعــد هذه الحرية الجميلة ، تعال والبس القميص البحرى الضيق من الصوف والجورب الذى يخز ربلة ساقك ، والجزمات الضيقة ، وهذه القبعة من القش التى يؤذى مطاطها الأذنين ويشد على خناقك ...

نزع بيتيا قبعته ورماها على كتفه . فأخذت القبعة تترنح على ظهره كالسلة .

مرت بطتــان كبيرتان وهما تثرثران بنشاط ، فألقيتا نظرة ازدراء على الصبى المهندم كأنه غريب وانسلتا الواحــدة تلو الأخرى تحت حاجز .

هل تجاهلتا بيتيــا أم أنهما فعلا لم تتعرفا عليه ؟ لقد شعر فجأة بالضيق والحزن وكاد يبكى .

لقد شعر من أعماق نفسه أنه غريب على هذا العالم البــارد الخالى فى هذا الصباح الباكر . حتى الحفرة فى ركن البستان ، الحفرة العميقة البديعة التى كان يجد فيها سحرا خفيا فى طهى البطاطا على نار الحطب ، هذه الحفرة ذاتها قد بدت غريبة كل الغرابة .

كانت الشمس ما تزال ترقى السماء عاليا .

كانت الباحة والبستان ما يزالان فى الظل بيد أن الأشعة الأولى كانت قد ذهبت بنور ساطع وبارد القرع الوردى والأصفر والأزرق المنشور على سقف القصب للبيت الذى يقطنه الحراس .

كانت هيئة الطباخة ناعسة ، وهى فى تنورة من الجنفاص ذات مربعات وقميص مطرز بصلبان صغيرة سوداء وحمراء ، ومشط حديدى فى شعرها المسرح تسريحا سيئا ، تفرغ السماور من فحم ليلة الأمس .

ظل بيتيا بعض الوقت أمامها ينظر الى طوق الخرز يتراقص فى عنقها المتغضن .

سألته دونما اكتراث :

ـ ستذهبون ؟

أجاب الولد وشىء من الاضطراب يشيع فى صوته :

ـ سنذهب

ـ مع السلامة !

وذهبت الى برميل الماء ، فلفت يدها بذيل فستانها ذى المربعات وأسقطت السدادة .

فتدفق الماء الى الأرض والدفقة ترسم منحنى فى انسفاحها وتدحرجت على الأرض نقاط مستديرة متلألئة لصقها تراب رمادى .

وضعت الطباخة السماور تحت تدفق الماء فأخذ يبعث آنات وهو يمتلىء بماء بارد ثقيل .

لا ، ان بيتيا ما كان يستطيع أن يجد فى أى مكان شيئا من الاستلطاف .

ففى ملعب الكروكيت وفى البرية وتحت العريشة وفى كل مكان كان يسود نفس الصمت المكرب ونفس الخلاء .

ومع ذلك لكم تلهى وكم سعد مؤخرا هنا . ولكم من فتاة جميلة ، وصبى خبيث كان فيه . كم من جولة بهيجة وكم من صيحة ولعبة وكم من معركة وشجار وكم من مصالحة وقبلة طيبة وصداقة !!

ما أبدع تلك الوليمة التى قام بها صاحب المزرعة رودولف كارلوفيتش لنزلائه فى يوم ميلاد زوجته لويزا فرانتسيفنا !

هذا العيد لن ينساه بيتيا ما دام حيا .

ففى الصباح نصبت تحت أشجار المشمش مائدة كبيرة مزدانة بأزاهير الحقول . وكان وسط المائدة مشغولا ببسكويت كبير كالدراجة .

كانت خمس وثلاثون شمعة متقدة مغروسة فى العجين الرائع المرشوش بالسكر كثيفا تطابق عمر ربة الدار .

وقد دعى جميع النزلاء الى تناول الشاى صباحا فى ظلال أشجار المشمش .

هذا اليوم الذى ابتدأ ابتداء رسميا استمر حتى انتهى

برقص للأولاد متنكرين مع الموسيقى والألعاب النارية .

كان جميع الأولاد قد تنكروا : فالفتيات تنكرن بزى بنات الماء والغجريات والفتيان تنكروا بزى الهنـود وقطاع الطرق والوجهاء الصينيين والبحارة . كانوا جميعا ببدلات جميلة من القماش أو الورق وهى متلألئة مبرقشة .

كانت طقطقة الورق الناعمة من الفســاتين والمعاطف تبلغ المسامع ، وزهور الورد الاصـطناعية تميس على سـوقها من الأسلاك الحديدية والأشرطة الحريرية المربوطة بالطبول تتهادى مرفرفة .

على أن أجمل بدلة ــ لا ريب فى هذا ولا جرم ــ كانت بدلة بيتيـا . لقد قضى أبوه يومين فى صنعهـا له . وقد انكب على عمله وكانت نظارته تسقط فى كل لحظة . وكان بسبب ضعف بصره يقلب زجاجة صمغ عربى ويدمدم فى لحيته لعنات هائلة على منظمى « كل هذه الفوضى » . ويبدى اشمئزازا طاغيا من هذه « الطياشة » .

غير أن هذا ما كان سوى حيلة ، كان يتولاه خوف من أن تكون البدلة رديئة فيبدو سخيفا مضحكا ، ثم انه بأى همـة انكب على العمل ! ومهما يقل فقد كانت بدلة بديعة رائعة !

كانت بدلة فارس مصنوعة ببراعة من الورق المذهب والفضى الملفوف على هيكل من الأسلاك . وكانت الخوذة مزينة بالريش البديع وتشبه كل الشبه خوذات فرسان والتر سكوت ويمكن حتى رفع وتخفيض رفرفها .

كانت هذه البداة جميلة جدا حتى ان بيتيا قد وضـــع فى العرض فى الزوج الثانى مع زويا أجمل فتاة فى البيت ، وكانت تلبس بدلة وردية بزى الجنيات .

لقد طافا البستـــان المضـــاء بالمصـــابيح الصينية وذراعاهما متشابكان . كانت تبرز أدغال وأشجار لامعة مغمورة بضـــوء من السحب الحمراء والخضراء من الألعاب النارية وتنتشر هنا وهناك فى ظلمات البستان الخفية . وكان الكبار يتعشون تحت العريشة على ضوء الشموع التى تحميها أقفاص الزجاج وكانت فراشات الليل تترامى على الضوء وتســـقط محترقة على غطاء المائدة .

انطلقت أربعة صواريخ تئز وراء الدخان الملون وارتفعت بصعوبة .

على أن القمر كان ما يزال طالعا . ولم يدرك بيتيا وزويا ذلك الا بعد أن صارا فى قلب البستان . كان شعـــاع القمـــر اللماع السحرى ينفذ بين أوراق الأشجار ، ويلمع فى عينى الصـــغيرة بريق أزرق ويتلألأ فى ماء البرميل القـــاتم حيث يرتج قـــارب صغير .

واذ ذاك تعانق الفتى الصغير والفتاة الصغيرة وقبلا بعضهما بعضا ، دون أن يفـــكرا بذلك ، الا أنهما بعد هذه القبلة شعرا بارتباك شديد فوليا الأدبار وهما يتصايحان عاليا ولم يقفـــا الا فى مؤخرة الباحة . وهناك كان خدم المزرعة جاءوا يقدمون لربة

الدار تمنياتهم الطيبة ويأكلون ويشربون .

وعلى المائدة التى أخرجت من مطبخ الخدم الى الهواء الطلق كان يظهر دن للبيرة وقنينتان من الخمر وصحفة من السمك المقلى وخبز من الحنطة . كانت الطباخة سكرى فى قميصها القطنى الجديد تقدم بهيئة غاضبة الى اجراء المزرعة الذين تحلقوا حول المائدة وجبات من السمك وأقداح البيرة .

وكان عازف للأوكورديون بجاكيت محلول الأزرار وركبتين منفرجتين يتمايل على كرسيه وهو ينقر على أصابع الأوكورديون التى تصدر انغاما خافتة .

كان ولدان منتصبان وجههما غير مبال يقفان متشابكين وينقران بعقب الحذاء خطى رقصة البولكا . وكانت بعض اجيرات المزرعة يمسكن ببعضهن بعضا بالأيدى كن يضعن مناديل جديدة على رؤوسهن وقد دهن خدودهن بعصير البندورة تبرجا أو لتلطيف الجلد وكانت أرجلهن تنتعل أحذية ضيقة من جلد الماعز .

كان رودولف كارلوفيتش ولويزا فرانتسيفنا يمشيان القهقرى أمام أجير المزرعة يتقدم اليهما .

كان سكران وكان عدة رجال يمسكون ذراعيه وهو يحاول الافلات منهم والدم يسيل من انفه على قميصه الجديد الممزق ويطلق الشتائم الرهيبة .

كان ينتحب ويشرق بنشيجه البغيض المسعور ، ويصيح

وهو يكز على أسنانه كأنما انتابه هذيان :

ــ ثلاثة روبلات ونصف أجرة شهرين من العناء والشقاء . يا لك من سارق قذر !! دعونى أصل الى هذا الوغد . هيا أيها الرجال الطيبون دعونى انتزع روحه من جسده أعطونى كبريتا لأذهب الى مستودع القش : سأجعل لهما عيــد ميــلاد بهى ... أوه ! لو لقيك غريشكا كوتوفسكى* أيها النذل !

كان ضــوء القمر يلمع فى عينيه اللتــين غاب بؤبؤاهما فى محجريهما .

وكان السيد يتمتم وهو يتقهقر : ــ مهلا ، مهلا .. انتبه ، لا تعربد . والا فهذه الكلمات تودى بك الى المشنقة .

كان الأجير يصيح لاهثا :

ــ هكذا ؟ هيا اشنقنى ! ماذا تنتظر ؟ هاك دمى اشربه ، اشربه ...

كان هذا مريعا وغير مفهوم ولا سيما أنه يتباين تباينا شديدا مع الاحتفال البهيج حتى ان الولدين قد وليا هاربين بصيحات ان غافــريلا يود أن يذبــح رودولف كارلوفيتش وأن يحــرق المزرعة .

وسادت فوضى جميلة .

أخذ الأهل أولادهم الى الغرف وأغلقوا النوافذ والأبواب

* كوتوفسكى غريغورى ايفانوفيتش (١٨٨١ ــ ١٩٢٥) اشترك بنشاط فى ثورة سنة ١٩٠٥ وترأس فصيلة فلاحى بيسارابيا الثائرين · فى سنوات الحرب الاهلية كان بطلا مشهورا ·

كما يحدث قبل العاصفة . أما تشسوفياكوف ، رئيس الادارة المحلية فى المنطقة الذى كان يمضى عدة أيام مصطافا مع أسرته فقد اجتاز ملعب الكروكيت تاركا أقواس اللعب تسقط ودافعا برجله الكرات والمضارب .

كان يمسك فى يديه المرفوعتين جفتا .

عبثا حاول رودولف كارلوفيتش أن يهدىء من روع نزلائه . وعبثا أكد لهم أنه لم يعد هناك من خطر : فقد قيد غافريلا وأودع القبو وسوف يأتى عريف الدرك لأخذه غدا .

ذات ليلة لمع نور أحمر بعيدا فى السهب . وفى الصباح سرت شائعة أن المزرعة المجاورة قد أحرقها أجراء المزرعة .

كان الناس القادمون من أوديسا يحملون نبأ اضطرابات تهز المدينة . وكان يقال ان جسر الميناء أضرمت فيه النيران .

وبعد الاحتفال كان عريف الدرك قد جاء منذ الصباح الباكر واقتاد غافريلا على عربة بثلاثة جياد كان بيتيا يسمع جرسها فى نومه عند الصباح .

ارتحل المصطافون .

ولم تلبث المزرعة أن أقفرت تماما .

مكث بيتيا بعض الوقت واقفا أمام البرميل المحبوب تحت شجرة المشمش العجوز وحرك الماء بقضيب .

لا ، ان البرميل ما عاد نفسه وكذلك الماء وشجرة المشمش العجوز .

كان كل ما يحيط به قد أصبح غريبا عليه ، كل شيء قد فقد سحره وبهاءه وكان يخيل لبيتيا أن جميع الأشـياء قد انغمـرت فى لجة الماضى السحيق .

ترى ؟ هل سوف يستقبل البحر بيتيا نفس الاستقبال البارد غير المكترث ؟

أسرع بيتيا الى النجـاد المنحـدرة التى تحف الشـاطىء الرملى .

٢

البحـر

كانت الشمس الطالعة تبهر الأعين وكان البحر تحت أشعتها يلتهب فى كل رقعته كالمغنيزيوم . وانقطع السهب على الفور .

وفى أعلى الهوة ، كانت الأدغال الفضية لأشـجار الزيتون البرى ترتعش فى الهواء الملتهب حرارة .

كان درب وعر يهبط متلويا وكان بيتيا قد اعتاد أن ينزله حافيا . ان جزمته تضايقه بسبب نعليها اللذين يتزحلقان . وكانت ساقاه تعدوان من تلقاء ذاتهما ولا سبيل الى وقفهما .

وقد قاوم الولد الثقل كيفما كان الأمر ، حتى أول منعطف ؛ كان يضع قدميه منحرفتين ويتشبث بذؤابات الجذور اليابسـة

المعلقة فوق الدرب . ولكن الجذور المتعفنة كانت تتقطع . وكان التراب الجاف ينسحق تحت قدميه .. ووجد بيتيا نفســه ملفعا بسحابة من الغبار دقيقا وبنيا مثل الكاكاو .

كان الغبار يملأ أنفه ويدغدغ حلقه ويثيره . وقد ضايق كل ذلك بيتيا . من لم يخاطر بشيء لا يظفر بشيء !

صاح بملء شدقيه وفتح ذراعيه وأسرع الى الأسفل يركض وهو لا يعى شيئا .

كانت قبعته التى ينفخ فيها الهواء تضرب على ظهره ، وياقته البحرية ترفرف ، والأشواك تعلق بجــوربه ... وبعد ما وثب الصبى وثبات فسيحة على الدرجات العريضة لسلم طبيعى وجد نفسه فجأة على رمل الشاطىء الجاف البارد الذى لم تدفئــه الشمس بعد . كان هذا الرمل أبيض وناعما بشكل عجيب . وفى حفر خطى متنزهى المدينة كان الرمل عميقا ومغربلا يشبه سميذا من صنف ممتاز .

كان ينحدر صوب الماء انحــدارا خفيفا وكان آخر شريط يطوله كل لحظة لسان الزبد العــريض الأبيض ، نديا بنفسجيا صقيلا وصلبا . وكان السير فوقه مريحا .

هذا البلاج الرملى البديع جدا الذى يمتد على طول مئــة فرسخ فى أسفل الشاطىء الصخرى المنحدر من كارولينو بوغاز الى مصب الدانوب حيث كانت تمر حينذاك حدود رومانيا ، كان يبدو موحشا مقفــرا فى هذه الساعة الباكرة من الصباح .

استولى على نفس بيتيا شعور الوحدة . الا أنه كان آنذاك شعور ازدهاء وشجاعة كما كان روبنسون فى جزيرته الخالية الخاوية .

تفحص بيتيا قبل كل شيء آثار الخطى . كان ذا عين خبيرة بصيرة كعين بحاثة المغامرات .

كان محاطا بالآثار فكان يقرأها كأنها رواية ماين ريد .

كانت بقعة سوداء فى الطرف المنحدر من الشاطىء وبقايا من الفحم الرمادى تكشف له أن السكان المحليين قد نزلوا فى الليل وطهوا أطعمة على نار الأحطاب ، وكانت آثار زمج الماء المطبوعة أصابعها منفرجة على الرمل تعرب عن وقت هادىء وعن وفرة الأسماك الصغيرة قرب الشاطىء .

كانت سدادة طويلة تحمل سمة فرنسية وقطعة من الليمون ابيضت من الماء قد ألقتها الأمواج على الرمل ، لا تدعان أدنى ريب فى مرور سفينة غريبة عرض البحر منذ عدة أيام .

وكانت الشمس فى غضون ذلك قد ارتفعت قليلا فوق الأفق وما عاد البحر يتلألأ الا فى مكانين : على شريط طويل يحاذى الأفق وفى مرآة الموج الذى يترامى بوداعة على الرمل جاعلا عشرة كواكب تلمع على التوالى .

كان البحر يسطع بنور أزرق كئيب من صبيحات شهر آب الهادئة وينتشر على بقية بساطه الفسيح فيتوارد على الفور شعر الشاعر الى الخاطر :

شراع ابيض وحيد
في الافق الازرق
الذي يغشاه الضباب ! . .

ومع ذلك لم يكن هناك أي شراع ولم يبد البحر يغشاه الضباب . اخذت بيتيا روعة البحر .

ما أبهى النظر اليه ان المرء لا يمل من طول تأمله ، فهو يبدو دائما مختلفا وجديدا وغريبا .

وما أكثر ما يتغير ويتبدل أمام عين الناظر .

فهو طورا هادىء ذو زرقة لازوردية تغطيه في بعض الأماكن دروب صغيرة تكاد تكون بيضاء فيبدو الموج فيها ساكنا وطورا هو ذو زرقة لاهبة ساطعة . وهو تارة متموج متجعد وتارة أخرى قاتم مزبئر .

وفي بعض الأحيان تهب عاصفة هائجة تسوق ريحها تموجا شديدا وتتحرك طيور الزمج صائحة في السماء الغبراء وتتراكب الأمواج المجنونة وتلقي جسد الدلفين اللامع الميت على طول الشاطيء . وينتصب الأفق الأخضر النضير كجدار مسنن فوق سحب العاصفة القاتمة وتتكسر على الشاطيء الواح الموج الرخامية حيث ترسم ذوائب الزبد رسوما عريضة ، فتحدث دويا هائلا كدوى المدافع . ويرن في الجو الاصم صدى برونزي

وترف غلائل الضباب كشراع غازى على ارتفاع شاهق فى طرف الانحدارات المزعزعة .

غير أن سحر البحر الرئيسى يكمن فى ذلك السر الذى يطويه فى لجته دائما .

أليس سرا أن ضوءه الفوسفورى ، حينما تغمس يدك فى مائه الدافىء الأسود فى ليلة من ليالى حزيران المظلمة تضىء فجـأة وتشع بشرارات زرقاء ؟ أليس سرا أيضـا أن أضواء السفن الغائبة والأنوار المتناوبة الشاحبة من منارة مجهولة تظهر وترف ؟ ثم ان عدد ذرات الرمال هل يناله حصر البشر ؟

أليس سرا أن خيال الدارعة المتمردة يبـدو ذات يوم على سطح البحر من بعد سحيق !؟

كان ظهورها قد سبقه حريق فى مرفأ أوديسا وكان نورها يلوح من بعد أربعين فرسخا وكانت الاشاعة قد راجـت بأن جسر الميناء هو الذى كان يحترق .

وبعدئذ لفظت كلمة أخرى « بوتمكين »* .

كانت الدارعة المتمردة قد ظهرت فى الأفق عدة مرات وحيدة غريبة قبالة شاطىء بسارابيا .

كان أجراء المزارع يهجرون عملهم ويتدفقون على الشاطىء المنحـدر لتمييز الدخان البعيـد وكان يخيـل لهـم فى بعض

* « بوتمكين » ـ دارعة أسطول البحر الاسود الروسى ، فى سنة ١٩٠٥ قام بحارة هذه الدارعة بانتفاضة ثورية .

الأحيان أنهم يرونها . فكانوا يخلعون قبعاتهم وقمصانهم ويلوحون بها لتحية المتمردين .

ولكن بيتيا لم يجده تفتح جفنيه والنظر بملء عينيه اذ لم ير شيئا فى البحر المقفر .

وفى مرة واحدة فقط رأى بسنظار طويل اخذه من ولد لدقيقة شبح سفينة أخضر فاه ذات ثلاث مداخن وفى أعلى صاريها راية صغيرة حمراء .

كانت الباخرة الحربية تتقدم بسرعة باتجاه الغرب صوب رومانيا .

وفى اليوم التالى اجتاح الأفق دخان ثقيل قاتم . وكان أسطول البحر الأسود كله يتعقب « بوتمكين » .

وجاء صيادون من مصب الدانوب على مراكبهم الكبيرة السوداء يحملون شائعة بأن «بوتسكين» دخلت ميناء كونستنتسا واضطرت الى الاستسلام للحكومة الرومانية . وقد نزل البحارة وتبددوا أيدى سبا .

ومرت عدة أيام أخرى من الذعر .

وعند الفجر تغشى الأفق بالدخان مرة أخرى .

لقد كان أسطول البحر الأسود العائد من كونستنتسا الى سيباستوبول يقطر وراءه الباخرة المتمردة المستسلمة ، كما تجر القنيصة بالوهق .

كانت مقفرة من بحارتها وماكناتها مغمورة ، خافضة علم

التمرد وداخلة فى الأمواج بتثاقل ، تتقــدم ببطء محاطة بدخان السفن التى تخفرها . سارت زمنــا طويلا على طول الشــاطىء المرتفع لبسارابيا ، ومن هنا كان عمال المزارع وحراس الحدود والصيادون وأجيرات المزرعة ينظرون اليهــا صامتين ويرمقون الموكب الى أن توارى الأسطول كله .

وعاد البحر ساكنا وادعا كأنما غمر بزيت أزرق .

وبعد قليل ظهرت على دروب السهوب فصــائل من الدرك الخيالة ذاهبين الى حدود رومانيا للبحث عن بحارة «بوتسكين» الهاربين .

... قرر بيتيا أن يستحم بسرعة للمرة الأخيرة .

الا أنه ما ان ارتمى فى البحر بسرعة حتى أخــذ يسبح على جنبه وهو يشق الماء المنعش بكتفه السمراء الصغيرة ونسى كل ما فى الدنيا .

اجتاز بيتيا المياه العميقة وبلغ أول قاع رملى ضحل .

صعد اليها وأخذ يتجول . كان الماء يغمر ركبتيه وكان يتفحص عبر المياه الشفافة الحراشف المرتسمة رسما واضحا فى القــاع الرملى .

كان هذا القاع يبدو غير مأهول لأول وهــلة . ولكن ما ان يتفحصه المرء قليلا حتى تتجلى له حياة فى تعاريج الرمال . تسير محارات السرطانات ، فتبرز تارة وتغيب تارة فى الرمال . أخــذ

بيتيا احدى هذه المحارات وانتزع عنها الجسم المجهز بلقطين دقيقين .

كانت الفتيات يحببن ان ينظمن هذه الاصداف فى خيط طويل فيصبح عقدا جميلا بهذا الشكل . الا أن هـذا ليس من شـأن الرجال .

اكتشف الولد بعدئذ نجم البحر وجـد فى اثره . كان نجم البحر عالقا مثل عاكس النـور الشـفاف له مجموعة كبيرة من الملامس الشفافة أيضا ، وكان يبدو لا يحير بحركة . بيد أن هذا ما كان سوى مظهر خادع فقد كانت حـواف صـدفته الرقيقة تتنفس ويتحرك رفرفها الجلاتينى الأزرق مثل المظلة الواقيـة . كانت الملامس تتحرك ونجم البحر يذهب بازورار فى القاع فكأنه استشعر بخطر محدق .

بيد أن بيتيا وصله وتناوله باحتراس من صدفته كيلا يمس الحافة السامة التى تحرق مثل القراص ، وأخرج من الماء جسمه الثقيل والسريع العطب ورماه بعنف على الشاطىء .

هوى النجم على الرمل الندى تاركا ملامسه التى انفصلت عنه تسقط وسرعان ما أضاءت الشمس نجما فضيا على مخاطه .

أطلق بيتيا صيحة تعجب ورمى بنفسـه عن القـاع الرملى الضحل فى الماء العميق وانصرف الى ما كان يحبه أكثر من غيره . أخذ يغوص وعيناه مفتوحتان .

يا للنشوة !

انفتح أمام عينى الطفل المسحورتين عالم ممالك تحت البحر

العجيبة . كان الحصى الملون يكبر من خلال طبقة المـاء كما فى العدسة ويظهر بوضوح . كان هذا الحصى يغطى قاع البحر كما يغطى الحصى الشارع .

وكانت سوق النباتات المائية تشكل غابة ساحرة مضاءة من الأعلى بأشعة شمس شاحبة كالقمر .

كان سرطان كبير يدب بين الجذور وقد فتح ملقطيه الرهيبين كالقرون سائرا بخفة حاملا على أرجله كأرجل العنكبوت حدبة ظهره المنقط ببقع بيضاء تركتها عليه الرخويات .

لم يرتع بيتيا . كان يعرف كيف يجب أن يمسك السرطان . كان ينبغى أن يمسكه بمهارة من ظهره باصبعيه . وبهذه الطريقة لا يمكن السرطان أن يعضه .

على أن السرطان لم يثر اهتمام الولد هذه المرة . انه سرطان ! وليس فيه شيء خارق للعادة . فالشاطىء كله كان ممتلئا بملاقط السرطانات الجافة وهياكلها القرمزية .

كانت أسماك حصان البحر تثير اهتمامه أكثر من غيرها .

كانت زمرة صغيرة من هـذه الحيوانات الصغيرة قد ظهرت بين النباتات المائية . ألا تشبه فرسان الشطرنج ببوزها وصدرها المخرم ؟ ولكن ذنبها ملوى الى الأمام وتسبح واقفة وتتجه الى بيتيا مباشرة وهى تفتح زعانفهـا وكأنها تنـانين صغيرة تحت البحر .

ما كانت لترتاب فى أن صيادا كان ينتظرها فى هـذه الساعة من الصباح .

خفق قلب الولد فرحا . ما كان فى مجموعته سوى ســمكة واحدة من حصان البحر وهى عينة متغضنة تتنة . وهذه الأسماك كبيرة وجميلة كلها بلا استثناء .

انه لمن الجنون اضاعة هذه الفرصة الذهبية .

خرج بيتيا الى سطح الماء ليتزود بالهــواء ويشرع بالصــيد ولكنه رأى فجأة أباه فى ذروة المنحدر .

كان أبوه يهز قبعته المصنوعة من القش ويصيح .

ولكن الشاطىء كان مرتفعا جدا فكان الصوت يتبدد بصدى طويل فى المنحــدر وما كان بيتيــا يدرك ســوى المقطع الأخير الداوى :

-- ... عين ! عين ! عين ! ...

ومع ذلك فقد فهم بيتيا جيدا ما تعنى «عين ــ عين ــ عين !» هذه . كانت هذه تعنى : — أين مررت أيهــا الولد اللعين ! ؟ لقد بحثت عنك فى كل مــكان . والعربة تنتظر ! .. أتريد أن تفوتنا السفينة بسببك ؟ اخرج من الماء على الفور يا لعين !

أعاد صوت الوالد الى بيتيا الشعور المــرير بالفراق الذى استيقظ به صباحا . وصاح الولد بصوت مدو رن فى أذنى أبيه :

-- سآتى على الفور ! على الفور !

فردد الصدى :

— ... فور ! فور ! فور ! ...

خرط بيتيا ثيابه فى جسمه المبلل (وهــذا ما كان لذيذا له) وشرع يتسلق السفح .

٣

فى السهب

كانت العربة تنتظر على الطريق قبالة الباب . وكان الحوذى واقفا على أحد الدواليب يعلق فوق العربة أسرة مطوية والسلال المستديرة المحشوة بالباذنجان الأزرق الذى كان يرسـل الى اكرمان بنفس المناسبة .

أما الصغير بافليك الذى كان قد عاد وارتدى للسفر صدرية زرقاء جديدة وقبعة صغيرة منشاة تشبه قرص الحلوى ، فكان يقف باحتراس بعيدا عن الخيل وهو يدرس باهتمام جميع أجزاء جهاز الخيول .

وان ما كان يدهشه هو أن هذا الجهـاز الحقيقى للخيـول الحقيقية كان يختلف كثيرا عن جهاز حصانه الجميل المصنوع من الورق المقـوى واسـمه كودلاتكا ، ولم يكن ليجلبه معه الى الاصطياف ، وهو الآن ينتظر صاحبه فى أوديسا .

لا ريب أن البائع الذى باعه كودلاتكا قد غلط قليلا !

فحالما يصل المدينة يجب عليـه ألا ينسى أن يطلب من والده أن يقطع هذه المربعات السود الجميلة جدا التى يجهل اسمهـا ليخيطها عند عينى كودلاتكا .

شعر بافليك بالقلـق لدى تذكره كودلاتكا . كيف يعيش بدونه هناك فى الخزانة المنزوية ؟ هل تقدم له خالته وجبة العليق

من التبن والشوفان ؟ ألم تأكل الفئران ذنبه ؟ لم يبق من هذا الذنب ـ والحق يقال — شيء كثير : شعرتان أو ثلاث شعرات ومسمار ولكن ...

هز بافليك نفاد الصبر فأرخى لسانه جانبا وركض الى البيت ليقول لأبيه وبيتيا ليسرعا .

وعلى الرغم من قلق بافليك على مصير كودلاتكا فما كان لينسى لحظة حقيبة سفره الجديدة التي يحملها بنجاد . كان يمسك بها جيدا بيديه الصغيرتين .

كان فيها علاوة على لوح الشوكولا وبعض قطع البسكويت المملح ماركة « الكابيتين » كنزه الأساسي : وهو عبارة عن حصالة نقود صنعت من علبة من الصفيح : « كاكاو اينيم » كان بافليك يضع فيها الدراهم التي يجمعها لشراء دراجة .

كانت الحصالة تحتوي مبلغا وافيا بعض الشيء : زهاء ثمانية وثلاثين أو تسعة وثلاثين كوبيكا .

تناول بابا وبيتيا طعام الفطور : حليب وخبز أبيض ثم اتجها الى العربة .

كان بيتيا يتأبط كنوزه باحتراس شديد : وعاء فيه نجوم البحر المغمورة في الكحول ومجموعة الفراشات والخنافس والأصداف والسرطانات .

ودع الثلاثة وداعا وديا لمالكي المزرعة اللذين جاءا لمرافقتهم حتى الباب ثم صعدوا الى العربة وسافروا .

كان الطريق يحيط بالمزرعة .

سارت العربة بمحاذاة البستان والسطل المعلق فى محور العربة يضوضى ، وتجاوزت العريشة والزرائب وحظيرة الدواجن ثم وصلت الى مستوى البيدر .

وبعد المنحدر المملوء بأدغال مبيضة من الغبار والمغطى بعناب أحمر تشوبه الصفرة ، تبتدىء مملكة قش البيدر .

كانت أكوام القش القديم والجديد كبيرة وعالية كالبيوت تشكل مدينة كاملة . كانت توجد هنا شوارع حقيقية وأزقة ومنافذ مسدودة . وهنا وهناك تحت الجدران المنضدة من قش عتيق جدا وتكاد تكون سوداء ، كانت سنابل الزمرد من الحنطة تنبثق من أرض كثيفة تبدو كالحديد الصب وتلمع لمعانا لا مثيل له .

كان دخان كثيف أشهب يتصاعد من مدخنة محرك بخارى . ويسمع ضجيج الآلة الدراسة غير مرئية . ونساء يظهرن صغيرات يذرن مسلحات بمذار وهن فوق كومة جديدة كن غائصات فى الحنطة حتى ركبهن .

كان ظل الحنطة المحمولة فى أعالى المذارى يرفرف فوق سحابة التبن التى كانت الشمس تخترقها بأشعتها كأنها أعمدة متحركة .

رأى المسافرون أيضا الأكياس والميزان والأوزان تمر بسرعة. وبعدئذ مرت تلة الحبوب العالية ببطء وكانت قد خرجت من الدراس وغطيت بغطاء .

دلفت العربة الى السهب البسيط .

وبعبارة موجزة جرى كل شيء كالسنوات الفائتة . كانت تظهر حقول حصيدة جرداء مقفرة تمتد عشرات الفراسخ . وهناك قبر وحيد ، ولألأ صفائح بنفسج خالد . وسوسليك جاث أمام جحره . قطعة حبل شبيهة بأفعى مسحوقة .

وها هو ذا الدرب يأخذ باثارة العجاج ومرت زمرة من الدرك على خيولها أمام العربة وهم يعدون .

ــ قف !

وقفت العربة .

دنا أحد الفرسان من العربة .

كانت سبطانة بندقيته القصيرة تتراقص على كتافيته الخضراء الموسومة برقم وكانت قبعته المغبرة مائلة على أذنه تقفز أيضا . وكان السرج يطقطق وتخرج منه رائحة الجلد .

أوقف الجواد رأسه الشاخر بمستوى نافذة العربة المفتوحة . كانت أسنانه الكبيرة تعلك حديد الشكيمة الابيض وكان زبد مخضر يسيل من شفتيه اللتين كأنهما مطاط أسود . وكان يخرج من منخريه الورديين دفقة بخار حار تتجه الى المسافرين .

كانت شفتاه السوداوان تحاولان أن تخطفا قبعة بيتيا المصنوعة من القش .

صاح صوت جندي من أعلى :

ــ من تحمل ؟

أجاب الحوذى فجأة بصوت غريب رقيق مجامل :

أحمل مصطافين يودون ركوب السفينة . انهم ذاهبون الى اكرمان ليركبوا السفينة الى أوديسا . وهم أناس قد قضوا الصيف كله هنا منذ أول حزيران والآن هم عائدون الى بيوتهم...

— دعنا نر قليلا !

وعلى الفور امتد وجه جندى قرمزى ذى شاربين وحاجبين أصفرين وذقن حليقة وذى شارة بيضوية مغروزة فى حافة قبعته الخضراء . ونظر من النافذة :

— من أنتم ؟

أجاب الأب بابتسامة :

— مصطافون .

هذه الابتسامة وهذه الكلمة الرخوة : مصطافون كانت تبدو سخرية فأزعجت الجندى .

فقال بجفاف :

— أرى أنكم مصطافون ! مصطافون ، مصطافون ! ولكن ليس هذا كل شىء . من أنتم أيها المصطافون ؟

ارتعش فك الأب السفلى واهتزت عنفقته . فامتقع لونه من الغيظ وزر معطف الصيف بأصابعه المرتجفة وأصلح وضع نظاراته وصاح بصوت حاد :

— كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟ أنا أستاذ فى التعليم الثانوى وموظف الدولة باتشى وهذان ولداى بيوتر وبافيل ونحن ذاهبون الى أوديسا .

كانت بقع وردية قد ظهرت على جبهته .

وقال الجندى بحيوية وهو يحملق بعينيه ورفع يده بالتحيـــة والسوط عالق بها .

— معذرة من سموك . لقد أخطأت .

هذا اللقب المدنى المجهول والرهيب « موظف الدولة » قد سبب له كما يبدو ذعرا شديدا .

ومن يدرى ؟ كادت المتاعب تحيق به ، فينال صفعة .

فنخز الجواد بمهمازيه وابتعد خببا .

قال بيتيا حينما ابتعد الجنود .

— يا له من سخيف !

عاد الأب وتملكه الغيظ :

— اسكت . كم من مرة منعتك من لفظ هــذه الكلمة ان الذى كثيرا ما يقول « سخيف » هو فى غالب الأوقات ... شخص ليس ذكيا . لا تنس هذا .

لو كان الأمر فى غير هذه اللحظة لدخل بيتيا فى جدال ولكنه التزم الصمت هذه المرة .

فهم جيدا حالة أبيه النفسية .

أما الأب الذى كان يتكلم دائمـــا بازدراء مغيـــظ عن الرتب والنياشين ، وما كان يرتدى بزته ولا وسامه « صليب القديســـة آنا من الدرجة الثالثة » وما كان يعترف بامتيازات الطبقة ويؤكد باصرار أن جميع سكان روسيا هم « مواطنون » ، فقد قال فى

حالة غضبه أشياء مختلفة مستحيلة . ولمن ؟ لأول جندى قادم ...

« أستاذ فى التعليم الثـانوى » ... « موظف الدولة »

« كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة » ...

« آه ! يا للحماقة » — كان وجهه المضطرب ينضح بمعنى هذه العبارة — « أوف ! يا للخزى !» .

وفى خلال ذلك كان الحـوذى كما يحدث له دائما أثنـاء الأسفار الطويلة بالعربة ، قد أضاع وسط هذه البلبلة العامة ذيل سوطه فأخذ يدور مع المقبض فى الأدغال المغبرة على طول الطريق بحثا عنه .

وأخيرا عثر على ذيل السوط وربط العقدة بأسنانه .

قال وهو يدنو من العربة :

— لعنهم الله ! ها هم أولاء الدرك يتجـولون على الطرق ويروعون الناس .

سأل الأب :

— ولماذا يقومون بهذه الجولات ؟

— ومن يدرى لماذا ؟ لعلهم يريدون أن يلقـوا القبض على شخص والله أعلم . فى أول البارحة على بعد ثلاثين كيلومترا عن هنا ، أضرم شخص النـار فى مزرعة بالبانوف . وهو بحـار من السفينة « بوتمكين » التى قامت بالتمرد كما يقال . ولذا فانهم يفتشون فى كل مكان ليقبضوا على البحار الهارب . ويبـدو أنه مختف فى مكان فى هذا السهب . هكذا الأمر . اذن نسير ؟

وهنا صعد الحوذى الى مقعده المرتفع وأمسك بيديه الأعنة وانطلقت العربة .

كان الصباح جميلا ولكن صفاء النفس كان قد بارح نفوس المسافرين .

كان يبدو جليا أن كل شيء ليس على ما يرام فى هذا العالم البديع بسمائه الزرقاء التى تجوبها قطعـان السحب البيض ، فى هذا العالم من الظلال البنفسجية التى تعدو متموجة من تل الى تل على أعشاب السهب ، ويظهر وسطها هنا وهناك جمجمة جواد أو قرون ثور ، فى هذا العالم الذى يبدو مخلوقا لفرحة الانسان وسعادته فقط .

وكان جميع من فى العربة : الأب والحوذى وبيتيا يفكرون .
وكان بافليك وحده يجتر أفكارا أخرى يستعيدها فى خاطره ؛ أفكارا على حدة .

كان الولد ينظر بانتباه من النافـذة وقد تغضنت جبهتـه الصغيرة الشهباء المحدودبة حيث كانت تتهدل من تحت القلنسوة خصلة من شعره المقصوص قصا أنيقا .

قال فجأة ولم يحد ببصره عن النافذة :
— يا بابا ، من القيصر ؟
— كيف هذا ؟ من القيصر ؟
— نعم من هو ؟
— احم . هو رجل .

-- لا ، أعرف أنه رجل . أنت غريب يا بابا . لا أسأل هل هو رجل ، ولكن من هو ؟ أتفهم ؟

-- لم أفهم ماذا تعنى .

-- أسألك : من ؟

-- حقا ... تلح ... طيب اذا أردت ، أنه مسيح .

-- ومن مسحه ؟

-- ماذا ؟

نظر الأب بصرامة الى ابنه .

-- أجل : اذا كان مسيحا فبماذا مســح ؟ أتفهم : بماذا مسح ؟

-- لا تقل حماقات !

أشاح الأب بوجهه مغتاظا .

٤

المنهل

فى الساعة العاشرة صباحا توقفت العــربة فى بلدة مولدافية وأوكرانية لسقاية الجياد .

اقتاد الأب بافليك من يده ليذهبــا لشراء بطيخ . ظل بيتيــا قرب الجياد ينظر اليها كيف تشرب .

أخذ الحوذى الجياد الى حوض السقاية وكانت تجر العــربة الضخمة بما فيها . كانت هناك بئر وشادوف .

دس الحوذى سوطه فى ساق جزمته وتلقف رافعة طويلة جدا معلقة رأسيا وفى نهايتها سطل خشبى ثقيل مربوط بسلسلة . جعل يديه تنزلقان على الرافعة فأخذت تنزل الى البئر . كان الشادوف يئز . مال طرف الرافعة كأنما يريد أن يلقى نظرة على البئر بينما كان الطرف الآخر المجهز بحجرة كبيرة لتكون معادل الثقل ، يرتفع بيسر .

اتكأ بيتيا بصدره على حافة البئر ونظر الى القاع كأنما ينظر بمنظار مقرب .

كانت أسطوانة البئر المرصوفة بأحجار مغطاة بمخمل أسمر من التعفن القاتم تغوص عميقا فى الأرض . وهناك فى قاع الظلمة الباردة كانت تلمع حلقة صغيرة من الماء طبعت طبعا أمينا قبعة بيتيا .

أطلق الولد صيحة فامتلأت البئر بالأصداء كالجرة .

استغرق السطل طويلا حتى نزل وأصبح صغيرا قبل أن يبلغ الماء . وأخيرا سمع صوت ماء بعيد . كان السطل يغوص فى الماء مقرقرا ويمتلىء ثم ابتدأ بالصعود .

كانت نقاط ثقيلة تعاود السقوط فتحدث أصواتا لدى سقوطها كالمكابس .

لبثت الرافعة طويلا حتى صعدت وكانت مهترئة من لمس الأيدى آلاف المرات وبرزت أخيرا السلسلة الندية . أز الشادوف مرة أخيرة . تناول الحوذى بيديه القويتين السطل الذى لا يقل

وزنه عن ستة عشر كيلوغراما وصبه فى حوض السقاية الحجرى .

غير أن العربجى قبل ان يصبه شرب منه وبعدئذ شرب بيتيا بدوره ، وهذا ما كان يؤلف سحر المنهل .

غسس الولد أنفه وذقنه فى الماء الشفاف البارد كالثلج . كانت ذقن التعفن الخضراء تغشى السطل من داخله . كان فى هذا السطل وفى هذا الاخضرار شيء مريع سحرى . شيء قديم جدا من الغابة يصور فى مخيلة الولد صورة طاحونة الماء والطحان الساحر والبحيرة السرية المشئومة و « الأميرة الضفدعة » .

سبب له الماء البارد ألما حادا فى جبينه ولكن النهار كان حارا وكان بيتيا يعرف أن هذا يزول بسرعة .

كان بيتيا يعرف حق المعرفة أيضا أنه يلزم الخيل ما لا يقل عن ثمانية سطول أو عشرة لسقايتها . وهذا يستغرق على الأقل نصف ساعة . فلديه الوقت للقيام بجولة قصيرة .

سار الولد فى الوحل باحتراس ، وكان أسود كالدهان منقوشا بأظلاف الخنازير . فذهب يمشى على طول ساقية فى مرج يملأه زغب الاوز .

قادته الساقية الى مستنقع صغير غمرته غابة سامقة من القصب والأعشاب الضارة .

وهنا حتى فى أحر ساعة من النهار كانت تسود رطوبة مظلمة . شم بيتيا ألف رائحة فاغمة .

كانت الرائحة الخاصة رائحة نبتة السعادى تختلط بنتانة النبتة التى تسبب الصداع .

كانت أشجار البقم ذات الأوراق الحادة المغطاة بجوزات صغيرة سوداء وخضراء مع أشواك غليظة وأزهار عبقة طويلة لطيفة وبيضاء تنمو الى جانب عنب الذئب والسيكران و «عشب النوم» السحرى .

كانت ضفدعة كبيرة واقفة بجمود على الطريق وعيناها مغمضتان كأنما هى مسحورة وكان بيتيا يحاول جهده ألا ينظر اليها . والا يرى على رأسها تاجا صغيرا من الذهب ؟

انه لمكان سحرى حقا كغابات حكايات الجن .

ألم تضع هنا أليونوشكا النحيلة المسكينة ذات العينين الكبيرتين بحثا عن أخيها ايفانوشكا الذى انقلب حملا ؟ *

لو خرج حمل أبيض من الأجمة وهو يثغو بصوت ولد رقيق فان بيتيا سيغمى عليه من الخوف . قرر الولد الا يعود الى التفكير بالحمل . ولكنه كان كلما حاول ألا يفكر به كان يجد نفسه مسوقا الى التفكير به . وكلما فكر فيه ازداد خوفا ، وهو وحده وسط هذه الخضرة القاتمة فى هذا المكان اللعين . أطبق جفنيه بعنف كيلا يصيح واندفع خارج الأجمة ، ولم يقف الا عندما وجد نفسه وراء مزرعة صغيرة .

---

* اليونوشكا واخوها ايفانوشكا ـ بطلان من حكاية شعبية روسية وقد حولت أرواح شريرة ايفانوشكا خروفا ابيض .

أبصر بيتيا بيدرا جميلا يفصله عنه سياج معلق فيه كثير من الجرار . كانت فتاة فى الحادية عشرة من عمرها تقريبا تلبس تنورة طويلة مثنـاة وقميصا قصـيرا ذا كمين فضفاضين وتضـع على رأسها وشاحا تقف وسط الحلبة المفروشة بالحنطة الغضة المجلوبة من الحقول من وقت قريب .

كانت تطلق جوادين مكدنين واحدا وراء الآخر مرخية لهما العنان وهى فى حمى من الشمس تقف تارة على رجل وتارة على الرجل الأخرى ورجلاها حافيتان . كانا يجعلان القش يتطاير من دفعه بحوافرهما ويدحرجان على طبقة الحنطة الكثيفة اللامعـة اسطوانة حجرية تتوائب بشدة بدون ضوضاء .

وكانت الأسطوانة تجر لوحا عريضا بعض الشيء ومعقوفا من الأمام كحذاء التزلج على الثلج .

كان بيتيا يعرف ان هذا اللوح يحمل تحتـه عددا كبيرا من الظرار الصفراء الحادة لاسقاط الحب من السنابل .

كان ولد بعمر بيتيا يلبس قميصا حـائلا محلول الأزرار ، وعلى رأسه قبعة رفع رفرفهـا يقف على هـذا اللوح الزاحف بسرعة ، بجـرأة كأنما يقف على زلاقة وهو يحتفظ بتـوازنه بصعوبة .

وكانت فتاة صغيرة ذات رأس أشقر متشبثة بعصبية ببنطلون أخيها وهى جاثية عند رجليه مثل فأرة صغيرة .

وكان عجوز يعدو فى حلقة البيدر يحرك قش القمح بمذراة

خشبية ويلقى القش تحت أقدام الجوادين . وكانت عجوز تصلح الحلقة التى يفسد شكلها وذلك بلوح خشبى طويل ينتهى بعصا .

وعلى بعد قليل كانت أمام الكومة امرأة ذات ذراعين أحرقتهما أشعة الشمس فيهما عضلات كالرجال تدير آلة للتذرية . وكانت القطع الحمراء تمر بسرعة من ثقوب الغربال .

وكان الهواء يسفى منها سحابة لامعة من التبن ، فتهبط خفيفة مثل ستار من الغاز على الأرض وعلى الأعشاب الضارة وتصل حتى البستان حيث يظهر فوق الخضرة الجافة لبندورات ناضجة صفراء وحمراء نظار مغطى بقبعة للنبلاء لها اطار أحمر .

كانت الأسرة كلها تعمل هنا على هذا البيدر ما عدا رب الأسرة . ما من ريب فى أن رب الأسرة كان فى الحرب ، فى مكان من منشوريا بين جاوليان وكان اليابانيون يطلقون عليه بشيموزا * .

هذا الدراس الفقير الدقيق ما كان يشبه تلك الدراسات البديعة التى كان بيتيا قد رآها فى مزرعة رودولف كارلوفيتش ولكنه كان يجد سحرا فى هذا الدراس المتواضع . وقد كان يود لو يقوم بدوره على لوح الدراس أو على الأقل يدير ذراع آلة التذرية . ولو كان فى غير هذه الآونة لرجا الولد بأن يدعه يركب على لوح الدراس الا أنه — يا للاسف — ليس لديه وقت .

عاد بيتيا أدراجه .

---

* شيموزا — مفرقعات ، تستعمل فى اليابان لحشو قنابل المدفعية .

لقد انطبعت الى الابد فى ذاكرته جميع التفاصيل البسيطة والمؤثرة لعسل الفلاح : لمعان صفرة القش الجديد والجدار الخلفى للكوخ المبيض حديثا وفى أسفل الجدار دمى من الخرق وقرعات يابسة تدعى « تاراكوتسكى » اللعبة الوحيدة لأولاد الفلاحين وعلى ذروة سقف القصب لقلق واقف على رجل واحدة الى جانب عشه الكبير المشعث .

علقت صورة هذا اللقلق بذهن بيتيا : جاكيته الصغير الضيق ، صدريته البيضاء وساق رجله الحمراء (الساق الأخرى كانت غير بارزة) منقاره الطويل الأحمر الذى يصدر صوتا كصوت الخشب يشبه الناقوس الخشبى لحارس الليل .

وكانت ثلاثة جياد مسرجة مربوطة الى جانب بيت يحمل لافتة كتب عليها : « دائرة ناحية » مكتوبة بالدهان الأزرق

وكان جندى بين ركبتيه سيف ينتعل جزمة مغبرة ، جالسا فى ظل على الدرج يدخن ماخوركا ملفوفة بقطعة ورق من احدى الجرائد .

سأل بيتيا :

— يا عم ! ماذا تعمل هنا ؟

تفحص الجندى بتراخ وليد المدينة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وأطلق من بين أسنانه بصقة صفراء جانبية وقال بصوت غير مبال :

— نصطاد بحارا .

« ما هذا البحار الرهيب الغريب المختبىء فى مكان قريب فى السهب والذى يضرم النيران فى المـزارع ويود الجنـود القـاء القبض عليه ؟ »ـ كان بيتيا يسائل نفســه هكذا وهو ينزل من الدرب الحار المقفر فى واد متجها الى البئر ـ « قد يهاجم عربات الركاب قاطع الطريق هذا ؟ » .

لا جرم أن بيتيا تمالك نفسه عن أن يعرب عن مخاوفه لأبيه وأخيه . ما جدوى اقلاق الناس بلا طائل ؟ ومع ذلك تيقظ ودس مجموعاته باحتراس تحت المقعد قرب الحائط .

وما ان انطلقت العربة وبدأت تصعد مرتفعـا حتى التصق الولد بالنافذة وأخذ يتفحص ما حـوله متوقعـا أن يرى قاطع الطريق يبرز فى منعطف الطريق .

وكان قد عزم عزما راسخا ألا يبـارح مركزه حتى يصـل المدينة .

وفى خلال ذلك كان والده وبافليك اللذان كانا يبدوان أنهما لم يتوجسا خطرا منشغلين باحدى البطيخات .

كانت توجد عشر بطيخات اشتريت الواحـدة بكوبيك وقد كومت فى غطاء وسادة سميك طرزت أطرافه الأربعة بأربع باقات وحال لونها من كثرة الغسيل . أخـرج والده بطيخـة من نوع كاتتالوبكا صلبة ذات لون رمادى تشوبه الخضرة وهى محـززة وقال : « هيا نذوق هذه البطيخات العظيمـة » وقطعها بعنـاية بطولها وفتحها كبيضة عيد الفصح . ملأت العربة رائحة شهية .

أفرغ الوالد بالموس « أحشاء » البطيخة وألقاها من النافذة بحركة قوية وخفيفة ثم قطعها حزوزا شـــهية رقيقـــة وقال وهو يضعها على منديل نظيف :

— أعتقد أن هذه البطيخة الصغيرة لا بأس بها .

تناول بافليك أكبر حز بكلتا يديه وكان يتلوى وقد فرغ صبره وغاص فيه حتى أذنيه . كان ينفخ متلذذا وكانت نقاط من عصيرها تسيل على ذقنه .

أما والده فقد وضع فى فمه قطعة صغيرة وعلكها وهو يغمض عينيه بلذة :

— انها عظيمة فعلا :

أكد بافليك مؤيدا :

— ع ... ظيمة !

سمع بيتيا وراء ظهره كل هذه الأشياء التى تسيل اللعاب ، فما عاد ليتمالك نفسه ويطيق صبرا فنسى الخطر وانقض على البطيخة .

٥

الهارب

على بعد عشرة فراسخ من مدينة اكرمان تبـــدأ الكروم . كانت البطيخة قد أكلت منذ وقت طويل ورميت قشورها من

النافذة . وبدأ الملل يدب الى النفوس . وكان الوقت قد قارب من الظهر .

كانت نسمة الصباح التى تذكر عذوبتها بأن الخريف لن يلبث طويلا حتى يأتى ، وقد انقطعت تماما وكانت الشمس محرقة كما فى أوج شهر تموز بل تبدو أشد حرارة وجفافا وارهاقا .

كان الجوادان يجران العـربة الضخمـة بمشقة فى الرمـل الذى لا يقـل عمقـه عن ستين سـنتيمترا . وكان الدولابان الأماميان - الصغيران - يغوصـان حتى المحور أما الدولابان الخلفيان -- الكبيران -- فكانا يترنحـان ببطء ويدهسـان الأصداف الزرق التى تملأ الرمال .

كان غبار السفر قد غشى المسافرين كغيمة خانقة ، فابيضت الحواجب والاهداب وكان الغبـار ينسحق تحت الأسنان . حملق بافليك بعينيـه البنيتين الكاشـفتين واللامعتين كالمرآة وعطس بملء شدقيه .

لقد صار الحوذى طحانا .

والكروم فيما حولهم تمتد الى ما لا نهاية .

كانت السوق العجراء للـكرمات القديمة المغروسـة غرسـا مرتبا وكأنما انتابها الروماتيزم ، تغطى الأرض اليابسة المغبرة . وكان يمكن أن تبدو دميمة بل مقـززة لو أن الطبيعة لم تزينها بأوراق منقوشة نقشا بديعا .

هذه الأوراق المحددة والمغطاة بتخاريم من عروقها العجراء وببقع زرقاء من سلفات النحاس كانت تعكس نورا أخضر وأصفر تحت أشعة شمس الظهر الواهجة .

وكانت الكرمات الفتية تلتف على السوق العالية وتنحنى الأغصان القديمة بثقل العناقيد .

على أن المرء تلزمه عين ثاقبة ليلمح هذه العناقيد المطمورة تحت أوراق الكروم الوريفة وان الرجل الغر يكاد يقطع هكتارا دون أن يجد عنقودا واحدا بينما كل كرمة مكللة بها وهى تصيح « ها نحن أولاء أيها المغفل ! نحن هنا قناطير مقنطرة . تناولنا وكلنا . أرأيت هذا المغفل !! » ويرى المغفل أمام عينيه فجأة عنقودا ثم ثانيا وثالثا .. وفى النهاية يتلألأ الكرم كله أمامه بالعناقيد المنتشرة فى كل مكان كما فى حكايات الجن .

ولكن بيتيا عارف خبير . فقد انكشفت له عناقيد العنب لأول وهلة ، ولم يرها من العربة فحسب بل ميز أنواعها .

لقد كانت توجد أنواع لا حصر لها من العنب .

فعنب « التشاوس » الكبير الأخضر الكاشف ذو الحبات العكرة التى تستشف منها نوى عكرة ، كان متدليا بعناقيد طويلة هرمية ذات وزن ثقيل . وان عين العارف الخبير لا تمكنه أن يخلطها مثلا مع عنب « أصابع المرأة » الأخضر والكاشف أيضا ولكنه أكثر تطاولا ولمعانا .

وما كان عنب « الشاشلا » اللطيف الطبى يختلف الا قليلا

عن العنب « المسكاتى الوردى » ولكن ما أكبر الفرق !! فحبات « الشاشلا » المرصوصة فى عنقود صغير أنيق حتى انهـا فقدت شكلها وكادت تصبح مكعبة ، كانت تعـكس أشعة الشمس بحباتها الوردية العنبرية ، بينمـا أثمـار العنب « المسـكاتى الوردى » المغطاة بغبار الطلع الجمستى اللون كانت بدون لمعـة تحت أشعة الشمس .

وكل أنواع العنب هـذه : العنـب « ايزابلا » الأزرق « الأغبس » لشـدة سـواده وعنب « التشـاوس » وعنب « الشاشلا » أو « المسكاتى » كانت ساحـرة مغـرية بجمالها الناضج الشفاف حتى ان أصعب الفراشات شهية كانت تحط فوقها كما تحط فوق الأزهار وتدس قرنيها مع لبلابات الكرمة فتختلط بها .

كان يظهر فى بعض الأحيـان كوخ بين أشجـار الكرمة . وكان دائما الى جانبـه برميل ملىء بالسـولفات مبقـع بلون لازوردى من ظل شجرة تفاح أو مشمش .

كان بيتيا ينظر الى هذه الأكواخ المصنوعة من القش بعين ملؤها الحسد .

كان يعرف حق المعرفة مبلغ جمال الانزواء فى مثل هـذا الملجأ ، والاستلقاء على القش الجاف الحار فى ظل هجير بعـد الظهر .

الهواء الكثيف الساكن كان مشبعا بروائح السعتر والكمون

الفاغمة . وكانت قـرون الحمص تجف فى الشمس وتنفجر بلا ضوضاء . ما كان أجملها !!

أشجار الكرمة ترتعش وتسيل تحـت أشعة الشمس بحرارة لاهبة .

وفوق كل هذا سماء السهب الزرقاء الشـاحبة تنبسط ، سماء بلون الحوار فقدت لونها بسعير الهاجرة .

كان هذا بديعا .

على أنه قد حدث فجأة حادث سريع غـريب للعادة ، حتى انه كان من العسير على المرء أن يعرف ماذا حـدث أولا وماذا طرأ بعدئذ .

انه لأمر فوق الشك : لقد سمعت فى بادىء الأمر طلقـة نارية . لم تكن الطلقـة النـارية الداوية المألوفة من بنـدقية الصيد ، التى كثيرا ما تسـمع فى الكروم . بل انه أزيز شئيم رهيب لبندقية حربية .

وظهر فى الوقت نفسه على الطريق دركى يمتطى صهـوة جواد وفى يده بارودة .

أحكم تصويب بندقيتـه الى الكرم ولم يطلق الرصاص . ووضع بارودته على السرج وهمز جواده . ومال ووثب من فوق السياج الى الكرم . وضغط قبعته على رأسه وأخذ يعدو بخط مستقيم داهسا شجرات الكرمة واختفى بسرعة .

استمرت العربة فى سيرها .

كان الطريق خلال بعض الوقت قد ظل مقفرا موحشا .

بيد أنه فجـأة أخـذت شجيرات من الوراء على سياج تتأرجح ، ووثب شخص الى حفرة ثم تسلق الى الطريق منها .

كان رجل ضائع فى سحب الغبـار الكثيف يركض فى اثر العربة .

وكان الحوذى من فوق مقعده قد لاحظه قبل غيره . غير أنه بدلا من أن يقف انتصب ولوح بسوطه بشكل مسعور فأخذ الجوادان يعودان .

ولكن الرجـل المجهـول كان قد نجح فى القفـز الى درج العربة وفتح الباب الخلفى فنظر فى العربة .

كان يتنفس بصعوبة بالغة وهو يلهث .

كان رجـلا مربوعا ذا وجه فتى ممتقع من الخوف وعينين كستنائيتين ما كان أحد يدرى هل روعهمـا الفـرح أم الذعـر المميت .

كان على رأسه الكبير المستدير ذى الشعر الحليق بشكل قصير قبعة صغيرة جديدة لها زر مثل التى يلبسها العمال فى الأعياد . الا أنه من جهة أخرى كان يبـدو تحت جاكيته الضيق كثيرا قميص أجير مزرعة مطرز بحيث يستطيـع المرء أن يعتبره أجيرا زراعيا .

ولكن بنطلونه من القماش العسكرى الذى لفعه الغبار كان ينافى المظهـر الـذى يمكن عامل المدينة أو أجير المزرعة أن يتخذه .

كان البنطلون مشمورا عن احدى ساقيه فيكشف الساق الحمراء لجزمة بحرية غليظة .

« لعله البحار ! » ـ هذه الخاطرة الرهيبة أومضت كالبرق فى رأس بيتيا . وقد تضاعف ذعره حينما رأى بوضوح مرساة زرقاء موشومة على يد المجهول الذى يشد على مقبض الباب .

وما كان اضطراب المجهول ليقل عن اضطراب المسافرين باقتحامه العربة المفاجىء .

فما أن رأى سيدا على عينيه نظارة وهو صامت ومعه ولدان مذعوران حتى حرك شفتيه كأنما ليلقى التحية أو يعتذر .

ولكنه ما استطاع أن يفتر الا عن ابتسامة من طرف شفتيه .

وانتهى به الأمر بأن قام بحركة تعبر عن نفاد الصبر وتهيأ للقفز الى الطريق عندما ظهرت أمام العربة دورية من الجنود . نظر المجهول باحتراس من وراء صندوق العربة ورأى جنودا غشاهم الغبار فوثب الى الداخل وصفق الباب .

ألقى على المسافرين نظرة ضارعة وانبطح بدون أن يقول كلمة واندس تحت المقعد حيث كانت المجموعات ، فارتاع بيتيا .

نظر بيتيا الى والده فزعا ولكنه رآه ساكنا ووجهه لا يحير بحركة وهو ممتقع قليلا وعنفقته ممتدة الى الأمام . كتف يديه على بطنه وفتل ابهاميه .

كان مظهـــره يقول : لم يحدث شيء . لا سبيل الى أســئلة فلنبق فى أماكننا كأنما لم يحدث شيء ولنستمر فى السفر .

لم يفهم بيتيا أباه على الفور فحسب بل فهمه أيضا بافليك .

يجب ألا يلاحظ شيئا . وأمام هذا الوضع كان الأمر أسهل وأحكم .

أما الحوذى فما كان موضـــع اهتمام . فضرب الجوادين بالسوط ولم يلتفت .

وبعبارة موجزة كانت هذه مؤامرة صمت مجمع عليها بشكل غريب . مرت الدورية بالعربة .

نظرت عدة وجوه من الجنود الى العربة من النافذة ولكن البحار ظل تحت المقعد منبطحا . فلم يظهر .

لم تر الدورية شيئا مريبا فى هـــذه العربة المسالمة المحمـــلة بالولدين والباذنجان فمر الجنود دونما توقف .

دام الصمت ثلاثين دقيقة على أقل تقدير وظل البحار ساكنا فى مكانه وكل شيء كان ساكنا فيما حولهم .

وأخيرا برزت أولى سقوف المدينة محاطة بخضرة الأكاسيا الهزيلة .

فقطع الأب حبل الصمت . نظر بلا اكتراث الى النافذة وقال كأنما يحدث نفسه ولكن بصوت عال جهورى :

— أوه ! أعتقد أننا قد وصلنا واكرمان قد ظهرت . ما أشد الحرارة ! ما من روح حى فى الطريق .

فهم بيتيا على الفور حيلة أبيه . فصاح :

— لقد وصلنا ! لقد وصلنا .

وأمسك بافليك من كتفيه ودفعه الى النافذة وهو يصيح بصوت يتكلف الانفعال :

— انظر يا بافليك ، انظر الى الطائر الجميل الذى يطير .

سأل بافليك بفضول وهو يمد لسانه لهفة :

— أين الطائر ؟

— آه ! يا الهى ! ما أغباك ! ها هو ذا .

— لا أراه .

— أنت أعمى .

وفى هذه اللحظة حدثت ضجة ضعيفة وانصفق الباب فالتفت بيتيا بسرعة . ولكن لم يتبدل شىء . اللهم الا أنه لم تعد هناك جزمة بارزة من تحت المقعد .

اعترى القلق نفس بيتيا فألقى نظرة الى تحته ليرى فيما اذا كانت مجموعاته سليمة . قد كانت العلب فى مكانها وكل شىء على ما يرام .

كان بافليك ما يزال يتلوى لهفة أمام النافذة لرؤية الطائر .

كان يتباكى وقد برم بوزه قائلا :

— أين الطائر ؟ أرنى الطائر ! يا بيتيا أرنى الطائر .

قال بيتيا واعظا :

— كفاك بكاء . لا يوجد الطائر . لقد طار . يا لك من شرير !

تنهد بافليك بحزن مدركا أنه قد خـــدع ظلما وأخذ ينظر تحت المقعد مندهشا كل الدهشـــة ما كان هناك أحد ، ثم قال بصوت مضطرب :

- بابا ! أين العم ؟ أين ذهب ؟

قال له الأب بصرامة :

دعونا من الثرثرة !

وسكت بافليك على مضض وهو يعتصر رأسه ليفهم سر اختفاء الطائر والعم الذى لا يقل عنه غموضا .

كانت الدواليب تحـــدث ضجة على بلاط الشارع ودخلت العربة شارعا ظليلا تحفه الأكاسيا .

كانت أعمدة التلفون العجراء والغبراء تمرق وسقوف من الصفيح الأزرق والقرميد الأحمر . وكانت العين تستشف عن بعد ماء الخليج الساكن .

وكان بائع للمثلجات بقميص أحمر ارجوانى يسير فى الظل يحمل علبة مثلجاته على رأسه .

كان الوقت قد تجاوز الساعة الواحدة . هذا ما تدل عليه الشمس . اما الباخرة « تورغينيف » فكانت تتهيأ للســـفر فى الساعة الثانية .

قال الوالد للحوذى أن يذهب توا دون المرور على الفندق الى الميناء الذى انبعث منه فى هذا الحين صفير باخرة طـــويل جهورى .

٦

الباخرة «تورغينيف»

يجب ألا يغرب عن البال ان الأحـداث المسرودة فى هذا الكتاب قد جرت منـذ أكثر من ثلاثين سنة الا أن الباخـرة « تورغينيف » كانت تعتبر حتى فى هذا العهد أقدم باخرة .

انها طويلة بعض الشيء ولكنها ضيقة . وهى مـع دولابيها اللذين كانت لوحاتهما الحمراء تبدو فى فجوات الطبـل ، ومع مدخنتيها كانت زورقا كبيرا أكثر منه باخرة صغيرة .

على أنها ظهرت لبيتيا أعجوبة من المنشآت البحرية ، وكان السفر من أوديسـا الى اكرمان بعينيه كأنما هو مرحـلة عبر الأطلسي .

كانت تذكرة من الدرجة الثانية تكلف غاليا بعض الغلاء : روبل وعشرة كوبيكات . وقد اشتروا تذكرتين ، وسافر بافليك مجانا .

بيد أن السفر فى الباخرة مع ذلك أقل كلفة وأكثر متعة من سير العربة « اوفيدييبوليتس » ثلاثين فرسخـا وسط سحب الغبار . كانت هذه العربة عربة يهودى قديمة يقودها حـوذى يلبس قفطانا ممزقا ومزنرا بحزام أحمر لحوذى الطرق الكبيرة . فبعد أن دس هذا الحـوذى الأشقـر ذو العينين الحمـراوين والمريضتين دائما ، دس فى جيبه خمسة روبلات تحقق منها بادىء

ذى بدء بعضها ، اختبر صبر زبائنه بتقديم العلف لجواديه العجوزين اللذين يكادان يموتان ، وذلك كلما قطع فرسخين .

ما كادوا يستقرون ويضعون الأمتعة فى الحجرة المشتركة للدرجة الثانية حتى دب النعاس الى جفون بافليك وقد أرهقته الشمس ووعثاء السفر . كان لا بد من جعله يرقد على مقعد مغطى بمشمع أسود ألهبته الشمس التى تنفذ من النوافذ المربعة .

كانت هذه النوافذ محاطة باطارات من النحاس الصقيل ولكنها مع ذلك كانت تضر بالمظهر العام للباخرة .

فمن المعروف أن الباخرة المحترمة ينبغى لها أن يكون لها كوى مستديرة تغلق فى حالة هبوب العاصفة بشكل محكم .

أما حجرة الدرجة الثالثة الكائنة فى مقدمة السفينة فكان أكثر حظوة : اذ كان فيها كوى حقيقية ولكن لا يوجد فيها أرائك وثيرة ، بل كان فى محلها مقاعد خشبية كما فى ترام الخيل .

ولكن السفر فى الدرجة الثالثة كان أمرا غير لائق كثيرا ، وفى الدرجة الأولى غاليا كثيرا .

ان أسرة باتشى المدرس فى ثانوية اوديسا بوضعها الاجتماعى تنتمى الى الصنف المتوسط من المسافرين ، وهو صنف الدرجة الثانية . كان يمكن هذا أن يكون حلوا ومريحا فى حالة وبشعا ومهينا فى حالة أخرى . وكان لا بد من المعرفة فى أى طبقة يوجد أصحاب الأسرة .

لذلك كان السيد باتشي يتحاشى دائما أن يغادر مصيفه برفقة جيرانه الاثرياء لأنه ما كان يود أن يشعر بالمهانة .

كان الفصل فى أوجه ، فصل البندورة والعنب وكان التحميل يمتد متطاولا بشكل ممل .

صعد بينيا عدة مرات الى ظهر الباخرة ليعرف فيما اذا كانت الباخرة ستقلع عما قريب . ولكن الأمور ما كانت على ما يبدو لتتقدم . كان العتالون يمرون على جسر التفريغ واحـدا تلو آخر بشكل لا ينتهى يحملون صناديق وسلالا على أكتافهم ومع ذلك فان الطرود المكومة على الرصيف ما كانت لتنقص .

اقترب الولد من نائب القبطان الذى يراقب التحميل ودار حوله ووقف بجانبه ينظر الى جوف السفينة حيث تنزل باحتراس كبير براميل الخمور معلقة بسلاسل بعناقيد ثلاث قطع أو أربع .
كان يلمس فى بعض الأحيان مرفق نائب القبطان كأنما عن سهو كى يلاحظ .

قال نائب القبطان بضجر وغير مبال : يا صبى لا تقف بين رجلى .

ولكن بينيا لم ينزعج وانما كان يود أن يتحادث معه .

— قل لى يا عم من فضلك هل ستقلع الباخرة عما قريب ؟
— عما قريب .
— ومتى عما قريب ؟
— عندما ينتهى التحميل .

— ومتى ينتهي التحميل ؟
— عندما نذهب .
أخذ بيتيا يضحك متملقا لينال عطف نائب القبطان .
— لا ! قل لى يا عم بجد : متى ؟
— كفاك أن تندس بين أرجل الناس .
انسحب بيتيا نشيطا خفيفا كأنما لم يسمع شيئا مزعجا : لقد تحادث ثم افترق وهذا كل شيء .
وعاد يراقب الرصيف الذى كان يضجره أشد ضجر وذقنه مستندة الى درابزين .
وعلاوة على الباخرة « تورغينيف » كان هناك أيضا عدد كبير من المراكب تملأ حمولتها .
وكان الرصيف كله مليئا بعربات الشحن المحملة بالقمح .
كانت الحبوب تسيل بضوضاء جافة حريرية فى الفرجات المربعة للكوى سالكة قنوات خشبية .
وكانت شمس لاهبة تلفح هذا الرصيف المغبر الذى لا بهاء فيه ولا جمال .
كل شيء يبدو قبيحا قبحا شديدا .
كانت البندورة الشهية التى تلمع بحرارة فى ظلال الأوراق الذاوية من البساتين تأتى هنا معبأة فى آلاف الصناديق المتماثلة .
وكانت الأعناب المتنوعة اللطيفة والجميلة التى كان كل

عنقود منها تحفة رائعة فى الكرم مـــكومة فى سلال كبيرة من القصب ومخيطة على عجل بقماش سميك وعليه بطاقات ملطخة بصمغ .

وكان القمح الذى زرع وهيىء بعناية — هذه الحنطة التى بلون العنبر الذى يفوح بكل روائح الحقل المستعر — مطروحا على أقمشة وسخة تطأها الجزمات .

وكانت العين ترى بين الأكياس والصناديق والبراميل شرطى اكرمان يتجول وهو لابس بدلة بيضاء وفى عنقه الاسود نجاد برتقالى ربط به مسدس وهو يحمل سيفا طويلا .

كانت الحرارة الساكنة التى تجثم بثقلها على النهر والغبار والضوضاء المدوخة المتواصلة من التحميل البطىء ، — كل هذا — حمل بيتيا على النوم .

وبسائق الصدفة وصل مرة أخرى الى نائب القبطان ليعرف فيما اذا كانت السفينة ستقلع عما قـــريب ، فتلقى مـــرة أخرى الجواب بأن السفينة ستقلع حالما ينتهى التحميل ، وأن التحميل سينتهى عندما ستقلع السفينة .

تثاءب بيتيا قائلا لنفسه فى نعاسه : ان كل شىء فى الدنيا بضائع ، البطاطا بضاعة والمـــراكب بضاعة ، والبيوت التى على الشاطىء بضاعة ، والأكوام بلون الليمون التى الى جانب هذه البيوت بضاعة ولربما أيضا — وهذا محتمل كثيرا — العتالون بضاعة . وانتهى به الأمر أن عاد الى حجرة السفينة وجلس الى

جانب بافليك واستسلم للنوم وعنـدما استيقظ كانت السفينة تمخر عباب البحـر .

لقد تغير وضع الحجرة . انها أكثر اضـاءة الآن . وكان الانعكاس المتموج من الأمواج يركض على السقف .

الماكنة تدور وضوضاء الدواليب السريعة تتعالى .

لقد أضاع بيتيا أمتع لحظة اقلاع السفينة وصفيرها الثالث وأوامر القبطان وسحب الجسور ورمى الحبال ...

وقد زاد الطـين بلة أن أباه وأخـاه بافليك لم يكونا فى الحجرة . لقد رأيا اذن كل شىء .

صاح بيتيا وقد شعر كأنما سرق :

— لماذا لم توقظانى ؟

وأسرع الى السطح وارتطمت رجله بالعتبة النحاسية الحادة فتألم ولكنه لم يعر التفاتا الى هذه التفاهة .

— أكرههما ، أكرههما ! ولكن بيتيا قد أخطأ حين حزن الى هذا الحد .

أجل ، ان السفينة قد بارحت الرصيف ولكنها ما تزال تقوم بالمناورة ، وهذا يعنى أن أكثر شىء متعة لم ينته .

كان ما يزال يقال ! « الى الأمام ، بهدوء » ، و « الى الأمام بكل هـدوء » ، و « قـف ! » و « الى الوراء » و « الى الوراء بكل هدوء » وكثير من الأشياء الساحرة التى كان بيتيا يعرفها معرفة تامة .

كان الرصـــيف يبتعـــد ويضـــيق ويغيب . وكان الركاب الكثيرون قد اجتمعوا جميعا فى طرف السفينة . كانوا ما يزالون يلوحون بمناديلهم وقبعاتهم بتعبير من اليـــأس المتلهف كأنما يرحلون الى أقصى الدنيا بينما المســـافة ليست ســـوى ثلاثين فرسخا بخط مستقيم .

بيد أن تقاليد المسافرين فى البحر كانت هـــكذا ، ومزاج الجنوبيين الحار .

كان يوجد فى الغالب ركاب من الدرجة الثالثة وركاب على ظهـــر السفينة يركبـــون على الجسر الأدنى فى المقـــدمة قرب المستودع . وما كان لهم الحق أن يصعدوا الى سطوح السفينة العليا المحجـــوزة للجمهـــور « الراقى » من الدرجـــة الأولى والثانية .

رأى بيتيا أباه وبافليـــك على السطح العلوى كانا يلوحان بقبعتيهما بشدة .

وهنا أيضا كان القبطان وجميع البحـــارة : نائب القبطان والبحاران الحافيان . كان القبطان وبحـــار واحد يقومان بعمل بحرى ، من كل مجموع البحارة . كان نائب القبطان وبحار آخر يبيعان التذاكر . كانا مجهزين ببكرة من الورق الملون وبصندوق من الأسلاك كما يرى فى الأفران ، وهما يطوفان على الركاب الذين لم يسمح لهم الوقت بشراء تذاكر من الرصيف .

كان القبطان يصدر الأوامر ويذهب ويجىء على ظهر الباخرة

بين جسرين أقيما فوق سطح السفينة . وكان البحار في خلال ذلك ينظر في حـوض نحاسي لبوصلة كبيرة ويدير دولاب دفة مستعينا من حين الى آخر برجله الحافية ، وأعين الركاب تنظـر اليه مندهشة . كان الدولاب يئز أزيزا رهيبـا وتزحف سلاسل الدفة على طول السطح فتحدث ضجيجا وتكاد في كل لحظة أن تنتزع ذيل فساتين النساء غير المحترسات .

كانت السفينة تسير القهقرى وتنعطف ببطء .

صاح القبطان للرجل الذي يدير الدفة ، بصـوته الأجش بدون أن يعير التفاتا للركاب الذين يحيطون بالبوصلة باجلال .

— الى اليمين ! — الى اليمـين ! الى اليمين أيضا ! أيضا قليلا ! أيضا ! حسنا ! هكذا !

وانتقل على الجسر الأيمـن وفتح غطاء اسطوانة مقـوية للصوت وضغط برجله على دواسة . دوى في أحشاء السفينة رنين جرس حاد . رفع الركاب حواجبهم متأثرين وتبادلوا النظرات صامتين . لقد فهموا أن القبطان قد رن في الآلة .

ماذا يجب أن يعمـل ؟ هـل يركض الى الجسر ليرى كيف سيتكلم القبطان في الأسطوانة المكبرة للصوت أم يبقى بجانب البحار والبوصلة ؟ ما كان بيتيا يدري أين يتجه برأسه .

سيطرت عليه الأسطوانة المكبرة للصوت .

أخذ الولد بافليك من يده واقتـاده الى الجسر وهو يصيح محتدا راغبا في أعمـاق نفسه أن يظهر أهليته كمـلاح ماهر

لفتاتين غريبتين ولكنهما جميلتان : — انتبه يافليك ، ان القبطان سيقول فى الأسطوانة المكبرة : « الى الأمام ! »

قال القبطان بهدوء :

— « الى الوراء » بهدوء !

وعلى الفور رن جرس فى الأسفل . وهذا يعنى أن الأمر قد سمع .

٧

الصـورة الفوتوغرافية

غابت اكرمان وما عادت خرائب الحصن التركى القديم تبدو وكانت الباخرة تواصـــل شقهـــا عباب خليج الدنيستر المترامى الأطراف حتى أنه كان يبدو أن الماء البنى المروى بالقصـــدير الذائب من الشمس لن ينتهى .

كان الماء عـــكرا حتى ان ظل السفينة كان يظهر عليه كأنما هو على الطين .

وبدا أن السفر لم يبدأ بعد . كان الركاب قد تعبوا من رؤية الخليج فكانوا ينتظرون أن يدلفوا الى البحر .

وأخيرا أخذت السفينة بعد ساعة ونصف تقريبا تلج الخليج .

التصق بيتيا بمتراس السفينة كى لا يضيع أصغـــر جزء من

هذه اللحظة المهيبة . كان الماء قد صفا بشكل ملحوظ الا أنه ما يزال عكرا نوعا ما .

أصبحت الأمــواج أضخم وأشــد ارتفاعا . كانت السوق الحمراء للعوامات التى تحدد المجرى الصالح للمــلاحة ترتفع متأرجحة بأغطيتها المدببة التى فوقها .

وكانت فى بعض الأحيان تمــر على مقربة من السفينة حتى أن بيتيا كان يميز وسط الغطاء القفص المصنوع من الحديد حيث يوضع الفانوس فى الليل .

تخطت الباخرة « تورغينيف » عدة مراكب سود للصيادين وزورقين شراعيين ذوى شراع قاتم مشدود بقوة .

كانت المراكب تترنح على الامواج التى تثــيرها الباخرة الماخرة عباب الماء .

وبعد ما مرت أمــام الرأس الكلسى والرملى لكارولينو ــ بوغاز مع ثكنتها وســاريتها التى تشير للحدود انفتح الطــريق الكبير المحدد بصفين من العوامات ، وأطل على المدى الواسع .

كان القبطان فى كل لحظة ينظر الى البوصلة ويعين الاتجاه الى الرجل الذى يدير دفة السفينة .

لا ريب أن الأمر كان ذا شأن .

أصبح الماء أكثر صفاء وكان الماء الأزرق النقى للبحر يمتزج فيه .

أمر القبطان فى الأسطوانة المكبرة للصوت :

ــ سرعة متوسطة !

والى الأمام كانت رقعة زرقاء ســوداء لبحر مزبئر تنبسط وقد انفصلت عن الماء الأصفر العكر فى الخليج .

— بهدوء !

هبت على الوجود نسمة رطبة .

— بكل هدوء !

كانت الماكنة تدور ببطء وكانت العنفات تضرب الماء بخفة . وكان الشاطيء ينبسط قريبا كل القرب حتى انه كان يبدو سهل البلوغ مخاضة .

ها هى ذى المنارة الصغيرة لحرس الحدود ، بيضاء لامعة ، وقد توج صاريها برايات بحرية من كل لون يهب عليها نسيم قوى من جانب واحد ، وها هو ذا الزورق الحــربى القابع بين القصب ، وخيالات حرس الحـدود الذين يغسلون فى المــاء الصافى غير العميق وكل هذا — وهو مضاء بكل أجزائه بأشعة الشمس — كان يمر بدون ضجة تقريبا أمام السفينة ، انه لمشهد بارز شفاف كأنما هو منقوش نقشا .

كان الجوار المباشر للبحر قد أعــاد للدنيا رطوبتها ونظافتها وكأنما غبار الباخرة والمســافرين قد كنسته عنهم نسمته دفعة واحدة .

حتى الصنــاديق والسلال التى كانت حتى الآن بضاعة مملة كئيبة ، قد استحالت شيئا فشيئا الى حمولة حقيقية وكانت كلما اقتربت من البحر ازدادت أنينا كما يناسب الحمولة .

— سرعة متوسطة !

كان مركز الحدود قد مر وغاب بعيدا . وكانت المياه العميقة صافية خضراء تحيط بالباخرة . وما أن دلفت اليها حتى استولى الاضطراب عليها وألقى على ظهرها رذاذا تحمله ريح شديدة .

— بأقصى سرعة !

كان الدخان ينبعث كثيفا من المداخن الصافرة . وتوضع ظل منحرف على خيمة مؤخرة السفينة .

هذه الآلة العجوز كان يصعب عليها — بشكل ظاهر — أن تقاوم الأمواج الشديدة فى عرض البحر . فقد أصبح تنفسها بهيرا .

أخذ غلاف السفينة العتيق يقرقع باتزان . وكانت المرساة المعلقة بصاريها ترتفع وتنزل فوق الأمواج .

وكانت الريح قد انتزعت قبعة من القش لأحد الركاب ، فكانت تبتعد وراء مؤخرة السفينة يؤرجحها شريط عريض من الزبد .

صعد أربعة يهود عميان على عيونهم نظارات زرقاء ، على الدرج وراء بعضهم ويدهم على قبعاتهم .

وما أن استقروا على مقعد السطح العلوى حتى نقروا أوتار كمنجا فجأة .

كانت أنغام مارش « على ربى منشوريا » المشوهة تشويها شنيعا تختلط بزفرات الماكنة العتيقة المبهورة .

وصعد غلام المطعم الذى فى الباخــرة نفس الدرج مسرعا وأذيال ثيابه ترفرف . كان يلبس قفازين من الخيطان أبيضين نسبيا ، وكان يهز بمهارة البهــلوان صينية صغيرة عليها قنينة كازوز الليمون .

واذ ذاك ابتدأ البحر .

واستطاع بيتيا أن يدس أنفه فى جميع أركان الباخرة . وقد لاحظ أنه لم يكن ليوجد أولاد يناسبونه على ظهــر الباخرة : لا سبيل الى عقد أى صداقة .

كان قد علل نفسه في بادىء الأمــر بالفتاتين اللتين حاول — لسوء الحظ — أن يجعلهما تقدران أهليته البحرية .

وسرعان ما خاب أمله .

أولا ان هاتين الفتاتين كانتا تسافران فى الدرجة الأولى . وعلى الأثر أخذتا تتحدثان مع معلمتهما باللغة الفرنسية فأسمعتا أن الصبى من الدرجة الثانية ليس من وسطهما .

ثم أن احداهما ما أن أصبحت السفينة فى عرض البحر حتى أصابها دوار البحر وذهبت لتستلقى على أريكة من المخمل فى حجرة الدرجة الأولى الفخمة وهذا ما رآه بيتيا من انفراج الباب وكانت تمص قطعة ليمون وانه لشيء مثير للاشمئزاز .

كانت الفتاة التى بقيت على ظهر الباخرة ، جميلة وأنيقة . كانت تلبس معطفا قصيرا مزينا بازرار مذهبة عليها مراس وعلى رأسها بيريه بحرية لها شرابة حمــراء على نمط الزى الفرنسى .

الا أنها ما أكثر نزواتها وبكاءها ! انها تتجادل دائما مع أبيها وهو رجل طويل القامة بارد جدا ، له سوالف طويلة وملفوف بعباءة . كان يشبه كل الشبه اللورد غلينارفن فى كتاب « أولاد القبطان غرانت » .

كان الحوار التالى يجرى بين الأب والبنت بلا نهاية :

— بابا أنا عطشى !

فيجيب اللورد غلينارفن ببرودة دون أن يحيد ببصره عن نظارته البحرية :

— تريدين أن تشربى ، هذه الرغبة تزول بقليل من الصبر .

فتضرب الفتاة برجلها وتكرر رافعة صوتها :

— أنا عطشى !

فيقول الأب ببرودة :

— ستزول الرغبة بقليل من الصبر !

كانت الفتاة تحتد حانقة عنيدة :

— بابا أنا عطشى ، بابا أنا عطشى ، بابا أنا عطشى !

كان لعابها يفور على شفتيها الشرستين . فكانت تكرر بلا انقطاع بصوت يستثير أهدأ رجل فى الدنيا :

— بابا أنا ع ...طشى . بابا أنا عطشى !

وكان اللورد غلينارفن يرد عليها بدون عجلة وبدون أن يرفع صوته وبلا اكتراث :

— أنت راغبة ، ان الرغبة ستزول بالصبر .

كان هذا نزاع شخصين عنيدين ، وهو نزاع لعله ابتدأ فى اكرمان .

لا جرم أنه ما كان يجب عليه أن يفكر فى عقد صلة معرفة مع فتاة طائشة .

وأخيرا وجد بيتيا شغلا ممتعا جدا : وهو أن يسير فى اثر أحد الركاب . أينما ذهب المسافر كان بيتيا يتعقبه .

لقد كان هذا أمتع اذ أن هذا الرجل قد لفت انتباه بيتيا منذ وقت طويل بسلوكه الغريب .

قد يكون المسافرون لم يلاحظوا شيئا . ولكن بيتيا قد أثر فيه شيء أدهشه جدا :

ما كان لدى المسافر تذكرة ، وكان نائب القبطان يعرف ذلك حق المعرفة .

ومع ذلك ما كان يقول شيئا للرجل الغريب ، أضف الى ذلك أنه قد سمح له ضمنيا أن يطوف فى السفينة كلها حتى أن يلج حجرة الدرجة الأولى .

شهد بيتيا هذا المشهد بوضوح : قال نائب القبطان وقد بلغ الرجل بصندوقه المصنوع من الأسلاك :

— تذكرتك .

فأسر المسافر فى أذنه كلمة فهز رأسه قائلا :

— طيب .

وما عاد أحد يزعج هذا المسافر الغريب . أخذ يتجول وهو

ينظر فى كل مكان : فى الحجرات وعند الآلات وفى المطعم وفى دورة المياه وفى المستودع .

فمن هذا اذن ؟

أتراه من الأغوات ؟ كلا . ان الأغوات يلبسون ويتصرفون بغير هذا الشكل .

فالآغا من بسارابيا يرتدى مشلحا وقلنسوة بيضاء ذات رفرف وسخته الاصابع : والآغا له شاربان مثل الذرة الصفراء التى فى السهوب ويحمل سلة من القصب مغلقة بقفل وتوجد فى هذه السلة دائما قديد أسماك الاسقمبرى وبندورة وجبن الغنم وقنينتان أو ثلاث قنان من النبيذ الأبيض غير المعتق .

ان الآغوات يوفرون أموالهم ويسافرون فى الدرجة الثانية ويتجمعون بزمر صغيرة على حدة ولا يخرجون من حجراتهم ويقضون وقتهم فى الأكل أو اللعب بالورق .

ولم ير بيتيا المسافر الغريب بينهم .

لا ريب أن الغريب كان يرتدى قبعة بيضاء ولكن ليس له مشلح ولا سلة قصب .

اذن فليس هو آغا !

طيب ، فلعله موظف بريد أو معلم .

وهذا قليل الاحتمال .

كان يرتدى تحت جاكيته قميصا حريريا ذا ياقة مقلوبة ووضع كعقدة رقبة شريطا له شرابة ولكن شاربه الأسود كالدهان المعقوف وذقنه الحليقة لا يتلاءمان مع رأس المعلم أو الموظف .

وعلى الأخص ، ان ما كان يضعـــه خارج نطاق المسافرين ويميزه عنهم نظارته القاتمة السميكة التى تمتطى أنفا بدينا عاديا ذا منخرين مليئين بالشعر .

ثم هـــذا البنطلون المخطط وهذان النعـــلان من ماركـــــة سكوروخود ، هذان النعلان على جـــورب أبيض سميك يشبه أمتعة الجيش ...

لا ، ان فى هذا لشيئا غير سوى بشكل ظاهر .

كان بيتيا يضع يديه فى جيبه — وهذا وضـــع ممنوع عنه منعا باتا — ويتجـــول بهيئـــة رصينة وراء الغـــريب فى جميع زوايا الباخرة .

فى بادىء الأمر وقف الغريب برهة فى الممـــر الضيق عند الماكنات وبجانب المطبخ .

كانت تنبعث من المطبخ روائح مـــريرة فى حين كان هواء ساخن فيه بخار حار جدا ملىء بروائحه والحديد والزيت يهب من منافذ مكان الماكنات المفتوحة .

كانت الكوى مفتوحة ، وكان فى امكان المرء أن ينظر من الأعلى الى مكان الماكنات مما لم يكن بيتيا ليتأخر عنه ويتمتع به .

هذه الماكنة كان يعرفها كما يعرف يده ولكنها فى كل مرة كانت تأسر لبه . وكان الولد يستطيع أن يبقى ساعات يتتبـــع حركتها .

كان الجميع يعرفون أنها ماكنة قد انتهت مـــدة استعمالها

وأنها مجرد حدائد عتيقة ولكنها على علاتها كانت تسحره بقوتها الخارقة الساحقة .

كانت الأذرعة الفولاذية الدافعة الغارقة فى الزيت الأخضر اللزج تذهب وتجيء بخفة عجيبة على الرغم من ثقلها طن ونصف .

وكانت المكابس تتحرك بشدة ، والسواعد المحركة تدور وأقراص النحاس اللامركزية تحتك ببعضها احتكاكا عصبيا محدثة تأثيرا خفيا فى العمليات التى تظهر نصف ظهور ولكنها جادة من جرارات التوازيع المتواضعة جدا ولكنها هامة جدا .

كان يسود فوق هذه الضوضاء المدوخة دولاب عظيم . ان حركته تبدو بطيئة لأول وهلة ، ولكنه ان أمعن المرء نظرة يرى انه يدور بسرعة عجيبة ويبعث هواء حارا .

ما أفظع أن يرى المرء الميكانيكى يدور بين هذه الآلات المتحركة بحركة شديدة وهو يميل عليها ويصب الزيت فيها من خرطوم زياتته الطويل .

الا أن أعجب شىء فى كل هذه الماكنات مصباح السفينة الكهربائى الوحيد .

كان متدليا تحت قرص حديدى ومحاطا بأسلاك . انه لا يشبه ولو قليلا المصابيح الكهربائية فى أيامنا هذه التى تلقى ضوءا ساطعا .

كانت عروة السلك المحمى حتى الاحمرار والمتحرك

باضطراب تأرجح السفينة ، لا تلقى سوى ضوء خافت من غلافها الزجاجى المسود .

ومع ذلك يا لها من أعجوبة ! لقـد كان يستعيد الى الخاطر اسم « اديسون » السحرى الذى لم يعد منذ زمن طـويل فى خاطر الولد اسم عائلة . كان بالنسبة له ظاهرة خفية من الطبيعة وشيئا مثل كلمة « المغناطيسية » أو « الكهرباء » .

ثم جاب الرجل الغريب السطوح السفلى متريثا .

بدا للولد أن الغـريب كان يتفحص بانتباه المسـافرين الجالسين على حزمهم وأمتعتهم حـول الصارى وعند الجوانب وبين الطرود دون أن يبدو عليه ذلك .

كان بيتيا مستعدا لأن يراهن — وهـذا شىء ممنوع عليه أيضا — على أن هذا الرجل يبحث عن شخص سرا .

كان الغريب يمر بلا اعتبار فوق أجساد المولدافيين النائمين فيشق طريقه بين اليهود الذين يتغدون زيتونا . كان يرفع خلسة طرف الأغطية الملقاة على صناديق البندورة .

كان رجل ينام على ألواح الجسر وخده مغطى بقبعته ووجهه على عقدة الحبـال التى تستعمـل لتخفيف صدمـة السفينة بالرصيف . كان متمددا ويداه مفتوحتان ورجلاه مقرفصتان كما ينام الأولاد .

نظر الولد عـرضا الى هاتين السـاقين المغطاتين ببنطلون مشمور وتوقف مذهولا : انه الرجل المنتعل جزمة بحرية ذات ساقين حمراوين والذى يعرفه بيتيا حق المعرفة .

ما من شك فى أن هذه الجزمة هى التى رآهـا بيتيا تحت مقعد العربة .

أتراها محض تصادف ؟ ربما ، ولكن حـادثا آخر لم يكن نفسه بشكل آكيد . كان على يد النـائم ، فى الزاوية البدينـة التى تملأ المسافة بين الابهام والسبابة مرسـاة صغـيرة زرقاء موشومة وقد ميزها بيتيا بجلاء .

كاد الصبى يطلق صيحة من المفاجأة .

ولكنه تمالك نفسه : كان الراكب ذو الشاربين قد لاحظ النائم أيضا .

كان يمـر ويعاود المرور أمام الرجل محاولا أن يرى وجهه المغطى بالقبعة . ولكنه ما وجد الى ذلك سبيلا . وحينذاك وضع رجله على يد النائم كأنما فعل ذلك سهوا .

— عفوا !

ارتجف الرجل وجلس ينظر فيما حوله بعينيه اللتين يملأهما النعاس ، وهو مخبول .

كان يغمغم وهو يفرك خده الذى أثر فيه الحبل :

— ماذا ؟ ماذا حدث ؟ أين هذا ؟

انه هو ، انه البحار نفسه .

اختفى بيتيا وراء نتوء من المستودع وهو محتبس الأنفاس وأخذ يراقب .

ولكنه لم يحدث شيء ذو شأن . فقد اعتـذر الرجـل ذو الشاربين واستأنف تجوله . بدل البحار الطـرف ولكنه لم يعد

للنوم . كان ينظر فيما حوله قلقا ومغيظا على ما ظهر لبيتيا .

ماذا يجب عليه أن يصنع ؟ أيركض الى أبيه ؟ أيكشف الحادث لنائب القبطان ؟ لا ، لا !

ما كان بيتيا لينسى تصرف أبيه فى العربة . لا ريب فى أن فى هذا الحادث شيئا يجب ألا يجرى كلام عنه . ما كان يجب على بيتيا أن يسأل أحدا ، انما الأمر يقتضى أن يسكت متظاهرا بأنه لم يلاحظ شيئا .

عزم الولد أن يفتش عن الرجل ذى الشاربين وأن يرى قليلا ما يصنعه .

رآه على جسر الدرجة الأولى وهو يكاد يكون مقفرا . كان الرجل يقف مستندا الى زورق الانقاذ الملفوف بالغطاء والمربوط ربطا وثيقا بالحبال .

كان الدولاب الخفى تحت الكشك يضج ويضرب الماء الذى يكاد يكون أسود والمغطى بالزبد . كان هذا يحدث ضوضاء كما فى الطاحون . وكان ظل السفينة الطويل بعض الشىء يزحف بسرعة على الأمواج اللامعة التى كانت تزداد زرقة كلما ابتعدت عن السفينة .

كانت راية البحرية التجارية بألوانها الأبيض والأزرق والأحمر ترفرف فى المؤخرة وقد برقشتها الشمس .

ووراء السفينة كان يمتد طريق كبير رخى شبيه بطريق عريض شقته العربات الزلاقة فى الثلوج ، فكان يمتد ويعرض ثم يذوب شيئا فشيئا .

كان يظهر الى اليسار الشاطىء الغضارى العالى لنوفوروسيا .
كان الرجل ذو الشاربين يمسك بيده شيئا يتفحصه خلسة .
دنا بيتيا بهدوء من الوراء وانتصب على رؤوس أصابع قدميه ورأى أنه ينظر الى صورة فوتوغرافية صغيرة ، صورة بحار ببزته وعلى رأسه بيريه مائلة حتى أذنه كتب على شريطها :

« الأمير بوتمكين ــ تافريتشيسكى »

ما كان البحار سوى الرجل الموشوم على يده بالمرساة .
واذ ذاك فهم بيتيا بحدس خفى الشىء الغريب فى مظهر الرجل ذى الشاربين : فهو أيضا كالرجل الموشوم كان متنكرا .

٨

« رجل فى البحر ! »

كان هواء رطب يهب من مؤخرة السفينة وقام القبطان فرفع شراعا ليساعد الماكنة على تدارك الوقت الضائع فى التأخر الذى سببه التحميل .
ما من عيد وما من هدية تستطيع أن تغرق نفس بيتيا فى لجة السحر الذى أوحاه له هذا الحادث الصغير .
حادث صغير ؟ آه ، لا !

سفينة واحدة يدفعها فى وقت واحد ماكنة وشراع ! انها فى الوقت ذاته باخرة ومركب شراعى » !

وأعتقد أنكم ــ معشر القراء ــ ستجدون سعادة لا حد لها اذا ساعدكم الحظ فى القيام فجأة بجولة بحرية على ظهر باخرة حقيقية ومركب شراعى فضلا عن ذلك .

حتى فى ذلك العهد ما كان الشراع يستعمل الا فى البواخر العتيقة وهذا نادر جدا . واليوم لا يحدث هذا أبدا .

ولعلكم تفهمون انفعال بيتيا .

وبديهى أن بيتيا نسى الرجل ذا الشاربين والهارب دفعة واحدة . كان يقف فى مقدمة السفينة مذهولا ولا يحيد ببصره عن البحار الحافى الذى كان يشتغل الى جانب كوة يسحب منها الشراع المطوى بعناية .

كان بيتيا يعرف حق المعرفة أن هذا شراع امامى . ولكنه مع ذلك اقترب من نائب القبطان الذى كان يساعد بوضع الشراع بسبب نقص العدد الكافى من البحارة .

ــ عفوا يا عم ، قل لى من فضلك هذا شراع امامى ؟

أجاب الثانى بدون لطاقة كبيرة :

ــ نعم شراع امامى .

على أن بيتيا لم ينزعج أبدا . كان يدرك حق الادراك أن البحار الحقيقى ينبغى له دائما أن يكون شديدا قليلا . والا فلن يكون بحارا .

وبابتسامة مكبوتة تعبر عن شعور الترفع والتفوق نظر بيتيا الى المسافرين وتكلم مرة أخرى على رسـله كلام الند للند مع نائب القبطان :

— قل لى يا عم من فضلك أى أنواع أخرى توجـد من الأشرعة ؟ على ما يبدو الشراع الكبير والصارى الأمامى ؟

— يا صبى لا تدس نفسك بين ارجلنا .

قال هذا وبدا كمن أحس بوجع أليم فى أسنانه .

— اغرب من وجهى يا صبى . اذهب الى حجرتك ، نحو أمك .

أجاب بيتيا بهيئة حزينة مزدهية على هذا الرجل الفظ .

— أمى ميتة . أسافر مع بابا .

ولكن نائب القبطان ترك هـذا التصريح بـدون جواب ، وتوقف الكلام عند هذا الحد .

وأخيرا رفع الشراع الامامى .

فازدادت سرعة الباخرة . وكانت مشارف أوديسا قد لاحت وارتسم الشريط الأبيض للخليج الجاف فى الامام .

كانت مياه البحر الواطئة كثيفة وزرقاء جدا حتى انها كانت تصدر انعكاسات حمراء .

وبرزت سقوف القرميد للبلدة الألمانية لوستدورف وكنيستها الانجيلية النحيتة ودوارة الهواء المركزة على ذروتها الحادة .

وبعدئذ بدأ صف بيوت الاصطياف والبساتين وحمامات البحر والأبراج والمنارات ...

وأولا برج كوفاليفسكى الشهير موضوع أسطورة شهيرة .

كان رجل ثرى وهو السيد كوفاليفسكى قد قرر أن يمدد أنابيب المياه للمدينة وذلك على مسئوليته . وهذا سوف يدر عليه ربحا وفيرا . تصور ! كان يجب أن يدفع للسيد كوفاليفسكى على كل جرعة ماء ما يطلبه . فقد كانت فى اراضى كوفاليفسكى عين للماء عذبة وهى الوحيدة فى ضواحى أوديسا . ولكن الماء كان على بعد سحيق جدا وكان لا بد لاغترافه من مضخة قوية قوة خارقة للعادة . وكان هذا مشروعا ينوء به كاهل رجل واحد ولكن كوفاليفسكى ما كان يود أن يشاطره أحد بأرباحه فأخذ يبنى وحده برج قصر الماء ولم تلبث أعمال البناء أن تعدت الى مدى واسع التكاليف المقدرة . فتوسل اليه اقاربه أن يتخلى عن هذا المشروع الجنونى ولكنه لما كان قد أنفق مبالغ طائلة فقد فات أوان التراجع . فواصل البناء . كان البرج قد بنيت ثلاثة أرباعه حينما أعوزه المال ؛ فرهن جميع منازله وجميع أراضيه ونجح أخيرا بانجاز البناء . لقد كان بناء ضخما يذكر المرء ببرج الشطرنج مكبرا تكبيرا عظيما . كان سكان أوديسا يفدون أيام الأحد مع عائلاتهم ليتأملوا هذه الأعجوبة . ولا جرم أن بناء البرج قليل الشأن اذ كان يقتضى استحضار آلات من الخارج وحفر الآبار وتمديد الأنابيب . استولى اليأس على كوفاليفسكى فذهب ليقابل الاثرياء وأصحاب البنوك فى أوديسا فعرض عليهم أرباحا طائلة وتوسل وتذلل وبكى . ولكن الأغنياء ما كانوا

يستطيعون أن يغفروا له رفضه المساهمة معه فظلوا لا تلين قلوبهم . لم يعطه أحد درهما فأفلس تماما وانهار . وأصبح مشروع انابيب الماء شغله الشاغل . كان يمضى طيلة النهار بالطواف حول هذا البرج كالمختل عقله ، هذا البرج الذى التهم كل ثروته وحطم رأسه فى سبيل الحصول على دراهم . كان يفقد عقله ببطء . وذات مرة صعد قمة البرج اللعين ورمى نفسه من فوقه الى الأسفل . حدث ذلك قبل خمسين عاما تقريبا ولكن البرج المسود بمرور الزمن لا يزال هناك يشرف على البحر عند أبواب المدينة التجارية الغنية كانذار قاتم أو نصب رهيب لجشع الانسان الذى لا يرتوى .

وبعدئذ ظهرت المنارة البيضاء الجديدة ووراءها المنارة القديمة التى أهملت اليوم .

برزتا كلتاهما بضوء الشمس الوردية وهى تغرب فى الغبار الذهبى للأكاسيا . كانتا تبدوان بوضوح وعلى مقربة وتنتصبان على الشاطىء المنحدر حتى ان بيتيا كان مستعدا لأن ينفخ بكل قوته فى الشراع الامامى ليصل بأسرع ما يمكن .

وهنا كان يعرف أصغر جزء من الشاطىء .

العين الكبرى والعين الوسطى والعين الصغرى والمنحدرات العالية التى يغشاها النسرين البرى والليلك والزعرور .

وفى الماء فى أسفل الشاطىء صخور مخضرة من الاعشاب يجلس عليها صيادون مسلحون بالشصوص وسباحون .

ها هو ذا أخيرا « أركاديا » المطعم فوق الماء ورواق الأوركسترا الذى مثل الصدفة ؛ ـ كان يبدو صغيرا عن بعد كأنه حجرة الملقن ـ ومظلاته الملونة وسفراته التى يكنسها الهواء العليل .

كل هذه التفاصيل كانت تبرز لعينى بيتيا على التوالى وبعضها أكثر طرافة من الآخر . ما كان لينساها . كلا! لا يسع المرء أن ينساها كما لا ينسى اسمه . ولكنها قد غابت من خاطره الى حين . وها هى ذى الآن تعود خببا فجأة كأنما بعد غياب لا مبرر له .

كانت تسرع اثر بعضها بعضا متكاثرة بازدياد وتتسابق الى خاطره .

كانت تبدو كأنما تصيح بالولد :

ـ مرحبا يا عزيزى بيتيا ! ها أنت قد عدت ! ضجرنا بدونك ! ألا تعرفنا ؟؟ انظر الى جيدا : ها أنا ذى فيلا مارازلى التى تحبها حبا جما . لشد ما كنت تحب أن تتجول على مروجى البديعة من الزمرد الحصيد متحديا كل الموانع ! ولشد ما كنت تحب أن تتفحص تماثيل الرخام التى مرت عليها الحلزونات الكبيرة ببطء ولها أربعة قرون ، تاركة وراءها شريطا لامعا ! انظر كم كبرت خلال الصيف ! انظر الى خضرة أشجار كستنائى الوارفة الكثيفة ! وما أجمل الزهور التى تزهر فى المساكب ! وما أحلى فراشات آب التى تحط فى ظلال ممراتى المعتمة !

هـا أنذا بدورى بـلاج « أوترادا » ! لا تسـتطيع أن تنسى حمامات البحر ومرماى وألعابى ! انظر جيدا : لقد أقيم فى غيابك دوامة تسلية رائعة فيها زوارق صغيرة وجياد خشبية . وهنـا على مقربة يقطن صديقك وزميلك غافريك . انه ينتظر عودتك بفارغ الصبر . هيا أسرع اذن ! هيا أسرع !

— ها أنـذا ! مرحبـا يا صاحبى بيتيا ! ألا تعرف بلاج لانجرون ؟ أنظر الى كل هـذه المراكب المسـطحة الملقاة على الشاطىء ؛ والى جميع شباك الصيادين هذه وهى تجفف على المجاديف المنصوبة ! لقـد لقيت فى العـام الماضى فى رمالى كوبيكين وشربت بعدئذ ولم تكن عطشان ـ أربعـة أقداح من الكفاس الحاد الذى أحرق لسانك وأنفك . ألا تعرف كشك بائع الكفاس ؟ ها هو ذا مستقر فى المنحـدر بين الأعشاب الشائكة التى تكاثرت خلال الصيف . انه يبدو بدون منظار .

— وها أنذا ! أنا أيضا ! مرحبا يا بيتيا ! لو تعرف كل ما جرى بدونك فى أوديسا ! مرحبا ! مرحبا !

كانت الباخرة كلما اقتربت من المدينة ازداد الهواء سكونا وحرارة .

غابت الشمس ولكن قمة الصارى وغطاء دوارة الهـواء الأحمر ، كان يلمع فى السماء الوردية الصافية .

أخذ الشراع الأمامى .

كانت رجة الماكنة تحدث صدى داويا فى صخور الشاطىء

ومنحدراته ويدب على الصارى وهج أصفر من ضوء الاشارة .

كانت جميع خواطر بيتيا هنا على الشاطىء فى أوديسا .

من كان يظن أنه قبل ساعات ، فى الصباح نفسه كان يكاد يبكى حينما هم بوداع المزرعة ؟

المزرعة ؟ أى مزرعة ؟ لقد نسيها . لم تعد شيئا مذكورا بالنسبة له ... حتى الصيف القادم .

البدار البدار ! فلينزل الى الحجرة ليحث والده ويجمع الأمتعة !

استدار بيتيا ليجرى ولكنه شعر فجأة بأن الدم يكاد يجمد فى عروقه .. كان البحار الموشوم جالسا على درجة سلم مقدمة الباخرة بينما كان الرجل ذو الشاربين يمشى اليه بدون نظارة ويداه فى جيوبه وحذاؤه سكوروخود يطقطق .

وقف قرب البحار وانحنى وسأل بصوت خافت :

— جوكوف ؟

قال البحار بهدوء وجهد :

— ماذا جوكوف ؟

وامتقع لونه وانتصب واقفا .

— اجلس ! هادئا اجلس ، أقول لك .

ظل البحار واقفا ورفت ابتسامة هزيلة على شفتيه اللتين صارتا ممتقعتين .

قطب الرجل ذو الشاربين حاجبيه .

— من الدارعة « بوتمكين » ؟ مرحبا يا عزيزى . لقد احسنت صنعا لو بدلت جزمتك . ونحن كنا ننتظرك وننتظرك وننتظرك .. هيا ما رأيك يا رودبون جوكوف ؟ هذه نهاية المطاف ؟

وفى اثر هذه الكلمات أمسك الرجل ذو الشاربين البحار بشدة من كمه .

تشنج وجه البحار . وصاح بصوت رهيب :

— لا تلمسنى ! لا تلمس رجلا مريضا يا وغد !

ثم استعاد فورته ودفع الرجل ذا الشاربين بضرب يده على صدره .

انبعث صوت تمزق الكم :

— قف !

ولكن الأوان قد فات .

كان البحار قد انتزع نفسه منه وأخذ يجرى على ظهر السفينة ويدور بين الحقائب والصناديق والناس والرجل ذو الشاربين يجد فى اثره .

لو نظر أحد اليهما لقال انهما ولدان يلعبان لعبة التماسك .

واندفع الواحد فى اثر الآخر فى ممر الماكنات وظهرا من الطرف الآخر وصعدا الدرج وهما يقرعانه بنعالهما وينزلقان على درجاته النحاسية .

كان الرجل ذو الشاربين يصيح لاهثا :

— قف ! أوقفوه !

كان البحار قد اقتلع لوحا خشبيا وهو يجرى وأمسكه بيديه :

أوقفوه ! أوقفوه !

تجمهر الركاب على ظهر الباخرة والخوف والفضول يملآن نفوسهما . وكان أحدهم قد أخذ يطلق صفيرا حادا من صفارة للبوليس .

قفز البحار بأقصى سرعة من فوق باب كوة مفتوحة وهرب من الرجل ذى الشاربين الذى حصره ؛ تظاهر وتخطى الكوة باتجاه معاكس ووثب على مقعد ومن المقعد انتقل الى الدرابزين وتعلق بسارية الراية فى مؤخرة السفينة وضرب وجه الرجل ذى الشاربين باللوح الخشبى بكل قوته وقذف بنفسه فى البحر .

ارتفعت من وراء مؤخرة السفينة سحابة من رذاذ الماء .

— آه !

تراجع جميع الركاب كأنما جرفتهم ريح عاتية من الأمام .

كان الرجل ذو الشاربين يتحرك على طول الدرابزين ويداه على وجهه وهو يجأر :

— أوقفوه ، سيهرب ! أوقفوه ، سيهرب !

كان نائب القبطان يصعد الدرج قفزا وفى يده طوق النجاة .

— رجل فى البحر !

مال الركاب على الدرابزين كأنما أخذت الريح هـذه المـرة تدفعهم من الخلف .

شق بيتيا طريقا له حتى الدرابزين . كانت الأمواج تؤرجح رأس الرجل السابح كعوامة بعيدا عن الباخرة فى لجة الزبد الأبيض .

الا أنه ما كان يود أن يلحق الباخرة ، فكان يبتعد سابحا بيديه ورجليه بشدة . وكان فى كل مرة يقطع فيها قليـلا يدير وجهه الحانق المتشنج .

لاحظ نائب القبطان أن الرجل الذى فى البحر ليست لديه أية رغبة فى أن « ينقذ » . بل على العكس كان يحاول أن يبتعد بأكثر ما يمكن من المنقذين . وفضلا عن ذلك كان يسبح سباحة جيدة وكان الشاطىء قريبا نوعا ما .

وبالتالى كان كل شىء يجرى على ما يرام .

وما من داع لأن يزعج نفسه .

كان الرجل ذو الشاربين يمسـك نائب القبضان من كمه عبثا ، كان يحدجه بشـدة بنظرته ويطلب أن توقف السفينة ويوضع زورق فى البحر .

— هذا مجرم سياسى ، وسوف تجيب عن تصرفك !

هز نائب القبطان كتفيه ببرودة :

— هذا لا يعنينى . لم أتلق أوامر . توجه الى القبطان .

أما القبطان فقد رد بحركة لا مبالاة . كانت الباخرة متأخرة . تصور هذا يا عزيزى ! لسنا بحاجة الى هذا . وبعد نصف ساعة سنبلغ الشاطىء وحينذاك طارد مجرمك السياسى . أما نحن فشركة للملاحة التجارية خاصة ، ولا نهتم بالسياسة وليست لدينا تعليمات عن ذلك .

كان وجه الرجل ذو الشاربين مخدوشا يدمدم شتائم ويشق طريقا له وسط الجمهور من ركاب الدرجة الثالثة متجها الى باب الباخرة .

كان يشق طريقه بقسوة بين الناس المذعورين ويدوس على الأرجل ويدفع السلال وانتهى به الأمر أن أصبح عند حافة السفينة بحيث يقفز أول واحد الى الشاطىء حالما تبلغ المرفأ .

كان رأس البحار لا يكاد يرى وسط الأمواج بين الرايات الصغيرة التى تتأرجح فوق شباك الصيادين وشصوصهم .

٩

فى أوديسا وقد خيم الليل

كان الشاطىء يظلم بسرعة وينتقل لونه تدريجيا من أزرق كاشف الى أزرق قاتم الى بنفسجى . وقد خيم جنح الظلام على الأرض . وفى البحر كان الجو ما يزال مضيئا . كانت الأمواج

اللامعة تعكس السماء الصافية . الا أنه هنا أيضا كان الظلام يبسط جناحه .

كانت زجاجات مقعرة لفوانيس الاشارة التى أوقدت على أجنحة الباخرة ــ زجاجات قاتمــة وسميكة حتى انه ليستحيل فى النهار أن يعرف المرء لونها ــ قد أخذت تلقى ضوءا أخضر وأحمر . كانت لا تكاد تضىء ولكن المرء يمكنه تمييز الضوء .

ظهرت فجأة المدينة الزرقاء مع قبة المسرح البلدى وأعمدة قصر فوروتتسوف وسدت نصف الأفق .

كانت نجوم فوانيس المرفأ تلقى ضوءا شاحبا فى البحيرة الصافية الساكنة للمرفأ . وكانت الباخرة « تورغينيف » تتجه الى هناك مارة على مقربة من برج المنارة غير الكبيرة كثيرا ، مع ناقوسها ودرجها .

ولآخر مرة رن جرس القبطان فى قسم الماكنات .

ــ بهدوء !

ــ بكل هدوء !

كانت الباخرة الصغيرة الضيقة تمر بسرعة وبدون ضوضاء تقريبا أمام مقــدمات ســفن ضــخمة ذات ثلاثة طوابق ، من « الأسطول المتطوع » مصطفة فى الجانب الداخلى للشاطىء الصادم للأمواج .

مال بيتيا برأسه الى الوراء كى يستطيع أن يتملى من جمال المراسى الضخمة .

هذه نعم ! هذه سفن !

— قف !

كانت الباخرة « تورغينيف » تندفع فى المرفأ مزورة وسط سكون مطلق بواسطة المعجزة الوحيدة لقوة الاندفاع بدون أن تبطىء سيرها . ولولا قليل لاصطدمت بالرصيف .

ابتعدت موجتان طويلتان من مقدمة الباخرة الحادة وهما تجعدان الماء الذى أصبح شبيها بظهر سمك الأسقمرى .

وكان الموج يهمس همسا خفيفا على طول جانب الباخرة .

كانت المدينة القريبة تنفث سعيرا كسعير الأتون .

وفجأة رأى بيتيا مدخنة وصاريين تبرز من مرآة الماء وتمر قرب « تورغينيف » وهى سوداء رهيبة ميتة ...

أطلق الركاب المتجمعون على درابزين الباخرة صيحة دهشة . وقال صوت خافت :

— لقد أغرقت هذه السفينة !

« من أغرقهـا ؟ » — أراد بيتيا أن يسأل هذا السـؤال مذعورا . ولكنه رأى فى تلك اللحظة مشهدا أشد ذعرا : انه هيكل حديدى لباخرة محترقة جانحة الى الرصيف المحترق .

قال نفس الصوت بشكل أشد خفوتا :

— لقد أحرقوها .

ولكن الرصيف كان قريبا كل القرب .

— الماكنة الى الوراء !

عادت الدواليب التى كانت صامتة منذ لحظات وأخذت تدور بضجة شديدة فى اتجاه معاكس . وجرت على سطح الماء دوامات .

ابتعد الرصيف وكأنما انتقل الى الطرف الثانى من الباخرة ثم اقتربت منه بشكل أبطأ ولكن من الطرف الآخر .

كر حبل فى حلقة بسرعة فوق رؤوس المسافرين .

شعر بيتيا برجة خفيفة خففتها وسادة الحبال المخففة للصدمة .

وألقى على الرصيف جسر ونزل الرجل ذو الشاربين أولا وسرعان ما غاب فى لجة الجمهور .

وبعد ذلك بقليل دلف مسافرونا بدورهم ببطء على بلاط الرصيف .

اندهش الولد عندما رأى امام الجسر شرطيا وعدة رجال بلباس مدنى . كانوا يتفحصون بكل دقة الركاب . وقد فتشوا بابا أيضا . أخذ السيد باتشى يزر بصورة آلية جاكيته ويمد عنفقته الى الأمام مرتعشة . شد على يد بافليك بقوة واتخذ وجهه نفس تعبير الصباح الكريه عندما كان فى العربة يتكلم مع الجندى .

أخذوا عربة . وأجلس بافليك على كرسى امامى منطو . أما بيتيا فقد أخذ مكانه كرجل كبير الى جانب أبيه على الحشية . وانطلقوا

ولدى خروجهم من المحطة رأوا حارسا مسلحا ببندقية مع حزام من الخراطيش . لم يكن قبلئذ حرس .

سأل بيتيا هامسا :

ـ بابا لماذا هذا الحارس ؟

قال الأب مغيظا وقد ارتعش عنقه :

ـ آه يا رب الآلهة ! لماذا هذا ولماذا ذاك ؟ وما يدرينى ؟ انه هنا . هذا كل شيء ابق هادئا .

فهم بيتيا أنه ينبغى له ألا يطرح أسئلة ، وأنه لا داعى للانزعاج من امتعاض أبيه .

ولكنه ما ان اجتازوا معبر السكة الحديدية حتى أبصر بيتيا فجأة الجسر محروقا كله وركاما من العوارض محترقة وعرى السكك مفتولة فى الهواء ودواليب عربات القطار مقلوبة خليط غريب لا كنه له . فصاح وهو يبلع الكلمات :

ـ أوه ! ما هذا ؟ انظر ! اسمع يا حوذى ما هذا ؟

قال الحوذى مسرا .

ـ لقد أحرقوا !

وهز رأسه وعليه قلنسوة الكاستور دون أن يفهم من كلامه ما اذا كان يحبذ ما حدث أم يشجبه .

ومروا بجانب أدراج أوديسا الشهيرة .

وفى ذروة زاويتها بين صورتى القصرين المتناظرين الموضوعين على شكل نصف دائرى كان الوجه الصغير للدوق

ريشيليو * يبرز على صفحة السماء الليلية ، ويده ممدودة صوب البحر بمهابة .

كانت الفوانيس ذوات ثلاثة فروع تتلألأ فى الشارع وكانت تتعالى أنغام الموسيقى من مطعم فى الهواء الطلق فى الساحة . وكانت نجمة الراعى تلمع لمعانا خابيا فوق أشجار الكستناء وحصى الشارع .

كان بيتيا يعرف أنه هناك وراء شارع نيقولايفسكايا يلمع ويضج ذاك الحى الساحر المنيع الذى يسمى فى أسرة باتشى « المركز » مع شيء من الازدراء والاحترام .

كان « الأثرياء » يعيشون فى المركز ، يعنى أناسا من نوع خاص يسافرون فى الدرجة الأولى ويستطيعون أن يذهبوا كل يوم الى المسرح ويتعشون لسبب من الاسباب فى الساعة السابعة مساء ولهم طباخ وليس طباخة ، ومعلمة بدلا من مربية حتى عربة لهم مما يتعدى حدود الخيال .

لا جـرم أن أسرة باتشى كانت تعيش فى حى ليس فى المركز .

كانت العربة تجرى على بلاط الشارع فتحدث ضجة ، وتقطع الحى الأدنى ، شارع الكاراتين وتنعطف الى اليمين وتأخـذ بالصعود الى المدينة .

كان بيتيا خلال الصيف قد استوحش من المدينة .

---

* ريشيليو ارمان امانويل (١٧٦٦ ـ ١٨٢٢) الحاكم العسكرى فى اوديسا .

وقد صم أذنيه وقع حوافر الجـواد التى تصـدر شرارات باحتكاكها ببلاط الشارع وضوضاء الدواليب وأجراس ترامات الخيل وقرع النعال والعصى الناقرة على الأرصفة المبلطة بحجارة زرقاء .

وفى المزرعة فى الحقول الحصيدة فى السهب الفسيح كان الخريف قد اجتاح كل شىء منذ زمن طـويل بحلته الذهبيـة ورطوبته وكآبته . وهنا فى المدينة كان الصيف ما يزال ثقيلا بهيا فى معمعانه .

كانت حرارة الليـل الثقيـلة ترف فى الهواء السـاكن فى الشوارع المحفوفة بالأكاسيا .

وكانت تبدو من أبواب العطارين المفتوحة ألسنة صـفراء باهتة لمصابيح الكاز تضىء قطرميزات مليئة بالسكاكر من كل الألوان .

وعلى الأرصفة عند أسفل أشجار الأكاسيا تتكوم أكوام بطيخات سوداء وخضراء وكلها ملساء من نوع « تومان » ، وبطيخات طويلة تدعى « الرهبانية » وهى صفراء محززة بحزوز طويلة .

وكانت تظهر فى بعض الأحيان فى زاوية الشـارع دكان فاكهة بديعة . وكان البائعون من الفرس الذين أضاءتهم فوانيس ساطعة يهشون بمراوح ورقية فواكه القرم الجميلة : الخـوخ البنفسـجى المذرور عليـه غبار فيروزجى والاجـاص « بهر ألكسندر » لطيف أسمر غال جدا .

كانت تبدو عبر الشباك الحديدية الملفوفة بدوال غضة ، فى بساتين صغيرة مساكب للأزهار مضاءة من نوافذ البيوت الخاصة . وكانت الفراشات الليلية المنتفخة ترتعش فوق الأزهار التى فى ريعان ازدهارها .

وكانت تبلغ المسامع أصوات صفير القطارات آتية من المحطة .

ومروا أمام الصيدلية التى يعرفها بيتيا .

وراء زجاج الواجهة الكبيرة حيث برزت كتابة بحروف من الزجاج المذهب كان يلمع اناءان من البلور مليئان بسائل أزرق وبنفسجى براق . انه ـ لا ريب ـ سم . لقد كان بيتيا مقتنعا بذلك فمن هذه الصيدلية جلب لامه المحتضرة بالونات الاكسيجين المربعة . آه لكم صفرت قرب شفتى أمه السوداوين من الأدوية !

كان بافليك يغط فى نوم عميق . أخذه بابا بين يديه . كان رأس الولد يثب ويترنح وكانت ساقاه العاريتان الثقيلتان تنزلقان عن ركبتى أبيه ولكن أصابعه الصغيرة كانت تشد بقوة على الخرج الذى وضع فيه حصالة نقوده الغالية .

ووضعه فى هذه الحالة بين ذراعى الطباخة دونيا التى كانت تنتظر سادتها فى الشارع ، حينما وقف الحوذى أخيرا عند المدخل الذى يضيئه فانوس مثلث صغير حيث كان يلمع بهدوء رقم مفصل من الصفيح .

– الحمد لله على السلامة ! أهلا وسهلا !

ولج بيتيا المدخل راكضا وهو ما يزال يشعر تحت قدميه تذبذب البحر .

ياله من درج كبير موحش ! وياله من ضوء ساطع ويالها من أصداء داوية ! كم مصباح ! على الجدران فى كل قرص درج مصباح كاز على ركيزة من الحديد الصب . وفوق كل مصباح قرص صغير يتأرجح بتراخ فى حلقة من النور .

وكان على الأبواب لوائح من النحاس صقيلة ؛ وممسحة أرجل وعربة أولاد .

كل هذه الأشياء المنسـية تماما قد عادت فجأة أمام عينى بيتيا الزائغتين فى كل جدتها الأولى .

لا بد من الاعتياد عليها من جديد .

ها هو ذا فى الأعلى مفتاح يدور ويصدر صريرا يدوى فى الدرج ويقرع باب وأصوات تتكلم سريعة . كل صيحة تنبعث كطلقة مسدس .

وها هى ذى الآن أنغام بيانو خفيفة متحمسة تصـل عبر الجدار . هذه الموسيقى تتخذ مكانها فى ذكريات بيتيا .

وأخيرا ... هل يمكن ... من هذا اذن ؟

أسرعت من الباب امرأة منسية ولكن وجهها مألوف جدا ، وهى بفستان حريرى أزرق ذى باقة وسوار اكمام من الدانتيلا . كانت عيناها حمراوين من الدموع ومشرقتين بالفرحة والبهجة

وشفتاها تنفرجان عن ضحكة . ارتعشت ذقنها وما كان يدرى المرء هل تضحك أم تبكى .

— بافليك !

وانتزعت بافليك من بين يدى الخادمة

— أوه ! يا الهى ما أثقله !

فتح بافليك عينيه اللتين يملؤهما النعاس وقال بدهشة غير مكترثة :

— أوه ! خالتى !

وعاد الى النوم .

نعم ! حقا انها الخالة ! العزيزة المحبوبة ولكنها نسيت قليلا . كيف لا يعرفها ؟

— بيتيا ! يا ابنى ! ما أكبرك !

أخذ بيتيا يقول :

— ليتك تعرفين — يا خالتى — كل ما حدث معنا . ولكنك يا خالة لا تعرفين شيئا . ولكن هيا يا خالة واسمعى قليلا ما جرى معنا . ولكن يا خالتى لا تصغين الى ! يا خالتى استمعى الى !

— حسنا ! حسنا ! لا يجب أن تقول لى كل شىء من الوهلة الأولى . ادخل . وأين فاسيلى بيتروفيتش ؟

— ها أنذا ! ها أنذا !

كان الأب يصعد الدرج .

— أجل . ها نحن أولاء ! مرحبا يا تاتيانا ايفانوفنا !

ــ الحمد لله على سلامتكم ! آهــلا وسهلا ! ادخل ! ألم ينتبك دوار البحر ؟

ــ لا ابدا ! ســفرة عظيمة ! هل معك نقود صــغيرة . الحوذى لا يستطيع أن يرجع لى بقية ثلاثة روبلات .

ــ لحظة ! كن هادئا . سيكون كل شيء على ما يرام . يا بينيا لا تدر بين رجلى .. ستحكى لى هذا فيما بعد . يا عزيزتى دونيا اسرعى الى الحوذى وأعطيه الدراهم ... خذيها من على طاولة تواليتى .

دخل بينيا الى الردهــة التى بدت له فسيحة معتمة غريبة . حتى الولــد الكبير الأسمــر بقبعــة القش الذى بدا فجــأة فى مرآة منســية ولكنها مألوفة يضيئهــا مصباح منسى ولكنه معروف أيضا لم يتعرف عليه فى الحال .

على أن بينيا كان لا بد له من أن يعرف هذا الولد دونما عناء اذ أنه هو نفسه !!

١٠

فى البيت

هناك فى الريف ، كانوا يسكنون فى غرفة صــغيرة ذات جدران بيض مطلية بالملاط وفيها ثلاثة أسرة مطوية مغلفة بأغطية خفيفة صيفية تسمى لحف مرسيلية .

وفيها مغسلة من الحديد وطاولة من خشب الصنوبر وكرسى وشمعة فوقها غطاء من الزجاج على شكل الجرس وشعريات خضراء وأرض خشبية مدهونة ، زال دهانها من كثرة الغسل .

ما كان أعذب النوم فى هذه الحجرة الفارغة الحزينة بعد تناول اللبن والخبز وأغنية البحر العذبة تتناهى الى المسامع !

فى المدينة كان الأمر يختلف كل الاختلاف .

كانوا يسكنون فى شقة كبيرة مفروشة جدرانها بأوراق مزخرفة عتيقة ومليئة بالأثاث المغلف بالأغطية .

أوراق مزخرفة وأثاث كان يختلف من غرفة الى أخرى الباقات ومعينات على الأوراق المزخرفة كانت تظهر الغرف أصغر . وهنا كانت الأشياء الداخلية تدعى « تأثيثا » وكانت تخنق وقع الخطى والأصوات .

كانت المصابيح تنقل من غرفة الى غرفة .

كانت تنمو فى الردهة شجرة الفيكوس ذات أوراق قاسية كأنها مطلية بالشمع . وكانت فروعها الفتية تنتصب بقشور حادة يخيل للمرء أنها موضوعة بغلاف من جلد السختيان .

كان نور المصابيح المنقولة يدب من مرآة الى أخرى . وكانت مزهرية صغيرة ترتج على البيانو فى كل مرة كانت تمر فيها فى الشارع عربة . وكانت ضجة الدواليب تصل الشارع بالبيت .

ود بيتيا لو يشرب قدح شايه ويقوم بجولة قصيرة فى

الباحة ليطلع على بعض الأخبار ويقول كلمتين لأصدقائه .

الا أن الوقت قد فات : فالساعة التاسعة قد انقضت وما من ريب فى أن جميع الأولاد قد هجعوا وناموا .

أراد أن يحكى لخالته أو على الأقل لدونيا فورا حكاية البحار الهارب . الا أنه لسوء الحظ كان الجميع مشغولين : فالأسرة والوسائد تجهز وكانوا يخرجون شراشف الأسرة من الخزانة وينقلون المصابيح من غرفة الى أخرى .

كان بيتيا يمشى فى اثر خالته وهو يدوس على ذيلها ويستعيد دائما نفس الكلام :

— يا خالة ! ألا تريدين أن تستمعى الى ؟ استمعى الى ! ..

— انك ترانى مشغولة .

— يا خالة ! ماذا يضيرك هذا ؟

— ستقوله لى غدا .

— أوه ! أرأيت كيف أنت ؟ لا تدعيننى أتكلم . اسمعى يا خالتى !

— لا تدر بين رجلى . اذهب واحكه لدونيا .

ذهب بيتيا حزينا الى المطبخ حيث كانت تنمو بصلات فى صندوق خشبى موضوع على حافة النافذة .

كانت دونيا تكوى على عجل غطاء وسادة على لوح خشبى مغلف بقماش سميك وكان ينبعث من تحت المكواة بخار مشبع بالرائحة .

قال بيتيا بصوت منتحب وعيناه تحـدجان مرفق دونيا ذا الجلد المشدود :

ــ يا دونيا اسمعى قليلا ما جرى معنا .

يا سيد بيتيا يحسن بك أن تذهب من هنا كيلا تحترق بالمكواة .

ــ ولكن اسمعى لى قليلا !

ــ اذهب وقله للآنسة !

ــ خالتى لا تريد . أفضل أن أقوله لك . اسمعى يا دونيا !

ــ اذهب واحكه للسيد .

ــ أوه يا ربى ! ما أحمقك ! بابا يعرفه .

ــ غدا يا سيد بيتيا ، غدا !

ــ ولكن أريد اليوم ...

ــ لا تبق تحت مرفقى . ليست لديكم غرف كافية ربما ؟؟ فها أنت ذا تندس فى المطبخ فى هذه الساعة ؟

ــ أقسم لك يا دونيا وأعدك وعدا شرفا وثيقا وصحيحا : أقوله لك وأذهب على الفور بعدئذ .

ــ هذا الولد عقاب حقيقى من الله . لقد جاء لبلائى ..

تملك دونيا الغضب فوضعت المكواة على المشواة وتناولت غطاء الوسادة المكوى وذهبت بسرعة شديدة حتى ان بيتيا شعر بها تمر كأنها نفخة ريح .

وها هـو ذا بيتيا يفرك عينيه حزينا ويتثاءب . جر نفسـه

الى سريره بتثـــاقل . التصقت أهدابه وخلع قميصـــه بحركات الاعمى .

ما ان لمس الوسادة بخده الملتهب حتى غط فى نوم عميق . ولم يحس حتى بلحية أبيه وقد جاء كعادته ليلثم جبينه .

أما بافليك فكان لا بد من الاهتمام به وقتا طويلا . لقد نام فى العربة حتى ان أباه وخالته قد وجدا مشقة كبيرة فى خلع الملابس عنه .

وما ان اضطجع وتمدد الولد حتى فتح عينيه الصاحيتين وسأل وهو ينظر فيما حوله مندهشا :

ـــ ما زلنا مسافرين ؟

لثمته خالته بحنان على خده الأحمر الحار .

ـــ كلا ، أنت فى البيت . نم يا بنى .

بيد أن بافليك لم يعد لديه نعاس ، كان يود أن يتحادث .

ـــ هذه أنت يا خالتى ؟

ـــ نعم ها أنذى يا دجاجتى ! نم !

ظل بافليك مستلقيا وعيناه السوداوان مفتوحتان كزيتونتين منتبها الى الضوضاء الجديدة للشقة المدنية .

سأل أخيرا وهو يتمتم تمتمة وجلة :

ـــ يا خالة ! من يحدث هذه الضوضاء ؟

ـــ أى ضوضاء ؟

ـــ هناك . يوجد شخير .

— يا بنى هذا الماء الذى يجرى من الصنبور .

— هو يتمخط ؟

— نعم هو يتمخط . نم .

— وماذا يصفر ؟

— هذه هى القاطرة .

— وأين هى ؟

— أنسيتها ؟ فى المحطة . المحطة هى قبالتنا . نم .

— ولماذا الموسيقى ؟

هناك فى الأعلى يعزف على البيانو . أنسيت كيف يجرى العزف على البيانو ؟

ظل بافليك صامتا طويلا .

كان يمكن أن يظن أنه نائم ولكن عينيه كانتا تلمعان بالضوء المخضر للمصباح الصغير الموضوع على الكومودينا . كان يتابع بعينيه مذعورا خطوط النور التى تذهب وتجىء فى السقف .

— يا خالة ما هذا ؟

— هذه عربات مع فوانيسها . أغمض عينيك يا حبيبى .

— وما هذا ؟

كانت فراشة كبيرة تسمى « رأس ميت » تحوم فى ركن من السقف وتطن طنينا مخيفا .

— هذه فراشة . نم .

— تعض ؟

ـــ لا تعض . نم .

ـــ لست نعسان . أنا خائف .

ـــ مم تخاف ؟ ماذا تستنبط ؟ أنت ولد كبير ! يا للعيب !

استنشق بافليك الهواء وارتعش ارتعاشة خفيفة لـذيذة . أمسك بيديه الصغيرتين الدافئتين يد خالته وقال :

ـــ هل رأيت البوهيمى ؟

ـــ لا ، لم أره .

ـــ والذئب ؟

ـــ لم أره . نم .

ـــ ومنظف المداخن ؟

ـــ لم أر منظفا للمداخن . يمكن أن تنام هادئا .

تنهد الولد مرة أخرى وانقلب الى الخد الثانى ووضع تحته يديه مطويتين وتمتم وهو يغمض عينيه :

ـــ يا خالة ! أعطينى « المصاصة » .

ـــ ما هذا !؟ كنت أظن أنك هجرتها منذ وقت طويل .

و « المصاصة » هى الاسم الذى يطلق على المنديل النظيف الخاص الذى يمصه بافليك فى السرير لينام .

كان الصغير يقول متباكيا :

ـــ المصاصة ...

ولكن خالته لم تعطه المصاصة . لقد كبر وحان أن يهجر هذه العادة .

واذ ذاك أمسك بافليك بشفتيه زاوية من غطاء المخدة وهو يدمدم ، ويبلله بلعابه وابتسم بتكاسل بعينيه اللتين أثقلهمـا الجفنان . وفجأة فكر مذعورا بحصالته ألم يأخذها اللصوص ؟ ولكنه ما عادت لديه قوة ليتحرك بها .

وحينذاك استسلم لنوم عميق .

١١

غافريك

وفى نفس اليوم ، غافريك ــ وهو صديق بيتيا الذى تكلمنا عنه لدى وصف شاطىء ضاحية أوديسا ــ استيقظ باكرا جدا وهو يرتعد من البرد .

كان ينام على الشاطىء الى جانب الزورق ورأسه موضوع على صخرة مستوية ووجهه مغطى بجاكيت جده العتيق وكان الجاكيت قصيرا فلم يطل رجليه ليغطيهما .

كان الليل دافئا ولكن الجو يصبح باردا فى الصباح . كان البرد يخز رجليه العاريتين فيدفع الجاكيت الى رجليه وهو نائم . وحينذاك يلسعه البرد فى رأسه .

كان غافريك يرتعد ولا يريد أن يستسلم . لقد أصر أن يقهر البرد ، غير أنه كان يستحيل عليه أن ينام .

ما العمل . لعن الله النوم ! هيا ننهض !

فتح غافريك عينيه وهو منجهم فرأى البحر يلمــع أصــفر كالليمون والفجر أحمر قان فى سماء صافية غبراء . ان هــذا يبشر بنهار حار جدا . ولكن ما دامت الشمس لم تشرق فلا داعى للتفكير بالحرارة . لا جرم أن غافريك كان يســتطيع أن ينام مرتاحا فى الكوخ مع جنده ، فهو دافىء ووثير . ولكن أى ولد يأبى متعة قضاء ليلة أخرى على شــاطىء البحر فى الهــواء الطلق .

كانت الامــواج تلطم الشاطىء بهدوء وبدون ضــوضاء تقريبا . وما ان ترتطم حتى تنسحب بتراخ وتجر الحصـــا فى اثرها .

وتعود الحكاية نفسها فتأتى موجة وتعيد الحصا الى مكانه وتلطم الشاطىء مرة أخرى

كانت السماء الزرقاء حالية بنجوم آب ، ونجــوم المجرة عالقة فوق الرأس انها لمنظر عظيم لنهر سماوى .

وتنعكس السماءعلى صفحة الماء كلها رائعة حتى انك لتضيع السماء والأرض اذا اضطجعت على الحصا الدافىء ورأســك مقلوب الى الوراء ، فتحسب أنك تقــوم وسط هــوة غــارقة بالنجوم .

تنقد النجوم الهاوية فى لجة السماء وتذوب فى كل اتجاه .

الصراصر تصفر فى الاعشاب الشائكة والكلاب تعوى فى مكان بعيد جدا على منحدر الشاطىء .

ويشعر المرء فى بادىء الأمر كأنما النجوم لا تحير حراكا ، ولكن لا ، ما أن ينظر المرء اليها عن كثب أكثر حتى يرى أن قبة السماء تدور ببطء . بعض النجوم تغيب وراء البنايات وبعضها الآخر جديد يطلع من البحر .

رقت النسمة الدافئة وبردت .

وأصبحت السماء أكثر بياضا وشفافية . وأعتم لون البحر وانعكس نور نجمة الصبح كقمر صغير فى الموجة القاتمة .

صاحت الديكة للمرة الثالثة وجاء النهار .

فكيف تريد أن ينام تحت سقف فى مثل هذه الليلة ؟

نهض غافريك من النوم وتمطى بلذة وشمر بنطلونه وتثاءب ودخل الماء حتى كعب قدمه .

هل هو مجنون ؟ كانت رجلاه زرقاوين من البرد ويريد أن يغوص فى البحـر عندما يكون جلده مجمـدا من البرد عند رؤيته ...

ولكن الولد كان يعرف ما يصنع . فالماء ليس باردا الا فى الظاهر . وفى الواقع انه حـار جدا أشد حـرارة بكثير من الهواء . كان غافريك يدفىء رجليه فى الماء .

نهض وتمخط بشدة حتى ان الاسماك الصغيرة التى كانت تنام بهدوء قرب الشاطىء قد تبددت فى كل ناحية وغابت فى قاع البحر .

بعد ما تثاءب غافريك وفتح جفنيه تحت أشـعة الشـمس

المشرقة ، دلك بقميصه وجهه المشقق ذا الأنف الوردى المقشور كالبطاطا الجديدة .

قال كشخص كبير تماما :

— أوه ! أوه ! أوه !

وبتريث صلب فمه الذى ينقصه نابان وتناول جاكيته وتسلق الشاطىء بمشية مترنحة عنيدة كمشية صياد من أوديسا .

شق له طريقا بين الأعشاب الملتفة الكثيفة التى كانت تلوث رجليه الحافيتين وبنطلونه بغبار الطلع الأصفر .

كان الكوخ على مسافة ثلاثين خطوة من البحر تقريبا ، فوق مرتفع صغير من الغضار الأحمر حيث تلمع بلورات صغيرة من صخور الشيست .

وبعبارة أدق لقد كان مأوى صغيرا مبنيا بناء غير محكم بقطع عتيقة من الأخشاب : حطام مراكب مدهونة وصناديق وصفائح خشب رقيق وصوار .

كان سقفه المسطح مغطى بالتراب وكانت الأعشاب البرية والبندورة تنبت عليه .

كانت الجدة يوم كانت على قيد الحياة تطلى الكوخ بالملاط مرتين فى السنة فى عيد الفصح وفى يوم التجلى وذلك لتجعله أقل رثاثة حال فى أعين الناس . ولكن الجدة قد ماتت وها قد مضت ثلاث سنوات ولم يطل الكوخ أحد . لقد

اسودت جدرانه وانتحت . الا انه قد بقى مع ذلك آثار كلس عالقة فى الخشب العتيق . لقد كانت تذكر غافريك بالجدة وبحياتها التى كانت أوهى من خيوط العنكبوت .

كان غافريك يتيما لطيما . وما كان يتذكر أباه . أما أمه فقد كان يحتفظ لها بذكرى غامضة كل الغموض : طست للغسيل ، ويداها حمروان وخاتم من كييف فى أصبعها المنتفخ الاملس ومجموعات من فقاعات الصابون البهية تتطاير حول أمشاطها الحديدية .

كان جده قد استيقظ وأخذ يتجول فى بستانه الصغير الذى غشيه العشب الشائك وملأته أوساخ المنزل ، وما تزال تلمع فيه بحرارة بعض الزهرات الكبيرة البرتقالية للقرع المتأخر ، محتفظة برحيق سكرى فى أسفل تيجانها الشفافة البرتقالية المزبرة .

كان الجد يضع البندورة فى ذيل قميصه المغسول الذى حال لونه ولكنه يبدو ورديا من نور الشمس المشرقة .

كان بطنه يظهر نحيلا اسمر مع ثقب السرة الأسود الصغير ، وذلك بين البنطلون المنتفخ والقميص المشمور .

بقى قليل من البندورة فى البستان فقد أكلاها كلها تقريبا وقد وفق الجد فى العثور على ثماني بندورات صغيرة صفراء ولم يكن ليوجد غيرها .

كان العجوز يمشى ورأسه الأشيب مطرق وكان يحرك برجله الحافية كومة من الأعشاب الشائكة ليرى فيما اذا كان ما يزال

يوجد فيها شيء وهــو يشد على ذقنــه الحليقــة على النمط العسكرى ولكن أبحاثه ظلت بلا طائل .

كان صوص كبير يجرى وراء الجد وفى رجله قطعــة من الخرق مربوطة وينقر الأرض ويجعل أزهار الشمرة تهتز .

لم يلق الجــد ولا الحفيد تحية على بعضهما بعضا وهــذا لا يعنى أنهما كانا على غير وفاق . بل على العــكس لقد كانا صديقين .

فما ان يبدأ الصباح حتى يحمل لهما عملا شاقا ومتاعب . وليس هناك من داع لخداع النفس بأمان باطلة .

كان الجد يدمدم كأنما يواصل حديثا ابتدىء به البارحة .

ـــ لقد أكلنــا كل شيء ، ولم يعد ليبقى شيء . ماذا تقــول عن هذا ؟ ثمانى بندورات ، ماذا تجدى ؟ شيء مضحك حقــا !

ويسأل غافريك بعد ما يلقى نظرة على الشمس ويده على حافة قبعته :

ـــ نذهب اذن ؟

ويقول الجد وهو يخرج من البستان :

ـــ يجب أن نذهب .

ويدخــلان كوخهما ويشربان من سطل مغطى بلوح صغير ونظيف .

ويحدث العجوز صوتا من حلقه فيقلده غافريك . ويشــد الجد حزامه ويفعل كذلك الحفيد .

وبعدئذ تناول الجد من على الرف القطعة المتبقية من الخبز الذى اشتراه البارحة ويلفها مع بندورات بسنديل مبقع بالأسود .

ويتأبط برميل ماء عذب صغير ويخرج من الكوخ ويعلق قفلا على الباب .

تحفظ لا جدوى له . أولا لا يوجد شيء يسرق ، وثانيا من لديه أدنى ضمير ليسلب هؤلاء المساكين .

تناول غافريك المجدافين من على السطح ووضعهما على كتفه الصغير القوى .

كان لدى الجد والحفيد عمل كبير عليهما ان يقوما به فى هذا النهار . فقد كانت العاصفة قد انفجرت قبل البارحة ، وأتلفت الأمواج الشصوص ولم تعلق الأسماك ، وتعطل الصيد ولم يعد لديهما كوبيك واحد من الدراهم .

والبارحة هدأ البحر ووضعت الشصوص فى الأمسية .

فلا بد الآن من سحبها والوصول بالسمك الى السوق وتجهيز السنارات بالطعم ووضعها فى المساء أيضا كيلا تفوت الفرصة المواتية للطقس الجميل .

عصبا عضلاتهما وجرا القارب على الحصى الى الماء ودفعاه الى اليم باحتراس شديد .

وضع غافريك على مؤخرة القارب طست السمك ورجلاه غائصتان فى الماء حتى الركبتين ودفع القارب بشدة وانطلق

وانبطح عليه وهو يحرك فوق الماء ساقيه اللتين تسيل منهما نقاط ماء بهية .

وحينما ابتعد القارب ستة أو ثمانية أمتار دخل فيه غافريك تماما وأمسك المجداف وهو يجلس الى جانب جده .

كان كل واحد منهما يحرك مجدافا ، وكان هذا الذى يجدف أقوى تمرينا سهلا منشطا .

ومع ذلك فقد كانا كلاهما مقطبى حاجبيهما بهيئة غير مبالية ، واكتفيا بأن يصدرا أنات الجهد المبذول .

كان غافريك يشعر فى راحتى يديه بحرقة لذيذة . كان المجداف الغائص فى الماء الأخضر الشفاف يبدو مكسورا . وكان مسوط المجداف ينزلق تحت الماء بخفة ويدفع الى الوراء دوامات صغيرة .

كان القارب يتقدم بوثبات قوية وينحرف طورا ذات اليمين وطورا ذات الشمال . وكان الجد تارة يجدف بشدة وتارة أخرى الحفيد .

صاح الجد وهو يرتمى بشدة الى الوراء :

— هو — هى !

وانحرف القارب الى اليسار . وصاح غافريك أيضا بصوت أقوى :

— هو — هى !

واستقام القارب وانحرف الى اليمين .

كان الجد يستند على المقعد الأمامي برجله الحافية ذات الابهام المكشوطة ويجر المجداف بدفعات قصيرة . ولكن الحفيد ما كان ليدعه يتفوق عليه . كان يدفع برجليه الصغيرتين ويعض شفته . قال غافريك من خلال أسنانه التي يكز فيها وهو يتفصد عرقا :

ـ لن تغلبني يا جدي .

دمدم الجد وهو يلهث :

ـ سنرى هذا .

ـ أوه ! لا ! أقسم لك !

ـ سنرى !

ـ سنرى هذا .

ولكن جهود الجد ذهبت أدراج الرياح فلم يتوصل الى ذلك ، وذلك لأنه لم يعد فتى ! ثم ان هذا الحفيد لم يكن شيئا يذكر فهو ما زال صغيرا ولكن أرأيت هذا العنيد ! انه لا يخشى مغبة تحدي جده .

قطب الجد وألقى من تحت حاجبيه الأشيبين نظرات شزرة صوب الصبي الذي يلهث كالفوك الى جانبه . ولمعت في عيني العجوز الشاحبتين دهشة فرحة .

وهكذا لم ينجح أحد في التفوق على الآخر وكانا قد ابتعدا مسافة فرسخ عن الشاطيء . وهناك كانت ترفرف رايات صغيرة حال لونها معلقة بشصوصها المبيتة وهي مغروزة بسدادات من الفلين .

كان البحر كله مليئا بقوارب الصيادين .

ومر القارب الجديد الجميل « ناديا وفيرا » أزرق كله والأشرعة فى مهب الريح وهو يقفز عاليا فوق الأمواج قبل أن ينخفض فجأة ليظهر قاعه المستوى المفرغ .

تمدد بتراخ فى مؤخرة القارب الصياد فيديا وهو من « العين الصغيرة » والذى يعرفه غافريك معرفة جيدة ، وكانت على شفته بزرة من دوار الشمس عالقة .

كانت عيناه الجميلتان القاتمتان تنظران بفتور من خلال خصلة شعره وذلك تحت حافة قبعته الزرقاء ذات الأزرار المحلاة بالمراسى .

كان فيديا لا يلقى نظرة على قارب العجوز العتيق ، بينما كان يضغط بظهره القوى المقوس دفة المركب المنحرفة .

ولكن أخا فيديا ، فاسيا — وهو ولد يلبس كنزة مخططة ذات كمين قصيرين قد كف عن تدوير شصه الدائر حينما لمح غافريك . وضع يده فوق جبينه ليحمى عينيه من الشمس وصاح :

-- أيها غافريك ! لا تخف ، أمسك الماء كيلا تغرق !

ومر المركب « ناديا وفيرا » بأقصى سرعة وألقى على الجد والحفيد رذاذا قويا من الماء .

حقا انه لم يكن هنالك شىء مزعج بشكل خاص . هذر ! ولكن الجد تظاهر مع ذلك بأنه لم يسمع شيئا . بينما هو فى الواقع كان يشعر بانكسار النفس .

والجد نفسه أيضا قد كان له فيما مضى مركب جميل ذو شراع جديد ومتين . وكان الجد يركب ذاك المركب ويذهب لصيد السمك الاسقمرى بالشص الدائر . وما أكثر ما كان يصطاد ! كانت الجدة تذهب فى بعض الأيام الى السوق حاملة مئتين أو ثلاثمائة سمكة .

ولكن الحياة مضت ... ولم يبق للجد سوى كوخ قمىء على شاطىء البحر وقارب عتيق بدون شراع .

كان قد باع الشراع لشراء أدوية عندما كانت الجدة تعانى وطأة المرض ولم يجد هذا شيئا ، فالجدة ماتت مع ذلك ولم يعد فى المستطاع أن يشترى مثل ذلك الشراع .

الا أنه ماذا يمكن أن يصطاد بدون شراع ؟ انه أمر مضحك ! أكثر ما يستطيع أن يصيده هو سمك القد بالشص . وهذا محزن !

كان غافريك يدرى بماذا يفكر جده ، ولكنه ما كان ليظهر هذا . بل على العكس كان يشتغل حول الشصوص ، فسحب أول راية كى يصرف جده العجوز عن أفكاره المريرة .

سارع الجد لتخطى المقاعد وجلس بجانب حفيده . وأخذا يسحبان طرف الشص المبلل بأيديهما الأربع .

وسرعان ما ظهرت السنارات . ولكن ما كان فيها سوى سمك القد وكانت أسماكا صغيرة مع ذلك .

كان غافريك يمسك بشدة السمكة « الملعبطة » ذات الرأس

الكبير ويتناولها من خيشوميها وينتزع السنارة بمهارة من بين فكيها النهمين ويرمى السمكة فى الطست .

بيد أنه كان يجد من كل عشر سنارات ثلاثا عالقة بالغنيمة الحقيقية أما البقية ففيها أسماك هزيلة أو سرطانات .

كان الجد يدمم محزونا :

-- لا تعلق بأبى جلمبو . ما هذا ؟ ليس سوى الأسماك الصغيرة . يجب أن نطعم السنارات باللحم ، فسوف تعض بشدة باللحم . ولكن من أين لنا اللحم ... ؟ فالرطل يعادل ثمنه أحد عشر كوبيكا فى السوق . شيء مضحك جدا !

على أنه برزت فجأة كتلة ضخمة مغلفة بالدخان . وطار على الماء ظلان منحرفان كانا يحدثان ضجة داوية ... مرت الباخرة بالقرب من الزورق وظهرت العنفات الحمراء لدواليبها لامعة .

ارتفع الزورق وانخفض وعاود الارتفاع .

وثبت الرايات الصغيرة للشص قرب الدواليب . وكادت تعلق بها .

صاح الجد بأعلى صوته وفتح يديه كأنما يريد أن يصد جوادا جامحا :

— قف ! يا « تورغينيف » ! أنتم عميان ربما ؟ ألا ترون شصوصا يا أوغاد !

ولكن الباخرة كانت قد مرت ولم تحدث ضررا .

كانت تبتعد بضوضاء شديدة ورايتها فى المؤخرة الملونة

بألوان ثلاثة ترف وقوارب وأطواق الانقاذ وركابها وسحـاب دخانها أسود حار . وكان يمتـد وراءهـا شريط من الداتيلا الباهرة على المـاء الصـافي الأخضر . كانت السـاعة السابعة صباحا .

كانت الباخرة « تورغينيف » تقوم مقام الساعة للصيادين . فقد كانت تعود فى الساعة الثامنة مساء من أكرمان الى أوديسا مرة أخرى أيضا .

كان لا بد من الاسراع كيلا يتأخرا عن سوق السمك .

وبسرعة فطر الجد والحفيد بندورة مع الخبز وشربا ماء من البرميل الدافىء وله طعم الخشب وبعـدئذ شرعا فى سحب الشصوص بأسرع ما يمكن .

١٢

« وهذا يسمى حصانا ! »

كان غافريك فى طريقـه الى المدينة فى حوالى السـاعة التاسعة . كان يحمل على كتفه الطست وفيه سمك القد . لا جرم أنه كان يستطيع أن يضع السمك فى سلة ولكن هذا الطست أكثر مهابة ويظهر أن السمك طرى ، حى ، اصطيد من البحر منذ وقت قريب .

كان الجد قد بقى فى البيت ليصلح الشصوص .

كان غافريك قد قارب التاسعة من عمره ، ولكن جده كان يعهد اليه بعمل هام مثل بيع السمك . يعهد به الى حفيده الذى يفهم الأشياء . فقد كان كبيرا بشكل واف .

بيد أن العجوز اذا لم يعتمد على حفيده فعلى من سيعتمد ؟

كان غافريك واعيا كل الوعى لأهمية المهمة التى عهدت اليه فكان يسير منشغل البال فى الدرب الحار بين أعشاب ذات روائح قوية مخلفا على التراب آثار قدميه الصغيرتين المتوجتين بخمس أصابع .

كانت هيئته المركزة الرصينة كأنما تقول : « أنتم أيها الناس اصنعوا ما تشاءون ، استحموا فى البحر ، وتمددوا على البلاج واركبوا الدراجات واشربوا ماء الكازوز من المشرب ولكننى أنا صياد أشتغل فى صيد سمك القد بالشص المبيت وفى بيعها فى السوق وما تبقى لا يعنينى » .

وعندما مر أمام حمامات البحر حيث يبدو فوق شباك التذاكر لوحة سوداء وسخة كتب عليها بالطباشير « ١٨ » ، ابتسم غافريك ابتسامة ازدراء . انه ليغيظه أن يرى رجلا ضخما ذا جلد أبيض وقد غطى صلعته بمنديل ، كان هذا الرجل الضخم قد سد أنفه وأذنيه بأصابعه وغاص فى الماء الموحل قرب الشاطىء بدون أن يبتعد عن حبال الانقاذ المخضرة من الاشنيات .

هناك طريقتان لتسلق الشاطىء المنحدر : أما اتباع مرتفع

منحدر قليلا ومقسم فى انحداره الى ثلاث مراحل ، أو صعود درج وعر يكاد يكون عموديا ذا درجات منخورة .

لا شك أن غافريك يؤثر هذا الدرج .

كان يزم شفتيه ويرقى المرتفع بسرعة دون أن يترك لنفسه وقتا للتنفس .

ويقوده زقاق أغبر ولكنه ظليل الى قرب مدرسة الطلاب الضباط مارا أمام « مؤسسة حمامات البحر الحارة » .

هنا تكاد تكون المدينة .

كانت عربة للركوب مكشوفة تمشى فى الشارع الفرنسى فى ظل أشجار الدلب المبقعة متجهة الى الأركاديا . وكانت العربة محمية من طرف الشمس بقماش سميك . وكانت تبدو على السطح الخلفى حزمة من عصى الخيزران مع شصوص وعوامات نصف حمراء نصف زرقاء . وكان ثلاثة براذين نحيفة تقرع الحصا بحوافرها المحددة وكان المكبح فى المنعطف يصدر صوتا حادا .

لفت انتباه الصبى بشكل خاص كشك الكفاس .

كان عبارة عن مبنى مغطى بسقف له منحدران يدعمه عمودان صغيران . وكان مدهونا من الخارج بدهان أخضر ومن الداخل بدهان أبيض لماع .

وكان بائع الكفاس نفسه ذا جمال لا مثيل له يذكر المرء بالعيد . وفى كل مرة يراه فيها غافريك ما كان يستطيع أن يمنع

نفسه من الوقوف عند المفرق وقد استبدت به البهجة والغبطة .

ما كان غافريك يفكر أبدا فى اختيار حـرفته المقبلة حين يكبر . وما فائدة ذلك ؟ ولكن اذا كان لا بد من الاختيار فليس هناك سوى حرفة بائع الكفاس .

فى أوديسا كان جميع باعة الكفاس أنيقين وجميلين كما فى الصور ، ولكن هذا بشكل خاص يكاد المرء يحسبه فانكا حامل المفاتيح * الذى فى الأغنية .

وفعلا كانت له قبعة عاليـة من القماش الأزرق مثل التى يلبسها التجار وكان شعره أشقر مجعـدا وجزمته على شكل قارورة . والقميص ! ياله من قميص ! حقـا لا ينبغى للمرء أن يلبس مثله الا فى اليوم الأول من عيد الفصح : انه لامع أحمر وأكمامه منتفخة وطويل حتى الركبة وله أزرار كثيرة من الزجاج الأزرق !

وفوق القميص صـدرية من الجـوخ الأسود مع سلسلة ساعة فضية معلقة بالعروة بواسطة قضيب فضى صغير .

ان مظهر هذا القميص القانى وحده يثير فيك الرغبة لشرب الكفاس البارد .

ولا بد من رؤيته يشتغل ! بسرعة وبمهارة وبنظافة ...

ها هو ذا زبون قد وصل .

— أعطنى قدحا ، يا عزيزى !

---

* فانكا حامل المفاتيح : فتى وسيم ، بطل الاغانى الروسية الشعبية .

ـ وأى نوع من الكفاس ترغب : الحلو أم المز ؟ الحـلو بكوبيك القدح والمز بكوبيك القدحان !

ـ اعطنى المز .

ـ هاك يا سيد !

وعلى الفور وبلمح الطرف وبيد اقتلع بمهارة بواسطة حلقـة غطاء الصندوق الدائر وغـاص فى الظل البـارد ليتناول منه زجاجة بينما مرر باليد الأخرى المساحـة على الطاولة البيضاء الجافة وغسل بالماء قدحا كبيرا ذا عقب سميك خـداع وقلبه بأناقة ووضعه أمام الزبون .

ثقب الفلينـة بمفض القنانى . أما القنينة المرصـوصة بين الجزمة فأطلقت صوت « بق » ! واندفعت الرغـوة الحمراء من عنق القنينة تسيل شرائط طويلة .

قلب البائع القنينة فى القدح فامتلأ ربعه بالكفاس الأصفر الصافى وثلاثة ارباعه بالرغوة .

نفخ الزبون على الرغـوة وشرب وشرب وشرب ... وفى أثناء ذلك كان البائع ينشف بيده الطاولة ، وبقفا يده أسقط الكوبيك المبلل الذى يحمل النسر شعار القيصر ، فوقع فى علبة تنك من معمل سكاكر « كراخمالنيكوف اخوان » .

هذا نعم ، هذا رجل ! وهذه نعم ، هذه حياة !

ود غافريك لو يشرب كفاسا ولكن جيبه كان فارغا . ولربما استطاع ان يفعل ذلك فى العودة الا انه ليس هناك أمل كبير

لذلك . لا ريب أن مثتى سمكة قد فى طستنه ولكن انجد مـدين كثيرا الى التاجرة التى تشترى منهم السمك . ففى الأسبوع الفائت اقترضا منهـا ثلاثة روبلات لشراء عوامات وسنارات ولم يسددا لها سوى روبل وخمســة وأربعين كوبيكا . وان الدين الذى تبقى أكثر من روبل ونصف كان مبلغا كبيرا .

واذا قبلت التاجرة أن لا تقبض كل المبلغ فهذا حظ عظيم . واذا رفضت ؟!؟ ربمـا يبقى ما يكفى لشراء لحم للطعم والخبز ان عاننا الله ، ولن يبقى سبيل الى التفكير بالكفاس !

بصق غافريك تماما كما يفعل الصيادون عندما يزعجهم أمر .

أبدل الطست من كتف الى كتف وواصل سيره مشبعا خياله بصورة جميلة لفانكا حامل المفاتيح ، والرطـوبة الذكية لهذا المشروب المز الذى لم يستطع أن يتذوقه .

وبعد ذلك ابتدأت المدينة — بالمعنى الصحيح — حوانيت ومستودعات وأبواب كبيرة مع منازل عالية .

كانت الشوارع كلها مغمـورة بالظـل الشفاف لأشجـار الأكاسيا التى تتلألأ أوراقها الخضراء مثل عناقيد العنب .

كانت عربة نقل تقرع بلاط الشارع ، وكان ظل مثقب بنور الشمس يقع على الخيل المجهزة بالطقم الألمانى وعلى الحوذى وعلى الجدران البيض حيث تبرز هذه الكتابة : « معمل الجليد الاصطناعى » .

كانت الطباخات يسرن وهن يحملن سـلالهن وكان الظل ينسل اليهن أيضا .

وكانت الكلاب متدلية الألسنة تركض الى التنكات المعلقة بجذوع الأشجار ، كانت تلعق منها الماء الساخن مسرورة كل السرور من مساعدة ادارة أوديسا التى ما كانت تود أن يلم بها الظمأ فيثور سعارها ، وكانت أذنابها مفتولة كالزنبرك .

كان هذا كله معروفا جيدا وينقصه الاهتمام .

ولكن ها هو ذا شىء شيق حقا : عربة صغيرة يجرها جواد البونى الصغير . ان غافريك لم ير قط جوادا صغيرا بهذا القدر ليس أكبر من عجل ومع ذلك فهو مثل جواد حقيقى .

كان شعره أشقر وبطنه منتفخا وذؤابة بلون الشوكولا وذنب قصير منفوش مقصوص جيدا ، وعلى رأسه قبعة قش مع ثقوب للأذنين ، وهو واقف لا يحير بحركة ، رفع أهدابه وظل هادئا متواضعا مثل فتاة مهذبة فى ظل أشجار الأكاسيا أمام مدخل أحد البيوت .

كانت عصبة من الصبيان تحيط بالجواد الصغير .

دنا غافريك أيضا وظل فترة طويلة صامتا دون أن يعرف أى وضع يتخذ أمام هذه الظاهرة . أجل ! حقا ان الجواد الصغير قد أعجبه ، ولكنه كان يغيظه أيضا .

دار حول الجواد . أجل انه جواد ، جواد حقيقى ! فله حوافر وذؤابة وأسنان ولكن ما أصغره ! فهذا الذى يغيظه . قال بازدراء وقد ثنى أنفه :

— وهذا يسمى حصانا !

أخذت فتاة ذات جـديلتين تقـول وهى معجبـة وتصفق بيديها :

— ليس هذا حصانا وانما هو « بونى » !

قال غافريك متجهما وقد قطب وجهـه لأنه كان يجد من المعيب أن يتنازل الى التحدث مع دمية لها أشرطة حريرية :

— انه حصان مع ذلك .

— وأنا أقول انه بونى ، بونى .

قال غافريك بصوت خافت مبحوح وهو لا يلتفت اليها :

— هذا حصان للسيرك ، كسائر جياد السيرك .

— لا انه لم يأت مـن السـيرك ، لا ، انه لم يأت مـن السيرك . انه بونى !! انه بونى يستعمل فى توزيع كاز نوبيل . وأنت ترى جيدا التنكات .

وبالفعل كانت تنكات الكاز نظيفة مكدسة فى العربة .

لقد كانت هذه مفاجأة لغافريك . ان جميع الناس يعرفون ان الكاز يبـاع فى الدكان . ثمن الليتر نصف كوبيـك وذلك عندما يكون لدى المشترى وعاء .

الا أن توزيعه على البيوت بعربة يجرها بونى مبهرج مثل فتاة ، هذا شيء زائد عن الحد .

قال غافريك بصوت أجش وهو ينصرف :

— انه مجرد حصان .

وكانت الفتاة تصيح خلفه مثل ببغاء وتضرب بيديها وهى تجلس وتنهض بشكل متزن :

ـ هذا بونى مع ذلك ! هذا بونى مع ذلك ! هذا بونى مع ذلك !

أنت بونى ! فكر بهذا غافـريك الذى لم يكن لديه وقت للدخول فى مشاجرة .

لف حول حديقة المحطة التى كانت تصدر من خلف سياجها الحديدى رائحة حارة جافة من الآس والعفص . وقف غافريك ورفع رأسه ونظر طويلا الى ساعة المحطة .

لقد تعلم أخيرا أن يقرأ الساعة . والآن لا يستطيع أن يمر أمام ساعة بدون أن يتوقف ويجرى الحساب .

كان ما يزال يحسب على أصابعه . هذه العيدان الصغيرة الغريبة التى هى الأرقام الرومانية التى لا تشبه ولو شبها قليلا الأعداد العادية . ما كان يعرف سوى شىء واحد : وهو أن أعلى الأرقام هو الاثنى عشر ، وأنه لا بد له من الحساب ابتداء من هنا .

وضع غافريك الطست عند رجليه وحرك شفتيه وهو يثنى اصابعه بقوة .

تمتم غافريك وجبهته متغضنة :

ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ...

كان العقرب الصغير عند التاسعة والكبير عند السادسة . فقال الصياد الفتى وهو يزفر زفرة رضى وينشف بقميصه أنفه الذى تفصد عرقا :

التاسعة والنصف .

هذا ظاهر ، ومع ذلك كان يحسن أن يتحقق من ذلك .

— يا عم ! كم الساعة ؟؟

قام رجل يلبس جاكيتا من الحرير ، وعلى رأسه قبعة بيضاء تدعى بين الناس باسم « مرحبا ، مع السلامة » فوضع نظارة ذهبية على أنفه ورفع ذقنه البيضاء وأجاب فى الحال بعد أن ألقى نظرة على لوحة الساعة :

— التاسعة وثلاثين دقيقة !

نظر اليه غافريك مدهوشا :

— وكيف يا عم يكون هذا ؟ الساعة تشير الى التاسعة والنصف .

قال الرجل بصرامة دون أن يتنازل لالقاء نظرة على الصبى وصعد عربة وانطلقت وهو يضع بين ركبتيه عصاه ذات المقبض الذهبى :

— نعم هذا يعنى التاسعة وثلاثين دقيقة .

بقى غافريك بعض الوقت ساكنا فاغر الفم محاولا أن يدرك فيما اذا كان أبو لحية لم يسخر منه .

وأخيرا أعاد الطست الى كتفه أصلح وضع سرواله واستأنف سيره هازا رأسه ومبتسما بهيئة غير مصدقة .

التاسعة والنصف والتاسعة وثلاثين دقيقة سيان ! شىء غريب ، غريب جدا ! وعلى كل حال يجب أن أستفسر من شخص عالم حقا .

١٣

السيدة ستوروجنكو

أبو جلمبو ! أبو جلمبو ! أبو جلمبو !

-- سمك موسى ! سمك موسى ! سمك موسى !

سمك اسقمرى طازج ! سمك اسقمرى طازج !

-- سمك مرجان ! سمك مرجان !

-- سمك القد ! سمك القد ! سمك القد !

كانت بائعات سوق السمك أشهر بائعات السوق كلهن وذلك بأصواتهن الحادة العالية .

كانت تلزم المرء جرأة ربات البيوت والطباخات فى أوديسا كى يطوف بتريث هذا الممر المحوط بالطاولات والسلال والصناديق حيث تتراكم أسماك البحر والمحار وأبو جلمبو !

كانت ثروات البحر الأسود الحية تعرض تحت المظلات والرفرافات الخشبية زاهية زاخرة .

يا لها من أشكال وألوان وحجوم !

لقد قدمت الطبيعة جهدها لحماية هذه المخلوقات العجيبة . لقد اجتهدت لتجعلها خفية عن أعين الانسان فلا يراها ولونتها بجميع تلاوين البحر

هذا سمك الاسقمرى مثلا -- ملك البحر الأسود سمك غال ذو جسم كثيف ومستقيم رسل كالمغزل وهو ملون

ألوان متموجة بأرق ما يكون فتبدأ من الأزرق الفاهي حتى الأزرق القاتم .

كان غافريك يعرف أن هذا هـو اللون — اللازوردي المتموج كالموج — الذي يأخـذه البحر بعيـدا عن الشاطىء وهناك تتجمع أسراب سمك الاسقمري .

يا لهذا السمك من شطارة !

كان غافريك يرى كل يوم سمكا واعتاد عليه وصار يعرف تمييز سرب من سمك الاسقمـري في البحـر عن بعد نصف كيلومتر ، الا أنه على الرغم من كل شيء فقد كان في كل مرة يعجبه جمالها وحيلتها .

أو سمك القد أيضا الذي يحب أن يعشش قرب الشاطىء بين الصخور وفي الرمل وفي الأماكن العميقـة ، فتأخذ اون الصخور ، وصفرة الرمال .

أرأيت هذا !

وسمك موسى الكبير المسطح الذي اعتاد أن يمـكث في القاع الموحل من الخلجان الصغيرة الهـادئة فكان يدهش بلون جلده الأخضر القاتم السميك المليء بالأشواك العظمية التي تشبه الأصداف . عيناه من الأعلى ، تذكران المرء برسوم الأولاد : اذ يرى الرأس جانبيا وفيه عينان .

ولون بطن سمك موسى بلون الشمع ، لون الخنوص ، لكنه لا يظهر أبدا بطنه ويبقى هذا السمك دائما راقدا في القاع ملتصقا بالرمال .

وكان الصبى يندهش من حيلة سمك موسى .

أو أيضا سمك المرجان ، وهو سمك صغير أحدب أحمر وأسود ذو حراشف كبيرة تبدو كأنما كلها دامية . وفى الخلجان حيث الماء رقراق صاف يستطيع المرء أن يرى أصدافا كبيرة وردية تلمع وتتلألأ مثلها تماما .

وتحتشد زمر من أسماك التيولكا الفضية على سطح البحر قرب الشطآن وتختلط بنور الشمس الفضى صباحا .

أجل ! ان الطبيعة ذكية ماكرة ! ولكن غافريك كان يعرف أن الانسان أذكى منها لأنه سيمد شباكه وشصوصه غير المرئية وتلمع الشصوص والريش الخداعة فيلمع كل هذا السمك المختلط بماء البحر بجميع ألوانه فى السلال وفى بسطات الأسواق .

يكفى أن يكون لدى المرء دراهم لشراء أدوات الصيد الصالحة .

كان غافريك يسير بحثا عن عميلته التاجرة مارا أمام السلال حيث تزخر السرطانات بخضرة شفافة .

كانت تمد ملاقطها المفتوحة بشكل عصبى كأنها المقصات فتحدث ضجة خفيفة .

وكان التيولكا يسطع كقطع من النقود .

وكان ابو جلمبو المرن يقرقع تحت الشبكة المبللة وتنفث ملحا فى كل اتجاه .

وكانت حراشف براقة تلتصق بالأرجل الحافية وتزلق النعال على أحشاء السمك .

والقطط الهزيلة ذات الأحـداق الحادة والآذان الملتصـقة والأكتاف البارزة بنهـم ، كانت تدب على الأرض بحثـا عن فريسة .

كانت ربات البيوت مع سلالهن التى يبرز منها الجزر يرزن قطعا كبيرة من سمك موسى المقطع .

كانت أشعة الشمس حارة ترتخى بها الأسماك .

كانت التاجرة التى يفتش عنهـا غافريك جالسة على مقعد ولد صغير تستظل بمظلة من القماش تحيط بهـا سـلال مليئة بالأسماك .

كانت ضخمة ترتدى جاكيتا شتائيا منتفخا على الرغم من ارتفاع حرارة الطقس الى عشرين درجة ، وقد وضعت شالا أصفر وصرة متصالبة وهى تساوم مع زبونة لها .

وقف غافريك باحترام على بعد منتظرا أن تنتهى .

كان يدرك أنه هو وجده تحت رحمـة هذه المرأة ، فيجب عليه أن يظهر أمامها بمظهر التواضع والتهذيب . ولو أنه كان يلبس قبعة لكان عليه أن يخلعها امامها ولكنه ما كان لديه قبعة .

وقد اكتفى بوضع طسته على الأرض بهدوء ، وأسبل يديه وأخذ ينظر الى رجليه الحافيتين المغبرتين .

كانت المساومة تدور حـول عشرين سمكة قد ولـكنها ما كانت لتنتهى .

فقد ذهبت الزبونة ألف مرة ورجعت ، ألف مرة رفعت التاجرة يدها الى كفة الميزان المليئة بحراشف السمك ، ألف مرة رمتها فى سلة سمك موسى .

كانت تحرك يديها البدينتين ذاتى القفازين الأسودين لا اصابع لهما دون أن تنسى أن تمد بأناقة خنصرها .

وكانت تنشف بكمها وجهها الذى خطه شاربان صغيران أسودان وبرزت تحت ذقنها شعرات بيضاء مجعدة ، وكانت تغرز بحركة عصبية دبابيس كبيرة فى شعرها المزفت ذى اللون الأصهب ، وتصيح بصوت أجش :

-- يا سيدة هل هناك سؤال عن هذا !؟ سمكات مثل هذه ان تجدى . هذه سمكات ؟ انها ذهب .

فتقول الزبونة وهى تبتعد بازدراء :

— أسماك صغيرة ، لا تصلح للقلى .

— تعالى يا سيدة ! اذا كان يقال عن سمكات كهذه لا تصلح للقلى فأنا لا أعرف أين ستجدين أحسن منها ، ربما عند اليهود . هيا اذن الى اليهود ، ولكنك تعرفيننى جيدا فأنا أبدا لا أعطى سمكا صغيرا لزبونة أعرفها .

-- سمكات قد مثل هذه كل عشرة منها بعشرة كوبيكات ؟ لا أبدا . أن أكثر ثمن لها ثمانية .

-- خذى عشرين بتسعة عشر كوبيكا .

أفضل أن أشترى سمك مرجان بهذا الثمن .

— يا سيدة ! آخر سعر أقبله ثمانية عشر . فاذا لم ترغبى

فلا بأس ... يا سيدة الى أين تذهبين اذن ؟

وأخيرا تتم الصفقة وتبيع سمكها وترمى الدراهم فى صرتها .

كان غافريك ينتظر صابرا لعله قد لوحظ . لقد أبصرته التاجرة منذ وقت طويل ولكنها كانت تتظاهر بأنها لا تراه .

هذه هى عادة السوق اذا كنت ترغب بالدراهم فما عليك الا أن تنتظر . ولا حرج فى هذا فلن تموت به .

صاحت البائعة بعد وقفة :

— من يشترى سمكا طازجا ؟ قد حى ! سمك موسى ! سمك موسى ! سمك موسى !

ثم أمرت غافريك بدون أن تلفت بصرها :

— هات لأرى !

فتح الصبى الطست ودفعها الى التاجرة وقال باحترام :

— سمك قد !

دست أصابعها الخمس فى الطست وأخرجت عدة سمكات ألقت عليها نظرة عابرة ثم حدجت غافريك بعينيها المستديرتين القاتمتين مثل العنب الأسود .

— ماذا ؟ أين سمك القد ؟

سكت غافريك .

— أسألك أين سمك القد ؟

كان الصبى متألم النفس فبدل وقفته على الرجل الأخرى وابتسم بحياء محاولا أن يقلب الحديث الكريه الى مزاح :

ـ ها هو ذا سمك القد يا سيدة ! بين يديك ألا ترينه ؟

صاحت التاجرة مغيظة منفجرة :

ـ أين سمك القد . أرني اياه . أين هو ؟ لا أرى منه شيئا . لعله هذا الذى أمسكه بيدى ؟ هذا ليس سمك قد وانما قمل . هل يصلح هذا للقلى ؟ لا ، لا يصلح للقلى ! ما بالك تجلب لى دائما أسماكا صغيرة لا تصلح لشىء . هيا خذها الى اليهود .

ظل غافريك ساكتا .

من المؤكد أنها لم تكن أسماكا كبيرة ، ولكنها على كل حال ليست سيئة الى الحد الذى تريده التاجرة . ولكن ما كان يجب أن يرد بشىء .

وبعد ما انتهت التاجرة من الصياح أخذت تخرج السمك من الطست بهدوء وتكدسه فى سلتها وهى تعد العشرات بخفة .

كانت يدها تعد بسرعة حتى ان غافريك ما كان لديه وقت لمراقبتها . كان يخيل له أنها تريد أن « تعبطه » وتسيطر عليه . ولكن ما طريقة العد هذه ؟ كان يوجد فى سلة التاجرة أسماك أخرى .

استبد الذعر بغافريك واخذ يتفصد عرقا من اضطرابه .

قالت التاجرة وهى تلقى على السلة حصيرا من القنب :

ـ بالأرقام الصحيحة مائتان وخمسون . خذ طستك . ومع

السلامة . قل لجدك انه ما يزال مدينا لى بثمانين كوبيكا . فلا ينس ذلك . ولا يعد الى ارسال أسماك صغيرة الى فلن أقبلها .

ظل الصبى ساكتا مذهولا ، كان يود أن يتكلم ولكن حلقه استعصى عليه وتشنج .

أما التاجرة فقد عادت تنادى بدون ان تعيره أدنى التفاتة :

--- سمك موسى ! سمك موسى ! سمك موسى ! سمك قد ! سمك قد ! سمك قد !

وأخيرا تفوه الصبى بمشقة :

— يا سيدة ستوروجنكو ..

فالتفتت اليه وقد نفد صبرها :

أنت ما زلت هنا ؟ ماذا ؟

— يا سيدة ستوروجنكو كم حسبت ثمن المئة ؟

— المئة بثلاثين كوبيكا ، فيكون المبلغ خمسة وسبعين كوبيكا ، وأنتم مدينون لى بروبل وخمسة وخمسين كوبيكا ، فبقى عليكم ثمانون . قل هذا الى جدك ومع السلامة !

المئة بثلاثين كوبيكا !

ود غافريك لو يصيح اذ أنه شعر بالغيظ والغضب يخنقانه . وليته يستطيع أن يضربها ضربة أليمة على بوزها لينزف الدم من أنفها ، نعم ينزف من أنفها ، أو يعضها ..

ولكنه بدلا من هذا ابتسم ابتسامة مجاملة وقال وهو يتمالك نفسه عن البكاء :

— يا سيدة ستوروجنكو ! انك تدفعين لنا دائما خمسة وأربعين ثمن المئة ...

— يمكنك أن تشكرني اذا دفعت لك ثلاثين كوبيكا ثمن هذا الوسخ . هيا اذهب ...

— ولكنك ياسيدة ستوروجنكو تبيعين المئة بثمانين ..

— انصرف ! انصرف لقد كسرت رأسي ! البضاعة لي وأبيعها كما أريد . لست بحاجة الى نصائحك . سمك موسى ! سمك موسى ! سمك موسى !

نظر غافريك الى السيدة ستوروجنكو . كانت جالسة على مقعدها الصغير : ضخمة جامدة كصنم من الحجر .

كان يستطيع أن يقول لها انه هو وجده ليس لديهما شروى نقير وأنه يجب عليهما أن يشتريا خبزا ولحما للطعم وأن هذا لا يكلف بمجموعه سوى خمسة عشر أو عشرين كوبيكا ولكن ما جدوى التذلل والمهانة ؟

ثارت نخوة الصياد في نفسه .

كفكف الدموع التي انهمرت على أنفه المقشور ومخط بأصابعه ووضع طسته الفارغ على كتفه وسار بمشيته كصياد البحر الأسود .

وبينما كان يسير كان يفكر في نفسه ويتساءل من أين يأتي بالخبز واللحم ؟

١٤

« الجنود »

لقد رأينا حياة غافريك . كانت مليئة بالأعمال والمتاعب كحياة الرجال على الرغم من أنه كان صبيا فى التاسعة من عمره .

كان له أصدقاء ورفاق يحب أن يلعب معهم ويركض ويتشاجر ويصطاد العصافير ويضرب بالمقلاع وبعبارة موجزة ، يتسلى بكل ألعاب الأولاد الصغار الميسورين قليلا فى أوديسا .

كان من صنف « أولاد الشوارع » ولذا كان له أصحاب كثيرون .

كان يدخل بحرية الى جميع الساحات وكان يستطيع أن يلعب فى أى شارع كان .

لقد كان عصفورا طليقا ، والمدينة كلها مرتع له .

بيد أن العصفور كانت له اماكنه المفضلة . فقد اختار غافريك بصورة خاصة حى شوارع أوترادا والعين الصغيرة المجاورين للبحر . وهناك كان يسود بين الصبيان من سنه الذين ينظرون الى حياته الحرة بعين مذعورة مذهولة .

كان لغافريك كثير من الاصحاب ولكن الصديق الحقيقى كان بيتيا فحسب .

وكان أيسر شيء هو الذهاب لمقابلة بيتيا واستشارته حول مسألة الخبز واللحم .

حقا ان بيتيا ما كانت لديه دراهم ولا سيما أنه لا يستطيع أن يتصرف بمبلغ كبير كخمسة عشر كوبيكا . فلا يجب التفكير فى هذا . ولكن بيتيا كان يستطيع أن يختلس قطعة لحم من المطبخ ويأخذ خبزا من خزانة الطعام .

كان غافريك فى عيد الميلاد الماضى قد زار بيتيا . وكان يعرف أن أسرة باتشى لديها خزانة طعام ملأى بالخبز الذى لا ينتبه اليه أحد . وأخذ نصف رغيف أمر ليس بذى شأن ولن يلاحظ ذلك أحد .

ولكن يقتضى أن يعرف فيما اذا كان بيتيا قد عاد من المصيف أم لا . فالصيف قد مضى الكثير منه ولا بد أنه قد عاد . لقد استعلم غافريك عنه عدة مرات خلال الصيف فلم يجده .

وكانت الخادم دونيا فى المرة الأخيرة قد قالت له انهم سيعودون عما قريب ، وها قد مضت خمسة أيام . أتراهم عادوا ؟

قصد غافريك من سوق السمك الى بيت بيتيا . ما كان بعيدا انه تماما أمام محطة — حقل كوليكوفو ، ففى زاوية شارع الحبال الى جانب القيادة توجد بناية كبيرة من أربعة طوابق ومدخلين . انه لمنزل بديع ملائم كل الملاءمة للحياة السعيدة .

أولا انه بديع لمعارك الشوارع ببابيه الكبيرين . فباب ينفذ الى حقل كوليكوفو والباب الآخر ينفذ الى أرض بور فيها

أدغال وأعشاش العناكب وحفرة لأقذار البيــوت ، ليست كبيرة ولكنها غنية .

فاذا قضى المرء فيها وقتا يفتش يستطيع أن يجمع أشــياء مفيدة من قناني صيدلية حتى جراذين ميتة .

لقد كان بيتيا محظوظا حقا . ان جميع الصبيان الصــغار ليس لدى بيوتهم حفرة للأقذار مثل هذه .

ثانيا يوجد قبالة المنزل سكة حديدية تســير عليها قطارات الضاحية الصغيرة وتجرها قاطرة عتيقة . فليس المرء بحاجة الى أن يذهب بعيدا ليضع تحت الدواليب مفرقعات وحصوات .

وأخيرا جوار القيادة .

هناك وراء جدران البناء العالية الذى يطل على البرية كان عالم مجهول يحرسه الحرس ليل نهار ، ويسمع المرء ماكنات مطبعة القيادة تحدث ضــجة . وكانت الريح تطير من فــوق الجدران قصاصات تثير اهتماما : شرائط ورق واكوام الاوراق المتشابكة .

وكانت نوافذ مساكن الكتبة تطل على البرية أيضا . فاذا ارتقى المرء صخرة يستطيع أن يلقى نظرة عبر السياج ويرى كيف يعيش الكتبة ، هؤلاء الشبان الجميلون جــدا بمظهرهم المتزن وهم يلبسون بنطلونات طويلة للضباط وكتائف للجنود .

كان معروفا أن هــؤلاء الكتبة انما هم الجنود ، ولا أكثر ولكن ما أكبر الفرق !!

كان الكتبة أجمل من فى المدينة وأكثرهم أناقة باستثنــاء بائعى الكفاس .

كانت خادمات البيوت المجاورة يضطربن وكدن يغمى عليهن لدى رؤيتهن الكتبة . كن يحرقن أصداغهن وشعورهن بالمكاوى ويضعن مساحيق الأسنان على أنوفهن ويصبغن خدودهن بدلكها بأوراق السكاكر . ولكن الكتبة ما كانوا ليعيروهن انتباها .

كانت الخادمة فى عين كل جندى فى أوديسا مخلوقا ساميا بعيد المنال ، الا أنها فى عين الكاتب فى القيادة ليست ســوى قروية لا تستحق النظر اليها

كان هؤلاء الكتبة الكئيبون الوحيدون يظلون جالســين على أسرتهم الحديدية وراء النوافذ ذات القضبان وهم مجردون من بدلاتهم ، ينقرون على قيثاراتهم . كانوا يلبسون بنطلونات طويلة ذات كورساج احمر طويل مخطط وقمصانا نظيفة وعقدة رقبة سوداء ، عقدة الضباط .

واذا ظهر كاتب فى الشارع فى يوم الأحد فليس ذلك الا وهو مشبك ذراعيــه بذراعى عاملتى آزياء سرحتا رأسـيهما تسريحة عالية على شكل اسطوانة .

كان الكتبة أثرياء بشكل لا يصــدق وفى ذات مرة رأى غافريك بأم عينيه كاتبا يذهب بعربة اجرة .

ومع ذلك ما أغــرب هذا فهؤلاء الناس جنــود . وفى ذات مرة شهد غافريك فى زاوية شارع بيروغوفسكايا وحقل كوليكوفو

منظر جنرال بكتائف فضية يصفع بملء يده جنديا كاتبا ويصيح بصوت مرعب :

ـــ ما هذه الوقفة يا وغد ! ما هذه الوقفة ؟!

أما الكاتب فكان جامدا متهيئا ينوس برأسه محملقا عينيه انصافيتين لجندى بسيط فلاح ، يتمتم :

ـــ معذرة يا صاحب السعادة ! لن أعود الى صنع ذلك !

هذه الثنائية من الأوضاع كانت تجعل من الكتبة مخاليق غرباء جميلين ولكنهم يرثى لهم كالملائكة الخائبة .

وقد كانت حياة بسطاء الجنود الحراس الذين يسكنون الى جانب الكتبة شيقة جدا

والجنود أيضا كانت لهم حياتان .

فمن جهة كانوا يقفون مثنى مثنى ببدلة الحراسة الكاملة ، مع حزام الخراطيش أمام مدخل القيادة الرخامى وفى كل لحظة يتهيئون مقدمين السلاح فى كل مرة يدخل فيها ضابط أو يخرج .

وحياتهم الأخرى كانت أبسط ، حياة فلاحين عندما كانوا فى الثكنة : يخيطون الأزرار ويصبغون أحذيتهم بالدهان أو يلعبون بالداما .

وكانوا يجففون صحونهم وملاعقهم الخشبية على حواف النوافذ ، وكانوا يتركون عليها كثيرا من بقايا الخبز يتركونه عن طيبة نفس للمتسولين .

وبطيبة نفس أيضا كانوا يتحدثون مع الصبيان ولكنهم كانوا يطرحون اسئلة قوية ويتفوهون بكلمات شديدة حتى ان الأولاد كانوا يسارعون الى الهرب وآذانهم حمراء .

كانت باحتا منزل بيتيا المزفتتان تصلحان جيدا للعب المملكة لأنه كان من السهل رسم المربعات بالطباشير أو الفحم مع الأرقام . وكان حصا النحر الصقيل يزحف على الاسفلت بشكل بديع .

وعندما كان البواب المغيظ يطرد اللاعبين الصاخبين بمكنسته كانوا يجدون لهم معينا آخر فى الانتقال الى الباحة الثانية على الفور .

ثم ان هذا البيت كان له قبو بديع ملىء بالأسرار توضع فيه أحطاب التدفئة .

وكان منتهى السعادة الاختفاء فى هذه الأقبية بين الأحطاب والامتعة العتيقة فى الظلمة الجافة المغبرة حينما تكون الشمس ساطعة فى الباحة .

وبعبارة موجزة كان بيت بيتيا مناسبا من جميع الوجوه .

دلف غافريك الى الباحة ووقف تحت نوافذ شقة بيتيا فى الطابق الثالث .

كانت الباحة يقطعها الظل قطعا منحرفا فى الهاجرة هى خالية تماما . ما من ولد فيها ! اذن جميع الناس فى الريف أو البحر

كان أغلب النوافذ مستورا بالمصاريع وصمت الظهيرة الحار الصمت الفاتر يخيم على المكان . لا نأمة ولا حركة !

وكل ما كان يسمع عن بعد (ربما فى شارع بوتانيتشيسكايا ؟) أصوات مقلاة حامية ويمكن المرء أن يعرف من الرائحة أنه يقلى فيها سمك فى الزيت .

صاح غافريك وقد رفع وجهه ووضع كفيه حول فمه كالبوق :

– بيتيا !

سكون .

بيتيا !

المصاريع مغلقة .

- بيتيا !!

انفتحت نافذة المطبخ وبرز رأس الخادمة دونيا ملفوفا بمنديل أبيض . وألقت كلمتها المألوفة :

لم يعد بعد .

– ومتى سيعودون ؟

– ننتظرهم هذا المساء .

قذف الصبى بصقة وسحقها برجله وظل صامتا لحظة .

– اسمعى يا آنسة ! حينما يعود قولى له ان غافريك جاء لزيارته .

– أمرك يا صاحب السمو !

- قولى له سأمر غدا صباحا باكرا .

– لا تجشم نفسك العناء . ان بيتيا سيدخل المدرسة ، وهكذا انتهى وقت العبث !

10 — 4818

غمغم غافريك متجهما :

— طيب ! لا تنسى أن تقولى له . سنقولين ؟

— سأقول له ، لا تبك !

— الى اللقاء يا آنسة .

— الى اللقاء أيها المخلوق الساحر .

لا شك أن دونيا نفسها كانت قد سئمت من الفراغ والعطالة فتنازلت الى المزاح مع هذا الصعلوك الصغير .

اصلح غافريك وضع بنطلونه وذهب وهو يظلع .

يا للخيبة ! ماذا يستطيع أن يصنع ؟

كان مايزال لديه أمل بالذهاب لمقابلة أخيه الأكبر تيرتى فى ضاحية الطواحين القريبة . الا أن هذه الطواحين القريبة أولا — كانت بعيدة ولا بد له من أربع ساعات ذهابا وايابا . ثم بعد الاضطرابات التى جرت فى المدينة من يدرى فيما اذا كان هو هناك ؟ انه لمحتمل كثيرا أنه مختبىء فى أحد الأماكن وأنه يتمرغ فى حمأة الفقر والفاقة .

ما الفائدة من أن ترهق قدميك بلا طائل ما دامت القدمان لك وليس للدولة .

دلف الصبى الى البرية ومر أمام النافذة وألقى نظرة على مسكن الجنود .

كانوا يعـودون من تناول الطعام ، يغسلون ملاعقهـم على حافة النافذة . وكانت قطع الخبز تتراكم فى أشعة الشمس التى تشويها .

وكان الذباب يذهب ويعود فوق القطع السود الاسفنجية ذات القشرة السمراء الحامضة قليلا على ما يظن .

وقف غافريك تحت النافذة مبهورا من هـذه الـوفرة فى الغذاء .

ظل بعض الوقت صامتا بعدئذ قال بقسوة أدهشته هـو نفسـه :

هيا ـ يا عم ـ اعطنى خبزا !

وسرعان ما تمالك زمام نفسه وتناول طسته واستأنف سيره ملقيا على الجنود ابتسامة تظهر منها أسنانه الناقصة

لا ، كنت أقول هذا هكذا ! لا حاجة للعناء !

ولكن الجنود كانوا قد احتشدوا أمام النافذة يصيحـون ويصفرون لمناداة الصبى :

ـ هيه هناك ! بست ! آين تركض . تعال الى هنا !

كانوا يمدون اليه قطع خبز من شبكة النافذة .

ـ هاك ، لا تخف !

وقف مترددا .

ـ افتح قميصك !

وفى غمرة صياحهم الصاخب كان يوجد مقدار من الـكرم المرح حتى ان غافريك أدرك أنه ما من مهانة فى أخذ الخبـز منهم قدنا ومد ذيل قميصه .

وتطايرت قطع الخبز .

— تعال ، كل من خبزنا للجنود ، خبز الدولة ! يجب أن تتعـود .

وعلاوة على الخبز الذى جمـع منه خمس أرطال أعطـاه الجنود قدرا من الحساء المتبقى من البارحة .

دس الصبى بعناية غنيمته فى طسته وذهب مودعا بنكات حول التأثير الذى أحـدثه فى معـدته غذاء الجنود الى البيت لمساعدة جده فى اعداد الشصوص .

وانطلقا فى البحر عندما أسدل الليل أسجاف ظلمته .

١٥

قارب فى البحر

تمالك البحار نفسه حينما رأى أن الباخرة لم تقف ولم تنزل الزورق بل تابعت طريقها .

فسارع الى خلع ثيابه التى تضايقه .

وكان أيسر ما لديه خلع الجاكيت ، وهذا ما فعله فى ثلاث فترات وهو يستدير عدة مرات على نفسه ويبصق المـاء المالح والمر من الأمواج . لقد أثقله الماء حتى غدا كالحديد الصب

عام الجاكيت بعض الوقت وهو مفتوح الكمين وراء الرجل كأنه مخلوق حى : ليخيل للمرء أنه ما كان يود أن يفترق عن صاحبه فيحاول أن يمسك به من رجليه .

دفعه البحار فظل الجاكيت وراءه يغــوص ببطء ويتموج هابطا من طبقة الى طبقة أخرى . وأخيرا توارى فى لجة اليم حيث كانت تنفذ أشعة الأصيل مضطربة .

وكانت الجزمة هى التى تسبب للسباح أعظم مضــايقة . كانت ملتصقة بساقيه كأنما مليئتان بالزفت .

كان البحـــار يفرك رجــلا بأخرى بعصبية لعله يخلع هذه الجزمة البحرية التى فضحته ساقاهما الحمراوان . كان يجدف بيديه ويرقص فى الماء يغوص تارة ويظهر أخرى حتى كتفيه .

وكانت الجزمة تقاوم واذ ذاك مــلأ رئتيه بالهــواء وأمسك احداهما بيديه وجرها تحت الماء وهو يطلق فى فكره أشـــنع الشتائم .

وأخيرا نجح فى انتزاعها ، وانخلعت الثانية بشكل أسهل .

ما ان تخلص من الجزمة ومن بنطلونه حتى شعر فى ذات الوقت بتخفيف ، وعياء رهيب . كان حلقه يتأجج نارا لأنه على الرغم من كل احتراسه قد ابتلع كثيرا من ماء البحر وفضلا من ذلك كان قد رمى بنفسه بكل صـــدره على سطح البحر فآذى نفسه .

منذ ثمان وأربعين ساعة لم يطعم نوما ان صح التعبير . فقد سار مشيا أربعين أو خمسين فرسخا مارا بانفعالات رهيبة ، وكان بصره يعشى ــ وربما ــ بسبب المساء الذى يخيم بسرعة .

فقد الماء لونه النهارى الا أنه ما زال لامعا وكان على سطحه

مسحة صفراء ساطعة ولكنه أصبح مريعا مظلما فى الأعماق .

وعلى مستوى سطح الماء كان الشاطىء لا يظهر ، وقد ضاق الأفق ضيقا شديدا . وكانت انعكاسات الشمس الغاربة وحدها ما تزال تضيء السماء الصافية من أحد أطرافها حيث كان يطلع نجم صغير شاحب يظهر بصعوبة .

كان الشاطىء فى هذه الجهة اذن ، وعليه أن يتجه من هنا .

لم يحتفظ البحار سوى بقميصه وكلسونه اللذين ما كانا يكادان يضايقانه ولكن رأسه ألم به الدوار وأخذت مفاصل يديه ورجليه تؤلمه وبدأ يشعر بمشقة فى السباحة .

كان يخيل اليه فى بعض اللحظات أنه يفقد صوابه واحيانا يشعر بالغثيان ثم فجأة انتابه الذعر . لقد كانت الوحدة والأعماق تخيفه .

من قبل لم يشعر بهذا قط . يبدو أنه مرض .

كان شعره القصير المبلل يبدو جافا محرقا وقاسيا جدا حتى انه كان يخز رأسه .

وما من أحد حوله . وفوقه زمج الماء يحلق فى الجو وقد كمد لونه بظلمة المساء كأنه هر ، يحمله جناحاه الكثيفان ويمسك بمنقاره الطويل المعقوف سمكة صغيرة .

استبدت بالملاح نوبة ذعر جديدة . وكاد قلبه ينفجر انه سيغوص عموديا . ود لو يصيح ولكن أسنانه ما عادت تنفرج .

وفجأة سمع ضوضاء مجاديف حلوة وأبصر شبح قارب قاتم .

لثم شتات قواه وجد فى أثره وهو يضرب الماء ضربات يائسة برجليه . بلغ القارب ونجح فى امساك مؤخرته العالية .

غير يده وزحف الى حافته التى كانت اوطأ وارتفع بآخر جهد لينظر فى القارب .

صاح غافريك بصوت عميق وهو يرى الرأس المبلل الذى يبرز فوق حافة الزورق المتأرجح :

— هيا لا مزاح !

ما كان الولد مندهشا كثيرا بظهور هذا الرأس . فسبـاحو أوديسا كانوا مشهورين .

كان بعضهم يذهب الى ثلاثة أو أربعة كيلومترات عرض البحر ولا يعود الا والليل قد نشر جناحه . ولا شك أنه واحد من هؤلاء .

ولكن عندما يكون أحدهم بطلا من هذا الطراز لا حاجة له الى التعلق بقارب الآخرين للاستراحة . ما عليه الا أن يسبح وحده ! فالصيادون هم أناس متعبون بعد عملهم .

— هيا ! لا تتحامق أغرب ! والا ضربتك بالمجداف ...

ولكى يعطى غافريك هذا التهديد شدة تظاهر بنزع المجداف تماما كما يفعل جده .

قال الرأس بصوت متقطع :

— أنا ... مريض ...

امتدت فوق الحافة ذراع مرتجفة وعليها كم مطرز ملتصق .

أدرك غافريك حينذاك أن هذا ليس رياضيا . فالرياضيون لا يسبحون فى البحر بقمصانهم المطرزة .

- ماذا ؟ أنت غرقت ؟

ظل البحار ساكتا . وكانت ذراعاه ورأسه متدلية فى القارب لا تتحرك بينما كانت ساقاه المغطاتان بكلسون تنجران فى الماء . لقد فقد صوابه .

ترك غافريك وجده المجدافين وسحبا بمشقة الجسم المرتخى الثقيل الى القارب .

قال الجد وهو يلهث :

— أوه ما أشد حرارته !

وبالفعل كان البحار المبلل كله والمرتجف ، يلتهب بالحمى .

سأل غافريك :

— يا عم ! يا عم ! أتريد أن تشرب ؟

لم يجب البحار بشىء . كانت عيناه تبدوان مغشاتين بحجاب وتتحركان بتعبير لا وعى فيه . حرك شفتيه الملتهبتين .

قدم له الصبى اناء الماء المصنوع من خشب السنديان دفعه البحار بيد واهية وابتلع ريقه بفهقة تقزز وأخذ يتقيأ على الفور .

سقط رأسه وارتطم بالمقعد .

ثم مد يده الى الاناء وبحث عنه بيده فى الظلمة كأنما أصبح أعمى ، واصطدمت أسنانه بسدادة السنديان وارتوى كيفما كان الأمر .

هز الجد رأسه قائلا :

ــ ما الحكاية ! ..

وسأل الصبى :

ــ يا عم من أين أنت ؟

وابتلع البحار أيضا ريقه . كان يود أن يقول شيئا ولكنه لم يفعل سوى أن مد ذراعه بعيدا وتركها تسقط خائر القوى .

تمتم بسرعة حتى انه كان من الصعب فهم كلماته :

ــ لعنة الله عليه...لا تريانى الى أحد...أنا بحار...خبئانى فى مكان ... والا فسوف أشنق ... أقسم لكما أن هذا صحيح ... أمام الله ...

أراد أن يرسم علامة الصليب على صدره ولكنه لم يستطع أن يرفع يده . وأراد أن يبتسم ولكن حجابا غشى عينيه .

وعاد مرة أخرى وفقد صوابه .

تبادل الجد والحفيد نظرة ولم ينبسا ببنت شفة .

كان يحسن بهما السكوت لان الظروف عصيبة .

مددا بلطف البحار على الحصير فى أسفل القارب حيث كان الماء يخضخض ودسا الاناء الخشبى تحت رأسه وعادا الى المجدافين .

كانا يجدفان بهدوء دونما عجلة على نية ألا يبلغا الشاطىء الا والليل قد خيم . فكلما كان الظلام مطبقا كان هذا أفضل ثم انهما تلويا فى السير قبل أن يبلغا الشواطىء بين الصخور المألوفة .

ولحسن الحظ ما كان هناك من أحد على الشاطىء .

كان الليل حارا عميقا مليئا بالصراصر والنجوم .

دفع الجد والحفيد القارب الى الشاطىء الرملي وكانت الحصوات تصدر وسوسة خفية .

بقي العجوز يسهر على المريض بينما كان غافريك يفتش ما حوله .

ولم يلبث أن عاد بخطا خفيفة . فهم الجد من مشيته أن كل شيء على ما يرام وأخرجا البحار من القارب بمشقة كبيرة ولكن باحتراس وأوقفاه على رجليه وهما يسندانه من الطرفين .

طوق البحار بذراعه عنق غافريك وشد عليه الى جسمه الملتهب وسقط بثقل على الصبي دون أن يدرك ماذا صنع .

فتح غافريك ساقيه بشدة وتمتم :

— يمكنك أن تمشي ؟

لم يجب البحار بشيء ولكنه سار بضع خطوات وهو يترنح كالسكران .

قال الجد وهو يسند البحار من الخلف :

— مهلا ! مهلا !

— ليس بعيدا يا عم ، انه على بعد خطوتين ...

وانتهى بهم الأمر بصعود تلة . لم يرهم أحد . ولو لحظهم أحد ، فمن المشكوك فيه أن يلفت نظره هذا الشبح الأبيض المترنح الذي يقوده عجوز وصبي .

هذا مألوف ! صياد سكران يقوده أهله الى البيت . واذا كان الصياد لا يشتم ولا يغنى الأغانى بفيه فلا شك أن هـذا سببه أنه أسرف فى شرب الخمر .

وما ان دلفوا الى ظلمة الكوخ الحارة ذات الرائحـة حتى تهاوى البحار على السرير الخشبى .

سد الجد النافذة بقطعة من الخشب وأحـكم اغلاق الباب وبعدئذ فقط اشعل مصباح الكاز الذى بدون زجاجة خافضا الفتيلة أكثر ما يمكن .

كان المصباح موضوعا على رف مغطى بجـريدة عتيقة فى أحد الأركان .

وقد كان الخبز المأخوذ من الجنود هناك ملفوفا بخرقة مبللة كيلا يجف وقصعة مصنوعة من علبة كونسروا وصحن أبيض فيه حساء الجنود وملعقتان خشبيتان وقليلا من الملح الخشن الاغبر فى صدفة زرقاء كبيرة وبعبارة موجزة كل الزاد الزهيد ولكنه محفـوظ جيـدا .

وقد كانت أيقونة القديس نيقولاى صانع المعجـزات حامى الصيادين فى ركن فوق الرف وقد اسودت من سخام الدخان ، وهى تبدو ببقعة بيضوية بنية وشاحبة لوجه بيزنطى غائر العينين كما يفعل ذلك رسامو صور القديسين فى كييف .

كان ستار من السخام ، وضوء المصباح الصغير يسيلان على هذا الوجه العتيق من الاسفل الى الاعلى وكان الوجه ايضـا يبدو ينتعش ويتنفس ...

كان الجد منذ زمن طويل قد كفر بكل ما فى الوجود ، الا انه كان يثق بالقديس نيقولاى صانع المعجزات .

وكيف لا يؤمن بقديس يعين الانسان فى مهنته الشاقة الخطيرة ؟ لأنه ما كان يوجد شيء أهم فى حياة الجد من مهنته كصياد .

حقا ان صانع المعجزات لم يكن بمستوى رسالته فى الوقت الأخير .

عندما كان الجد شابا وكانت لديه ادوات صيد جيدة وشراع وعزيمة كان القديس الطيب يساعده . كان البيت يستفيد منه بعض الفائدة .

ولكن كلما كان الجد يكتهل أصبح القديس يتضاءل فى فائدته .

ومن المؤكد أنه حينما لا يوجد شراع لقارب الصياد وتتناقص قوى العجوز من يوم الى آخر ، وينعدم المال لشراء طعم من اللحم فلا جدوى من صانع المعجزات ولا يستحق الصيد شيئا .. ماذا يمكن المرء أن يتطلب منه . لا جدوى من صانع المعجزات فالشيخوخة والبؤس هيهات أن يقهرا .

ومع هذا كان العجوز يشعر فى بعض الأحيان بشعور من المرارة والغيظ لدى نظره الى القديس القاسى وغير المفيد . صحيح أن هذا ما كان يطلب أن يشرب ولا يأكل كان يظل هادئا فى ركنه ، ما كان عليه الا أن يظل فيه : ربما سينتهى به

الأمر مع ذلك الى بذل مساعدة . ومع الزمن اعتاد العجوز أن ينظر الى صانع المعجزات بعين سمحة خفيفة السخرية .

كان الجد بعد ما يعود الى الكوخ بعد الصيد ــ الذى كان اغلب وقته السيء ــ يستنكر صانع المعجـزات المرتبك وهو ينظر اليه شزرا .

ــ أيها الشحيح العجوز ها نحن قد اخفقنا من جـديد ! اخفقنا . نحمل آسماكا صغيرة يخجلون من آخذها فى السوق . انها ليست أسماكا وانما هى قمل .

وأضاف بلطف كيلا يذل القديس كل المذلة :

أجل ! حقا ! سمك قد حقيقى كبير هـل سيسمح أن ينخدع بأبى جلمبو طعما ؟ سمك قد حقيقى شبعان يهزأ بأبى جلمبو . انه يود اللحم طعما . ومن أين لنا اللحم ؟ لا يسـكن شراؤه بمعجزة هذا هو الأمر .

على أن العجوز هذه المرة ما كان لديه الوقت للتفكير فى القديس الطيب . فقد كان البحار يقلقه كثيرا وكان توجس الخطر المحيق الخفى يشغل باله اكثر من الحمى وهذيان المريض .

حقا ان الجد كانت له خواطره ، فقد كان يتحسس بعض الأشياء ، الا أنه كان لا بد له من أن يكون على اطلاع أحسن ليساعد هذا الرجل .

ولسوء الحظ كان البحار مستلقيا لا يعى شيئا ، تهز الحمى أوصاله فيفتح ساقيه ويديه على الغطاء المخطط ناظرا الى الأمام بعينين محملقتين لا تريان شيئا .

وكانت احدى ذراعيه متدلية خارج السرير والأخرى موضوعة على صدره . فاستطاع الجد أن يرى عليها مرساة صغيرة زرقاء .

ومن وقت الى آخر كان البحار يهم بالقفز على رجليه وهو يهذي غريق بالعرق الحار وقد استبد به الهذيان فكان يعض يده لينزع منها المرساة كأنما مصيره منوط بهذه المرساة .

كان الجد يحمله بقوة على الاضطجاع ويجفف جبينه ويقول :

ــ اضطجع اذن ... اضطجع أقول لك ... ونم ، ولا تخف شيئا ... نم .

كان غافريك في البستان يغلي الماء في اناء ليعمل شايا للمريض ، وليس شايا حقيقيا وانما غلوة من الأعشاب العطرية التي يقطفها الجد في شهر أيار من على التلال ويجففها ويستعملها كالشاي .

١٦

« قطعة البرج ، أطلق النار ! »

كان الليل مضطربا جدا

وكان البحار يمزق قميصه ويكاد يختنق .

أطفأ الجد السراج وفتح الباب ليدع الهواء الرطب يدخل .

رأى البحار السماء الحالية بالنجوم ولم يعـرفها ، هب نسيم الليل فى الكوخ ورطب رأس العليل .

انبطح غافريك على العشب الى جوار الباب وهو يصيخ السمع .

لم يغمض جفنيه حتى الصباح . فتخدر مرفقه . وكان الجد مضطجعا على الأرض فى الكوخ ولم يهجع أبدا . كان يصغى الى الصراصر والأمواج وآنات المريض الذى كان يجلس من حين الى آخر وهو يصيح بصوت متقطع

ـ قطعة البرج ، أطلق النار ! يا كوشوبا ! هيا قطعة البرج !

وجميع أنواع الكلمات الأخرى التى ليس لها معنى واحد .

وحينذاك أمسكه الجد بشدة من كتفيه وهزه باحتراس ولقنه فى فمه الملتهب :

ابق مضطجعا لا تصح ، لا تحدث ضوضاء كرامة للسيد المسيح . اضطجع ولا تقل شيئا . يا لها من مصيبة !

كان البحار يهدأ شيئا فشـيئا وهو يصرف بأسنانه صريفا خفيفا .

فمن هذا المريض الغريب اذن ؟

كان من بين البحارة السـبعمئة الذين نزلوا من على ظهر الدارعة « بوتمكين » الى الشاطىء الرومانى ، رجـل يدعى روديون جوكوف .

ما كان هناك من شىء خاص يميزه عن سائر بحارة السفينة المتمردة .

منذ اللحظة الأولى للتمرد ، منذ اللحظة التى استبد الذعر واليأس بالقائد فارتمى على ركبتيه راكعا أمام البحارة ، وانفجرت أولى الطلقات وتطايرت جثث بعض الضباط فوق حافة السفينة ، واقتلع البحار ماتيوشنكو باب حجرة الأميرال ، هذه الحجرة التى ما كان يستطيع أحد أن يمر أمامها بدون أن ترتعد فرائصه ، منذ تلك اللحظة عاش روديون جوكوف وكذلك أغلب البحارة الباقين ، وفكر وتصرف كأنما هو فى موجة من الابتهاج والحماسة واستمر هذا حتى اليوم الذى اضطروا فيه الى الاستسلام للرومانيين ونزلوا فى كونستانتسا .

وما كان روديون أبدا حتى ذلك الحين قد وطئت قدمه أرضا أجنبية . ولكن الأرض الأجنبية هى كحرية لا فائدة منها : فسيحة ومريرة !

كانت « بوتمكين » هناك قريبة من الرصيف .

وفى وسط القوارب وسفن البضائع كانت « بوتمكين » الرمادية ذات المداخن الثلاث محاطة بالزوارق واليختات والمراكب ومصفوفة الى جانب الطراد الرومانى فتبدو كبيرة كل الكبر .

وبعيدا فوق بروجها المصفحة وزوارقها وعوارض صواريها كان يتهدل علم أبيض يدعى سانت أندريه يقطعه صليب أزرق كثنية مصلبة بخط قلم أزرق .

وها هو يتحرك قليلا واخذ ينزل بارتجافات خفيفة .

وحينذاك خلع روديون قبعته بيديه وحيــاه مطأطئا حتى ان أطراف شريطه الأصفر والأسود لامست التراب كأزهار السهب .

هذا عيب ... عيب حقا ! مدافع اثنتى عشرة بوصة ! وقنابل لدينا الكثير ومسددون من الطــراز الأول . آه ، لو اطيــع كوشوبا . لقد كان دوروفى كوشوبا على صواب فى قوله : « هؤلاء العرفاء الانذال اطرحوهم من فوق السفينة . فلنغرق الدارعة « غيورغى بوبيدونوسيتس » * ولننزل فى أوديسا . لو فعلنا لأثرنا جميع حامية اوديسا وجميع العمال وجميع البحر الأســود . آه ! كوشوبا ، كوشوبا ، لو سمع كلامك . والآن تأمل ما حدث !

حيا روديون لآخر مرة باخرته العزيزة . وقال وهو يــكز أسنانه :

ـــ لا بأس ! سيكونون لنا . على كل حال سنثير روسيــا كلها .

وبعد عدة أيام اشترى ثيابا مدنية بكل ما تبقى لديه من دراهم وعاد ليلا الى روسيا مجتازا مصب الدانوب بالقرب من نيلكوفو .

كان يود أن يذهب الى أكرمان عبر السهب ومن هناك يذهب الى أوديسا على ظهر زورق أو باخرة ، وحينــذاك يكون على

---

* « غيورغى بوبيدونوسيتس » هى الدارعة التى انضم بحــــارتها الى الدارعة « بوتمكين » الثائرة .

مقربه من قريته التى ولد فيها وهى نيروبايسكويه وبعــدئذ سيرى ...

كان روديون يعرف شيئا واحدا معرفة أكيدة هو : فجميع طرق الماضى قد قطعت عليه . وان حياته القديمة كبحار عبــد على ظهر دارعة القيصر وحياة الفلاح الشاقة فى بيته الأصــيل فى كوخ أزرق كاشف ذى نوافــذ زرقاء بين الخبازة الصفراء والوردية ، كل هذا قد انتهى الى الأبد .

كان أمامه أحد أمرين : اما أن يشــنق واما أن ينجح فى الاختفاء واثارة التمرد واحراق القصور والعثور على اللجنــة الثورية فى المدينة .

وشعر فى طريقه بالمرض يلم به . ولكنه ما عاد يستطيع أن يتوقف . كان يمشى على الرغم من المرض .

والآن ؟ ماذا حدث له ؟ أين هو ؟ لماذا تتأرجح هذه النجوم فى اطار الباب ؟ أهى فعلا نجوم ؟

كان الليل كالبحر الأسود يحيط روديون .

وكانت النجوم تتكاثف وتتقد وصارت أمام عينيه أنوار المحجر الصحى الواطئة . وضجت المدينة واشتعلت النيران فى جسر الميناء . كان الناس يركضون مذعورين بين نيران هائجة وكانت طلقات النار تئز أزيزا شديدا على طول الشوارع .

كان الليل ينقلب مثل ظهر السفينــة . وكانت حزمة النور المنبعثة من عاكس النور تنسل الى الشاطىء المتموج وتنير زوايا

البيوت والزجاج وتعزل فى الظلمة الجنود الذين يركضون ومزق علم أحمر وصناديق ذخيرة ومساند مدافع وعربات مقلوبة عبر الطريق .

وها هو ذا روديون وجد نفسه فى برج الدارعة .

نظر المدفعى المسدد فى التيليميتر . وكان البرج يدور بشكل آلى مصوبا الى المدينة مدفعه الفارغ اللامع فى الداخل بخدوشه . قف ! واذا هو أمام قبة المسرح الزرقاء تماما حيث جنرال بهيئة وقور يعقد مجلسا حربيا ضد المتمردين .

وضج صوت جرس تلفون فى البرج .

ولكن قد يكون هذا رنين صرصور فى السهب .

لا ، هذا هو التلفون . والرافعة الكهربائية تجر من المستودع قنبلة تتأرجح معلقة بسلاسلها بضوضاء وجاءت الى يدى روديون .

ولكن قد لا تكون هذه قنبلة وانما بطيخة منعشة ؟ أوه ليتنى أشرب ، لا ، لا ! انها قنبلة .

— قطعة البرج ، أطلق النار !

وفى نفس اللحظة رنت أذناه كأنما طلقة قادمة من الخارج أصابت البرج المصفح بضوضاء شديدة . واندلع لهيب ينشر رائحة قشر محترق .

ارتج المرفأ كله وتمايلت الزوارق فيه ، وانسدل ستار من الحديد بين الدارعة والمدينة .

— تجاوز !

شعر روتيون بيديه تحترقان . ولكن ها هى ذى الصراصر التى ما تزال تصفر مثل جدول بلورى بين ركام النجوم والأعشاب الـكثيفة .

ربما يكون التلفون يرن ؟

واندفعت القنبلة الثانية وحدها من الرافعة لتقع بين يدى البحار . سنجهز على الجنرال ، انتظر !

— قطعة البرج ، اطلق النار ! قطعة البرج ، اطلق النار !

اضطجع ، لا تصح ... هل تريد ماء ؟ ابق هادئا ...

.... وانصب على المرفأ قصف آخـر . تجـاوز ! لا بأس ، ربما فى القصف الثـالث سيقصـده ... ليست القنـابل التى تنقصهم ، فالمستودعات مليئة .

ووقعت القنبلة الثالثة بين اليدين الواهنتين أخف من الريشة ومع ذلك أثقل من البيت .

يجب اطلاقها بأسرع ما يمكن ليصعد الدخان بأسرع مايكون من القبة الزرقاء وحينئذ سيكون هذا على ما يرام ! ....

ولكن التلفون ما عاد يزقزق وكفت الصراصر عن الغناء . أتراهم ماتوا كلهم هناك فى أعلى ؟

أترى المصباح قد جاء هادئا ورديا ؟

وبدا البرج يدور وحده باتجاه معاكس . « الانسحاب » ! أما القنبلة المنزلقة من اليـدين اللتين اسبلتا ، فقـد نزلت الى

المستودع وهى تحدث ضجيجا فى سلاسل الرافعــة . لا ، لا ، هذه هى الطاسة التى أفلتتها الأصابع وهذا هو الماء الذى يخر بهدوء جاريا من السرير الى الأرض .

ساد الآن صمت ، صمت ...

« ولكن ما هذا ؟ لقد باع الأوغاد ، باعوا الحرية ! جبنـــاء آه ! حينما كان يجرى القتال ، كان يجب القتال حتى النهاية ، يجب ألا يبقى حجر على حجر ! »

- اطلق النار ! قطعة البرج ، اطلق النار !

- آود ! يا الهى ! يا قديس نيقولاى صانع المعجزات ! ابق مضطجعا . اشرب ماء أيضا . يا لها من مصيبة !

هبط ســكون الصباح الخفيف الوردى على خد روديون المحموم . وأخذت الديكة تصيح من بعيد على المنحدر الذهبى .

١٧

صاحب المرمى

قرر الجد والحفيد بعد التــداول فى الأمر ألا يريا المريض لأحد ، ولا ســيما انه لا يجب أن يرسل الى المستشفى البلدى حيث سيطلب منه أن يبرز أوراقه الثبوتية .

وقد كان البحــار — حسب رأى الجد — مصــابا بحمى

عادية ، وليست شديدة ولن تلبث أن تزول واذ ذاك عليه أن يبدى رأيه .

كان النهار قد جاء ولا بد من الانطلاق الى البحر .

وكان المريض لا ينام .

وكان قد أضناه التعرق فظل مضطجعا على ظهره ساكنا يحدج بنظرة صاحية صورة صانع المعجزات وباقة الزهر النضير المغروسة وراء اللوحة التى اسودت بمرور الزمن .

سأل الجد وهو يدنو من المريض :

— أتسمعنى ؟

فحرك هذا شفتيه بسكون كأنما يود أن يقول : « اسمع » .

— أصبحت الآن أحسن حالا ؟

رد المريض بالايجاب وهو يغمض جفنيه قليلا .

— ألم تجع ؟

انحرف الجد الى جهة الرف حيث يوجد الخبز والحساء .

هز البحار رأسه هزة ضعيفة تعنى : « لا » .

— طيب سيكون كما تشاء . اسمع اذن يا بنى ... يجب علينا أن نذهب الى البحر للصيد أتسمعنى ؟ سوف نتركك وحدك هنا وسوف نغلق الباب بالقفل . يمكنك أن تثق بنا . نحن أناس مثلك ، أناس من البحر الأسود . أتسمعنى ؟ وأنت ابق هادئا مضطجعا هنا وخذ راحتك . اذا جاء أحد وقرع الباب فما عليك الا أن تسكت وهذا كل شىء . سأقوم أنا وغافريك

بالعسل بسرعة وسنعود على عجل . سأترك لك ماء فى الطاسة فاذا عطشت تستطيع أن تشرب وليس هذا بذى ضير . لا تقلق ، كن مطمئنا . أتسمعنى ؟

كان العجوز يتحدث مع المريض كأنما يتحدث مع ولد صغير وفى كل لحظة كان يسأل « أتسمعنى ؟ » .

وكان البحار ينظر اليه بعينين تحـاولان أن تبتسما ، وكان يغمضهما من وقت الى آخر كأنما يود أن يقول : كن مطمئنا ، أفهم ، أشكرك !

وبعد أن أغلق الصيادان الباب على البحار ، ركبا متن البحر وعادا بعـد أربع سـاعات فوجدا كل شىء على ما يرام . كان المريض نائما .

وفى هذه المرة حالفهما الحظ .

فقد سحبا الشبكة فكان فيها حوالى ثلاثمئة وخمسين سمكة قد رائعة فنظر الجد بكرم الى صانع المعجزات وحرك شفتيـه المتجعدتين وقال :

— الأمر على ما يرام اليوم . لقد طعمنا بأبى جلمبو وخرج الصيد سمكا كبيرا . عافاك الله وأسبغ عليك ثوب الصحة .

كان صانع المعجزات — وهو واع لقدرته — ينظر الى الجد بصرامة وتعال كأنما يود أن يقول : « وأنت الذى يمـلأ قلبـك الشك . فتعاملنى معاملة الشحيح العجوز ان الشحيح العجوز ان هو الا أنت ! » .

قرر الجد أن يذهب بنفسه لأخذ السمك الى السوق . كان لا بد له من أن يسوى الحساب بشكل جدى مع السيدة ستوروجنكو ، لأنه ماذا يعنى هذا فى آخر الحساب : مهما قدم من سمك فان الدين يظل باقيا ولا يقبض مالا . ان القيام بالصيد فى هذه الشروط لم تعد له أهمية .

ان الفرصة اليوم مؤاتية ، فلن يستشعر خجلا من تقديمه البضاعة ، فقد كان السمك جميلا تماما .

ود غافريك لو يذهب الى سوق السمك ليزور بيتيا ويشرب أخيرا قدحا من الكفاس فى الزاوية عند العودة .

الا أنه كان من الخطر ترك البحار وحده ، اذ أن ذلك اليوم يوم أحد ، وسوف يأتى جمهور غفير من الناس الى الشاطىء .

وضع الجد على كتفه الطست الذى ما يزال مبللا ومضى الى السوق . أما غافريك فقد جدد الماء فى الطاسة وغطى رجلى البحار ليحميهما من الذباب ، ثم وضع القفل على الباب وذهب ليقوم بجولة قصيرة . وعلى مقربة من كوخهما كانت توجد على البلاج مختلف مؤسسات التسلية : مطعم صغير وله بستان وألعاب ومرمى ودوامة التسلية وحجرات مياه معدنية ودكاكين سكاكر شرقية وآلات لقياس القوة وبعبارة موجزة سوق حقيقى صغير . وقد كان التجول وسط كل هذا متعة حقيقية للولد .

كانت الصلاة لم تنته بعد فكانت أصوات النواقيس فى الكنائس الواقعة على الشاطىء تتعالى الى أجواز الفضاء بعيدا الى ما وراء المنحدر ...

وكانت الريح اللطيفة تدفع أحيانا على مهل غيمة بيضاء ناصعة مستديرة ومشرقة مثل أصوات النواقيس .

وكان الطرب الحقيقى لم يبدأ بعد الا أن بعض أبناء المدينة المهندمين كانوا يدورون حول دوامة التسلية منتظرين أن يرفع الغطاء أخيرا .

ومن جهة لعبة الاسطوانات كان يأتى صوت سير الكرة الثقيلة المقذوفة على درب ضيق . كانت الكرة تتدحرج طويلا وتخف ضجة دحرجتها وبعد صمت قصير كان يأتى من وراء السياج الذى تكتنفه الأكاسيا الصفراء ، طقطقة خفيفة موسيقية من الاسطوانات التى تتساقط .

وفى المرمى كان شخص يرمى طلقات نادرة بالبندقية . وفى بعض الأحيان بعد طلقة ضعيفة قصيرة كانت ترتفع رنة قنينة مكسورة أو تبدأ تئز ميكانيكية هدف متحرك .

كان المرمى يجتذبه كمغناطيس قوى .

اقترب غافريك من الرواق ووقف عند الباب وهو ينشق بنهم رائحة البارود اللذيذة التى فيها طعم رصاص أزرق . وكان يحس حتى على لسانه طعم الطلقة الحاد الخانق .

أوه ! يا لهذه البنادق الموضوعة على مساند خاصة !! ثم قنداقها المقتطع من خشب صلب كالحديد ومحفور فى أماكن توضع فيها اليد ! والمسطانة السميكة ولكنها طويلة مضلعة من الفولاذ الأزرق الصقيل ولها نهاية فيها ثقب كالحمصة ! ثم

شعيرة الفولاذ الزرقاء وآخر السبطانة بسيط وسهل الاستعمال !!

حتى أغنى الأولاد ما كانوا يملكون ــ الا فى الحلم مثل هذه البندقية المدعوة « مونت ــ كريستو » الذى يحرك اسمها وحده بلابل النفس . انه يذكر المرء بثروة طائلة وبالسعادة والمجد والشجاعة . وان الحصول على بندقية مونت كريستو أجمل من الحصول على دراجة .

ان الأولاد الذين كانوا يملكون مسدس مونت كريستو كانوا مشهورين فى حيهم وخارجه . وكان يقال عنهم : « فولودكا من شارع ريشليو صاحب مسدس مونت كريستو » .

ما من ريب فى أن غافريك ما كان يجرؤ أن يحلم بمثل هذا الحلم بل ما كان يجرؤ أن يحلم برمى طلقة واحدة لأن هذا يكلف ثمنا هائلا : خمسة كوبيكات ! ولكى يكون المرء راميا لا بد له أن يكون ميسورا جدا .

ما كان غافريك ليشتط فى حلمه بالتسديد الى الهدف ، وهذا ما كان يسمح له به صاحب المرمى فى بعض الأحيان .

على أنه كان يوجد هذه المرة زبون للرمى . وقد أحسن صنعا بالانتظار وربما حالما ينصرف الرامى يستأذن غافريك صاحب المرمى وعندئذ ...

ولكن الزبون ما كان مستعجلا للانصراف . فقد وقف وفتح

رجليه المنتعلتين نعل سكوروخود وماكان يطلق بقدر ما يتكلم .

اغتنم غافريك دقيقة التفت فيها صاحب المرمى ، ليسلم عليه بأدب :

— مرحبا يا عم ! أتمنى لك عيدا طيبا .

أجاب صاحب المرمى — بهيئة رصينة — بهـزة بطيئة من رأسه كما يليق بصاحب مؤسسة تسلية خارقة للعادة . انها لدلالة طيبة . لقد كان صاحب المـرمى مشرق النفس وربمـا أعطى غافريك البندقية ليمسكها بيده .

سمح الصبى لنفسه أن يقترب وأن يقف فى العتبة .

كان يتفحص بشغف المسدسات المعلقة فـوق المنضـدة ، والمسند والأهداف الآلية التى أعجب أحـدها الصبى بشكل خاص .

لقد كان دارعة يابانية ماخرة ، ومدافعها بارزة ورايتها فى الهواء بين الأمواج الخضراء فى بحـر من الصفيح . وكانت دائرة معلقة بطرف قضيب تخرج من البحـر ويكفى أن تصاب حتى تنشق الدارعة وتغرق فى لجة البحر بينما يبرز مكانهـا مروحة معدنية تصور الانفجار .

ومن المؤكد أنه وسط الأرانب التى تقرع الطبول والراقصات والصيادين الذين علقوا حذاء فى طرف سنارتهم ، والقنانى التى تمر وراء بعضها بعضا على شريط لا نهاية له كانت الدارعة لها المقام الأول . انها تفوق الوصف ومصنوعة بشكل فنى .

كان جميع الناس يعرفون أن اليابانيين قد أغرقوا منذ وقت قريب كل الأسطول الروسى فى تسوسيما ، وكان بين الرماة هاو يريد الانتقام من أولئك القذرين .

كانت فى المرمى نافورة ماء . وكانت تشتغل بطلب . وكان صاحب المرمى يضع فوق النافورة كرة خفيفة يقذفها الماء فى الهواء ويدورها . وكانت طورا ترتفع وطورا تنخفض . انهـا لأعجوبة حقا ولغز من ألغاز الطبيعة .

وكان من الصعب جدا أن تصاب . وكان الهواة المتحمسون يطلقون عشر طلقـات وخمس عشرة طلقـة وتذهب جهودهم فى مهب الريح على الأكثر .

ان من يتوصل الى اسقاط الكرة البيضاء الصغيرة له حق بطلقة مجانية .

كان الزائر يسأل وهو يمسك بندقية أنيقة تبدو صغيرة بين يديه الكبيرتين :

— لم يحدث عندكم شيء خاص البارحة مساء ؟

لم يحدث شيء على ما أعرف .

طيب .

ظهر الرامى يبحث بعينيه عن هـدف يروقه ، فنزع نظارته الزرقاء التى خلفت على أنفه الضخم علامتين من ملقط النظارة وصـوب الى الأرنب عازف الطبـل . ولكنه غير رأيه وخفض البندقية .

— ولم يقل الصيادون شيئا خاصا ؟
— ما قالوا شيئا أبدا .
— هم ...

ورفع الزبون البندقية مرة أخرى ثم عاد وخفضها .

— لقد سمعت أنه البارحة مساء سقط رجل من الباخرة « تورغينيف » هنا قبالة الشاطىء ألم تسمع الحديث عن هذا ؟

— كلا .

شعر غافريك أن نفسه قد ضاق كأنما سكب على رأسه سطل ماء مثلج . انقبض قلبه بشدة حتى أنه شعر به يكاد ينخطف وتراخت ساقاه وما عاد يجرؤ على الحركة .

— وأنا سمعت أن رجلا مطاردا من قبل البوليس قد قفز الى الماء هنا أمام الشاطىء . ألا تعرف شيئا ؟

أنت أول من يقول هذا لى .

بدا على صاحب المرمى انه اغتاظ من سماع هذا الرجل الثرثار ذى الشاربين .

كان يقلب بين يديه علبة صغيرة خضراء فيها خراطيش وهو بهيئة ملؤها الوجاهة وأمسك نفسه عن التثاؤب . لا ريب أنه كان يقدر بحق أن المرء عندما يأتى للرمى لا بد له من أن يرمى . واذا تملكته الرغبة بالتحدث فعليه أن يتحدث بين الطلقتين . ثم يجب أن يكون الحديث عن أشياء شيقة : سباق الدراجات أو الحرب الروسية اليابانية .

كان تعبير من الضجر الكئيب يغضن وجه صاحب المرمى غير المحظوظ المليء بالأهواء الخفية .

كان غافريك يرثى لحاله باخلاص . وكسائر جميع الأولاد كان يحب هذا الرجل ذا السوالف المقصوصة بزاوية حادة ، وذا الساقين القصيرتين المفتولتين ، والصدر المزغبر حيث يبدو من الكنزة وشم كثيف .

وكان غافريك يعرف أن صاحب المرمى على الرغم من كسبه دراهم لا بأس بهـا ما كان لديه درهم يذكر . كان مدينا دائما لشخص ويبدو دائما مهموما جدا . وقد سرت شائعة أنه كان فارس سيرك شهير ، ولكنه أهين مرة فضرب بسوط على وجـه المدير وطرد . فالقمار أضاعه . والآن يلعب بجميع أنواع القمار دون أن يأنف اللعب مع الأولاد « بالطرة والنقش » على كوبيك واحد لكل لعبة .

كان هذا الهوى الشديد ينهش نفسه .

وكان معروفا انه يخسر فى بعض الاحيـان كل ما يلبسه . مثـلا ان الحـذاء الذى يلبسـه ليس ملـكا له . فقد خسره فى مطلع الصيف بلعبة « الواحد والعشرين » والآن اذ يغلق مؤسسته لليل يخلعه ويعود حافيا وهو يتأبط صندوق البنادق والمسدسات وكان يعهد بها الى كناس من شارع أرناؤطسكايا الصغير مخافة أن يخسرها فى اللعب بالورق .

وفى ذات مرة راهن صاحب المرمى ــ أمام غافريك ــ على

خمسين كوبيكا مع سيد كان يتجول على الشاطىء : فقد أكد أنه يصرع عصفورا طائرا بطلقة من مونت كريستو . ولا جرم ان الطلقة طاشت .

كان غافريك قد شعر بالشفقة عليه بينما كان الرجل يتفحص بندقيته بدهشة مصطنعة مخجلة ويهز كتفيه . وأخيرا أخرج من حاشية جاكيته المرقع قطعة خمسين كوبيكا وقدمه مستقعا الى السيد . فرفض هذا قائلا انه راهن للعبث ولكن صاحب المرمى كان ينظر اليه بعينين محتقنتين بالدم منزعجا فلم يملك المراهن أن يرفض القطعة . فدسها وهو مضطرب — فى جيب جاكيته .

وفى هذا اليوم بقى المرمى مفتوحا حتى فى وقت الغداء .

وقال صاحب المرمى بلهجته البولونية ، وكان جليا أنه يريد أن ينهى الحديث الممل ويصل بالزائر الى الرمى :

— أنصحك أيها السيد أن تسدد الى الراقصة وسوف تراها جميلة تدور .

قال الزبون أيضا :

— انه لمن الغريب — مع ذلك — أنه ما من أحد يعرف شيئا .

وفجأة لاحظ غافريك .

تفحصه بسرعة من رأسه حتى قدميه .

— أنت من هنا يا صبى ؟

قال الصبي بصوت رخي :

ـــ نحن من هنا .

ـ صياد ؟

ـ صياد .

لا داعي لمضايقتك . تعال ولا تخف .

كان غافريك ينظر الى شاربه المعقــوف الأسود والى شريط اللصقة الملتصق على خد الرجل ، فتقدم بخطا وئيدة وقد استبد به الذعر .

١٨

أسئــــلة وأجوبة

ـ لك أب وأم ؟

ـ كلا .

ـ مع من تسكن ؟

مع جدي .

ـ ومن جدك ؟

ـ عجوز .

ـ أعتقد أنه عجوز وليس شابا . ولكن ماذا يعمل ؟

ـ يصطاد السمك .

ـ هو صياد اذن ؟

— أجل انه صياد .
— وأنت ؟
— أنا صبى .
— واضح أنك صبي ولست بنتا . أسألك ماذا تعمل ؟
— لا أعمل شيئا . أساعد جدى .
— اذن تصطادان معا ؟
— نعم .
حسنا جدا . أفهم . وكيف تصطادان ؟
— هكذا . نضع فى الليل الشصوص وفى الصباح نخرج سمك القد .
اذن تذهبان الى البحر بقارب ؟
— أجل .
— كل يوم ؟
— كيف هذا ؟ ماذا تسألنى يا عم ؟ لا أفهم .
— ما أغباك ! أسألك هـل تذهبان كل يوم الى البحـر بالقارب ؟
— طبعا .
— صباحا ومساء ؟
— كلا .
— ماذا كلا ؟

— صباحا فقط .

— وفى المساء .

— وفى المساء أيضا .

— طيب . لماذا قلت صباحا فقط ما دام فى المساء أيضا .

— كلا . فى المساء نضع الشصوص . وفى الصباح الباكر نخرج سمك القد .

— أفهم . اذن فى المساء تذهبان أيضا الى البحر ؟

— كلا . فى المساء نضع الشصوص .

— يا غضب السماء ! لوضع الشصوص يجب أولا أن تخرجا الى البحر .

— حتما !

— اذن فى المساء أيضا تخرجان الى البحر ؟

— كلا ! فى المساء لا نخرج الشصوص . نخرج فى الصباح فقط .

— وفى المساء تذهبان لوضعها فى البحر ؟

— طبعا .

— وفى النتيجة تخرجان فى المساء ؟

— نعم .

— ما أغباك ! يجب أن يأكل المرء الفول قبل أن يكلمك . لماذا أنت غبى ؟

— أنا صغير .

نظر الرجل ذو الشارب الى غافريك من الأعلى بسخرية لم يحاول أن يخفيها . ونقــر على رأسه نقــرة خفيفــة ولكنها محسوسة مع ذلك .

— يا لك من صياد لعين .

ولكن الصبى ما كان غبيا الى الحد الذى تصوره .

فقد تحسس منذ الوهلة الأولى ، فى هــذا الرجــل ذى الشارب عدوا ماكرا خطرا . فهو رجل يجوب الشاطىء ويحاول أن يأخذ معلومات عن البحار ، ويتظاهر بممارسة الرمى . ومن يدرى ماذا فى رأسه ؟ قد يكون من رجال المباحث أتراه سيعرف أن الهارب عندهما فى الــكوخ مختبىء ؟؟ وربما هو فى اثره : يا للداهية الدهياء !!

قرر غافريك أن يتباله ويتغــابى . فالغبى لا يستفاد منه شىء .

فجعل وجهه كما يجب أن يكون حسب رأيه وجــه الأبله وبحلق عينيه بشكل متغاب وأخــذ يطأ الأرض مذعــورا وهو يحك خدشا على شفته بأصبعه .

ولما رأى الرجل ذو الشارب أن أمامه ولدا صغيرا ، عــزم أن يكسب أولا صداقته كى يعترف له بعدئذ .

وقد افترض أن الأولاد فضوليون — وهو على صواب — ويجيدون الملاحظة وأنهم يرون جميــع ما يحــدث أفضــل من الرجال .

- ما اسمك يا صبي ؟
- غافريك :
- حسن جدا ، اذا غافريوخا ؟
نعم غافريوخا .
- حسنا يا غافريوخا ، أتريد أن ترمي ؟

احمر الولد حتى احتقن الدم في اذنيه ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه يمثل دور الأبله فأجاب بصوت رخي :

- ولكن يا عم ليس معي خمسة كوبيكات .

- نعم أعرف أنه ليس معك دراهم . ولكن هذا ليس بذي الشأن . يمكنك أن ترمي مرة وأنا سأدفع عنك .

- يا عم ربما تهزأ بي ؟
- أليست لديك ثقة ؟ هيا خذ ...

وعلى الأثر قام الرجل ذو الشارب ووضع على المنضدة قطعة خمسة كوبيكات جديدة .

- هيا .

استبدت بغافريك نشوة السعادة فألقى على صاحب المرمى نظرة مترددة ، ولكن هذا كان على وجهه تعبير مهيب ينفي كل تبادل النظرات الودية .

نظر الى الصبي كأنما أمامه غريب وسأل بأدب وهو ينحني الى المنضدة :

- ماذا تفضل أيها الفتى : المسدس أم البندقية ؟

واذ ذاك شعر غافريك أنه أبله فعلا : فقد فقد زمام نفسه أمام هذه السعادة التى هبطت عليه من السماء .

ابتسم ابتسامة بلهاء وتمتم بصوت مغمغم :

— مونت كريستو .

حشا صاحب المرمى البندقية بحـركة متصنعة وقدمها الى الصبى .

شخر غافريك بأنفه ثم التصق بالمنضدة وصوب البندقية الى قنينة . حقا ان الدارعة اليابانية كانت تستهويه أيضا ولكنه كان يخشى أن يخطئها بينما القنينة طويلة .

كان الصبى يحاول أن يطيل أكثر ما يمكن متعة التصويب .

وبعد ما صوب بعض الوقت الى قنينة وجه البندقية الى الأرنب ثم الى الدارعـة ثم الى القنينة . كان ينقل الشعيرة من هدف الى آخر وهو يبلع ريقه ويحدث نفسه بخوف بأنه سيطلق وأن هذا الشعور من السعادة سينتهى .

أطلق غافريك من صدره زفرة عميقة ووضع البندقية وقال للرجل ذى الشارب بعد أن ألقى نظرة مـرتبكة على صاحب المرمى :

— كنت أفضل يا عم — ألا أرمى . وعلى كل حال قد صوبت . كنت أفضـل قـدح كازوز وكان هذا سيكلفك أقل ثمنا .

لم يبد الرجل ذو الشارب اعتراضا ، فاتجهـا كلاهما الى

الكشك متحاشيين نظرة صاحب المرمى المزدرية الساخرة .

وهنا أبدى الرجل ذو الشارب كرما ملأ نفس غافريك اعجابا . فبدلا من أن يطلب كازوزا يكلف كوبيكين طلب قنينة كبيرة من « الماء فيالكا » بثمانية كوبيكات .

ما كان غافريك ليصدق عينيه . فقد أخرج صاحب الكشك قنينة بيضاء عليها سمة بنفسجية وفك السلك الدقيق الذى يمسك السدادة .

أحدثت القنينة صوتا ضئيلا — ليس : بق ! قاسيا كما يعمل الكفاس — بل صوتا رخيا ناعما . وفار الماء الصافى وخرجت من فم القنينة رائحة بنفسج لذيذة .

أمسك غافريك القدح البارد الفائر بكلتا يديه باحتراس كأنه كنز ثمين ، وشرع يشرب وهو غمض الجفنين من الشمس بينما كان الغاز اللذيذ يتصاعد الى أنفه .

بلع غافريك مشروب الأغنياء الخيالى هذا وكان يخيل اليه أن الدنيا كلها كانت تعجب لظفره : الشمس والغيوم والبحر والناس والكلاب وسائقو الدراجات ودوامة التسلية وجابية حمامات البحر ... كانوا جميعا يبدون كأنما يقولون : « انظروا ، انظروا الى هذا الصبى الذى يشرب « الماء فيالكا » !

حتى الحرباء الصغير الأزرق الذى خرج من الأعشاب يدفىء ظهره بأشعة الشمس وقد تعلق بصخرة كان يرمق الولد بعينيه المفتوحتين نصف الاغماضة وهو يبدو كأنما يقول :

« انظروا الى هذا المحظوظ الذى يشرب « الماء فيالكا » !

كان غافريك يشرب ولكنه كان فى الوقت ذاته يفكر فى الأكاذيب التى يجب عليه أن يلفقها عندما هم الرجل ذو الشارب بأن يطرح عليه أسئلة مرة أخرى . ونضجت فى دماغه خطة كاملة .

— ماذا يا صاحبى غافريوخا هل هذا « الماء فيالكا » لذيذ ؟

أشكرك يا عم ، لم أذق فى حياتى ألذ منه .

— أعتقد هذا . طيب قل لى الآن : هل ذهبت البارحة مساء الى البحر ؟

— نعم .

— وهل رأيت الباخرة « تورغينيف » ؟

— وكيف اذن ! لقد كادت تكسر شصوصنا بدواليبها .

— ولم يقفز أحد من هذه الباخرة ؟

كان الرجل ذو الشارب ينظر محملقا الى وجه الصبى بعينيه السوداوين اللتين يعلوهما حاجبان كثان . فتصنع غافريك الابتسام وأخذ يتكلم بانفعال مصطنع .

آه ، بلى : أقسم لك أنه قفز ! فقأ الله عينى اذا لم يكن هذا صحيحا ! لقد رأيته يقفز فجأة وأحدث طفرات فى كل اتجاه ثم اذا به يشرع بالسباحة ويخرج يده من تحت الماء .

— انتظر . ألا تكذب ؟ فى أى اتجاه ذهب ؟

– أقسم لك اننى لا آكذب ، أقسم لك بالصليب الأقدس .

كان هذا اثما ولكن غافريك رسم اشارة الصليب على صدره أربع مرات متتالية .

وأخذ الصبى يلوح بيديه ليرى كيف كان البحار يسبح .

– ولكن فى أى اتجاه ؟

– الى هناك .

وقام الصبى باشارة فى اتجاه البحر .

– وماذا صار به بعدئذ ؟

– وبعدئذ التقطه قارب .

– قارب ؟ وأى قارب ؟

قارب كبير كان قادما من آوتشاكوف وله شراع .

– هو من هنا ؟

– كلا .

ومن أين اذن ؟

– من العين الكبيرة ... أو ربما من لوستدورف . كله أزرق ، أزرق والنصف الآخر مدهون أحمر وهو الذى انتشله وبعدئذ ذهب توا الى لوستدروف . أقسم لك بالصليب الأقدس ...

– وهل عرفت اسم القارب ؟

– أجل . « صونيا » .

— صونيا ؟ حسنا جدا ! ولكن ألا تكذب ؟

— أقسم لك بالصليب الأقدس . ابتلانى الله بالشقاء طيلة الحياة اذا لم يكن « صونيا » أو « فيرا » .

« صونيا » أو « فيرا » ؟

« صونيا » أو « فيرا » ... أو « ناديا » .

— انتبه ...

وهنا بدلا من أن يدفع الرجل ذو الشارب ، همس فى أذن البائع بضع كلمات أزعجته وبعدئذ حيا الصبى برأسه وركض بأقصى سرعة الى السفح باتجاه المدينة ، ولا ريب أنه سيأخذ قطار الضاحية .

وهذا ما كان غافريك يحسب حسابه .

١٩

رطل ونصف من الخبز الأسود

كان عليه أن يخطر البحار دونما تأخر .

ولكن غافريك كان ولدا ذكيا يقظا . فقبل أن يعود الى بيته تبع الرجل ذا الشارب من بعيد . فقد تأكد أن الرجل صعد الشاطىء وتوارى فى الزقاق .

وحينذاك أسرع الصبى الى الكوخ .

كان البحار نائما . وما أن صر القفل حتى ارتجف وجلس على السرير وهو يدير وجهه الى الباب بعينين متقدتين بالذعر .

لا تخف يا عم . هذا أنا . اضطجع .

عاد المريض واضطجع .

تحــرك الصـبي طويلا فى أحد أركان الكوخ متظاهرا بالاطلاع على سنارات الشصوص الموضوعة فى سلة من عيدان الصفصاف . وما كان يدرى كيف يبلغ الموضــوع كيلا يفزع البحار .

— وأخيرا دنا منه بعد ما تردد بعض الوقت وهو يحك رجلا بأخرى .

— تحسنت حالك يا عم ؟

نعم .

— أتفهم شيئا ؟

— أفهم .

— ربما تريد أن تأكل ؟

كان المريض قد أضنــاه حتى هــذا الحديث القصير فهــز رأسه وأغمض عينيه نصف اغماضة .

تركه الصبى ينال قسطا من الراحة .

وبعد لحظة قال بوداعة واصرار حنون .

— يا عم ! أنــت الذى قفــزت البارحــة من الباخــرة « تورغينيف » ؟

فتح المريض عينيه ونظر الى الصبى من أسفل الى أعلى بانتباه وتوتر ولكنه لم يجب شيئا .

فأخذ غافريك يتمتم وهو يجلس الى السرير :

— اسمع يا عم ما أقوله لك . يجب ألا تتحرك وابق هادئا .

وقص عليه الصبى بأكثر ما يمكن من الاحتراس قصة الرجل ذى الشارب .

انتفض المريض مرة أخرى وجلس على السرير وهو يتشبث بالخشب ؛ ولم يحد عن الصبى بصره الساكن المحملق . أصبحت جبهته متعرقة ومع ذلك فقد لزم الصمت .

وقد قطع الصمت مرة واحدة : وذلك حينما قال له غارفيك ان الرجل ذا الشارب يوجد على خده قطعة لصقة .

وعند هذه النقطة من الحكاية قال بصوت فيه بحة من بين أسنانه ، وقد لمع تعبير من المكر الأوكرانى الشرس والمرح فى عينيه :

— لعل هرا قد خدشه !

وبعدئذ هم مستندا الى الجدار واستوى على رجليه المترنحتين .

وتمتم وهو يرتمى فى كل اتجاه على غير وعى :

— هيا خبئنى فى أحد الأماكن ... كرامة للاله ...

— يا عم اضطجع فأنت مريض .

-- أعطنى .. أعطنى جاكيتى .. أين حوائجى .. ؟

لعله كان قد نسى أنه رمى ثيابه فى البحر فكان يفتش فى سريره بيده النحيفة ، ولحيته قد طالت فغدا مرعبا كالمجنون فى قميصه الأبيض وكلسونه .

كان يبدو محزنا ورهيبا على حد سواء حتى ان غافـريك كاد يهرب ويطلق ساقيه للريح .

ولكنه كظم خوفه وأمسك المريض بشدة بذراعه وحـاول أن يعيده الى الاضطجاع والصبى يكاد يبكى .

-- يا عم ارحم نفسك واضطجع !

- دعنى أذهب .

-- وأين ستذهب بالكلسون ؟

-- أعطنى حوائجى !

ماذا تقول يا عم ؟ أى حوائج ؟ اضطجع . لم يكن على جسمك ثياب .

-- دعنى سأذهب ...

انها لمصيبة معـك يا عم ، ، لو عـرفت ، يا عم ! انك كالصغير ! أقول لك اضطجع ! لا داعى للعبث معك كالطفل .

هكذا صاح به الصبى بصوت غاضب وقد نفد صبره .

اضطجع المريض طائعا ورأى غافريك أن الحمى قد غشت مرة أخرى عينيه .

كان البحار يخور بهدوء وهو يغضن جبهته ويتمطى .

ـــ كرامــة للمسيح ... خبئــونى ... دعنى أذهــب الى اللجنة ... ألا تعرف أين اللجنة فى آوديسا ؟ لا تطلق يا غضب السماء ، فانك ستسقط كل العنب .

وأخذ يهذى .

فكر غافريك فى نفسه « ان هذا مــا آله شر » . وفى هذه اللحظة سمع وقع خطا كان شخص يتجه الى الكوخ مباشرة عبر الأعشاب وهو يدوس الأرض فتتكسر الأغصان مضوضية تحت قدميه .

انكمش الصبى ولم يعد يجرؤ على التنفس ، لقد سيطرت عليه خواطر مريعة .

على أنه سمع فجأة سعالا معروفا . ودخل الجد الكوخ .

فهم غافريك أن جده سكران وذلك من طريقة رمى الطست الفارغ فى العتبة والتمخط ورسم الصليب على صــدره وقتا طويلا وبسخرية أمام صانع المعجزات .

كان هذا قلما يحــدث له ولا سيما بعد حــادث خــارق للعادة ، محزن أو مفرح .

وفى هذه المرة يظهر من وضعه أمام القديس نيقــولاى انه كانت الحال ليست على ما يرام .

ـــ هل اشتريت لحما للطعم يا جدى ؟

ـــ لحما للطعم ؟

أدار العجوز الى غافريك عينين كئيبتين وآراه بتهكم يده الفارغة .

— ها هو ذا اللحم ! طعم ! وقل شـكرا للعجوز الشحيح هذا القديس . صل لأجل هذا العجوز الأحمق الذى أرجو أن يفطس ! يمكن صيد سمك كبير ولكن بيعه بثمن مناسب قليلا في السوق هيهات ذلك ! لا ، قولوا لى يا سادة ! سمك مثل هذا تباع كل مئة بثلاثين كوبيكا ! أرأيت مثل هذا ؟

صاح الصبى مأخوذا :

— ثلاثين كوبيكا !

— ثلاثين كوبيكا ، قصف الله عمرى اذا كنت لا أقول الحق . أجبتها : « بثلاثين كوبيكا بضاعة مثل هذه ! ألا تخافين الله أيتها السيدة ستوروجنكو ! » فأجابتنى : « نحن عندنا لا يشغل الله نفسه بأسعار السوق . لنا أسعارنا ولله أسعاره . واذا لم توافق اذهب الى اليهود ، فربما أعطوك كوبيكا زيادة ، ولكن ابدأ بتسديد الثمانين كوبيكا التى لى عليك » . أرأيت مثل هذا ؟ ألا يجب أن أبصق فى وجهها ؟ نعم تصوروا هذا يا سادة ، فقد بصقت فى وجهها أمام جميع من فى السوق ، كنت أسخر بها وبصقت عليها . أقسم لكم بالصليب ! لقد رميتها بالبصقة بملء وجهها !

وأخذ العجوز بسرعة يرسم اشارة الصليب على صدره .

غير أنه كان يغالى . لا جرم أنه لم يبصق . فقد اضطرب بكل جسمه وامتقع . وأخذ يرمى السمك فى سلة السيدة ستوروجنكو بحركة متقطعة وهو يشهق : « خذى واختنقى به أتمنى أن يميتك هذا السمك ! » .

أما السيدة ستوروجنكو فقد عدت السمك وقدمت للجد اثنى عشر كوبيكا قطعا صغيرة من البرونز وهى تقول باختصار « لقد سوى حسابنا » .

أخذ الجد الدراهم وقد هزه غضب شديد فقصد على الفور الخمارة واشترى بستة كوبيكات قنينة زرقاء مختومة بالأحمر . نزع الشمع وهو يحك القنينة على مكشط خاص مسمر فى شجرة أكاسيا قبالة الخمارة . وقام بيد مرتعشة واقتلع السدادة المغلفة بورق رقيق .

شرب الخمر دفعة واحدة وبدلا من أن يتناول شيئا من المازة حطم القنينة على الأرض وكان فى وسعه أن يعيدها الى الخمارة ويسترد كوبيكا .

وعاد أدراجه بعد ما اشترى لحفيده ديكا من السكر الأحمر بكوبيك وهذا الديك ملصوق بطرف عود من الخشب — فقد كان يخيل له دائما أن غافريك ما يزال صغيرا — كما اشترى رغيفين صغيرين أبيضين جدا وحارين جدا من مخبز الدير لأجل البحار المريض .

أما بقية المبلغ فقد أنفقه فى شراء رطل ونصف من الخبز الأسود .

وفى الطريق استولى عليه غضب شديد حتى أنه ما كان يتوقف عن البصاق ذات اليمين وذات اليسار ونفسه ملؤها الثقة بأنه يبصق فى وجه السيدة ستوروجنكو الفظيع .

قال وهو ينفخ فى وجه غافريك رائحة الخمرة ويدس فى يده ديك السكر :

— أقسم لك بالصليب الأقدس . يمكنك أن تسأل أى شخص كان فى السوق . لقد رأى كل من فى السوق كيف بصقت فى وجهها القذر . وأنت أيها الصغير كل هذا الديك . انه لذيذ .

وبعدئذ تذكر العجوز المريض فقام يقدم له الرغيفين الصغيرين .

— دعه هادئا يا جدى . لقد نام منذ قليل . يجب أن يستريح .

وضع الجد الرغيفين بهدوء عند رأس السرير وقال بصوت خافت :

— صه ! صه ! فلينم . بعدئذ ، عندما يستيقظ سيأكل . ان خبز الجودار يؤذيه الآن فقد تلفت كل أحشائه . يمكنه أن يأكل الرغيفين . وكفى .

وبعد ما نظر العجوز برضى الى الرغيفين والمريض هز رأسه وقال بحنان :

— انه ينام ولا يحس بشىء . آه أيها البحار ان شؤونك تجرى مجرى سىء !

مد جاكيته على الأرض فى أحد الأركان واضطجع .

خرج غافريك من الكوخ ونظر فيما حوله وأحكم اغلاق

الباب . لقد قرر أن يذهب بدون أن يضيع دقيقة ، الى الطواحين القريبة ، الى أخيه الأكبر تيرنتى .

ان هذا القرار قد خطر له عندما سمع المريض يلفظ فى هذيانه كلمة « اللجنة » لقد سمع تيرنتى ذات مرة يلفظ هذه الكلمة .

٢٠

الصباح

عندما استيقظ بيتيا تملكته الدهشة : لقد وجد نفسه فى غرفة فى المدينة محاطا بالأثاث والأوراق الملونة التى نسيها خلال الصيف .

وكانت أشعة الشمس قد شقت لها طريقا عبر فرجة المصراع وقطعت الحجرة . وكان الهواء المغبر كأنما هو مقطوع بمنشار من أعلى الى أسفل باتجاه قطرى . كانت الجزيئات مضاءة : ذرات غبار وخيطان وصوف تتحرك ومع ذلك هى ساكنة تنتصب على شاكلة حائط نصف شفاف .

اجتازت ذبابة خريفية كبيرة هذا الحائط واذا بها تتلألأ وتغيب حالا .

ما كانت تسمع صياحات البط وصراخات الدجاجة الهيسترية التى باضت وراء البيت ولا ثرثرة الديكة الحبشية

الخرقاء ، ولا زقزقة العصفور العذبة الذى يتأرجح على غصن رهيف مقوس من ثقله لشجرة توت قبالة النافذة .

كانت ضجات مختلفة ، ضجات المدينة تسمع فى الشارع وفى البيت .

وكانت الكراسى تئز أزيزا خفيفا فى حجرة الطعام . وكانت القصعة التى يغسل فيها كأس للشرب ، ترن رنينا موسيقيا . وكان يسمع أيضا الصوت « ذو اللحية » — فى فكر الصبى — للأب ، صوت مذكر يبدو غريبا مختلطا فى المدينة . وكان الجرس الكهربائى يملأ رنينه الدهليز والأبواب تصطفق من وقت الى آخر فى المدخل وفى الدرج ، وكان بيتيا يعرف الباب الذى ينصفق .

وفى خلال هذا الوقت كانت ترانيم البائعين الجوالين لا تنقطع لحظة وتصل من الخارج عبر غرفة تطل على الباحة — آه نعم ، غرفة الخالة . كان هؤلاء الفنانون الجوالون يأتون الواحد تلو الآخر وكل واحد يغنى لحن أوبراه !

كان يأتى من أحد الأمكنة صوت التينور الروسى يبدو كأنما يبكى بسالته الماضية وسعادته الغابرة :

— ف .. ح .. ح .. حم

— فح .. م .. م .. م ..

ويترك المجال لصوت جهورى هزلى لشاحذ السكاكين :

— أشحذ سكاكين .. مقصات .. أمو .. واس . أشحذ

ســكاكين ... مقصات ... أمــو ... واس ... ســكاكين ... مقصات ... أمو ... واس !

ولا يلبث السنكرى أن يظهر بعد الشاحذ فيمــلأ الساحة بصوته الأجش المخملى :

ـ ألحم وأصلح السطول والقدور ! السطول والقدور !

وبعدئذ تبادر بائعة بصوت حاد ترسل فى هواء الصباح الحار فى أوديسا ترنيمة لثغاه :

ـ كمثرى ، تفاح بندورة ! كمثرى ، تفاح ، بندورة .

ويقوم جامع عتيقات كئيب فيترنم بمقاطع يهودية :

ـ ثياب عتيقة ، أمتعة عتيقة ! ثياب ــ يقة ، أمتعة عتيقة !

وأخيرا تكتمل هذه الجوقة اغنية عذبة نابولية تدخل مع أرغن صغير من صنع شركة « نيتشادا » ويرتفع صوت مغنية الشوارع الحاد الصارخ :

بدأ البلبل يشدو أغنيته العذبة
والنسيم العليل يداعب الأوراق
آه ! ما كنت أمس تضعين على راسك منديلا
واليوم ترتدين فساتين الحرير
غن يا بلبلى غن
وخفف لواعج صدرى ..

وما ان يذهب الأرغن حتى ينطلق هذا الصوت :

ـ فحم ، ف .. ح .. ح . م

وتعود الجوقة كما كانت .

وفى الوقت ذاته كان الشارع يرسل الى النوافذ ضجيج عربة ، وضوضاء قطار الضاحية وموسيقى عسكرية .

وبعدئذ نفذ من كل هذا الخليط حفيف مألوف جدا ، لقد حدثت قرقعة وضربت اصوات نابضة واحدا بعد آخر كأنما تعد الشيء . ما هذا ؟ انها الساعة ، ساعة الحائط المشهورة فى غرفة الطعام انها أسطورة العائلة . ان صح التعبير — وقد ربحها بابا فى يانصيب أيام كان هو وماما مخطوبين .

كيف نسيها ؟ نعم انها هى ! انها تحسب الزمن وترن ، ولكن بيتيا لم يتوصل الى متابعة الرنين ، على كل حال ان الوقت قد تقدم : العاشرة وربما الحادية عشرة .

آه يا الهى ! كان بيتيا فى الريف يستيقظ فى السابعة ...

وثب وانتصب على رجليه ولبس بسرعة وغسل وجهه — فى الحمام ! — ودخل غرفة الطعام ، وقد أغشى بصره نور الشمس الساقط على الأرض بأمواج حارة .

صاحت الخالة وكانت تبتسم فرحة لابن أختها الذى كبر واسمر وتهز رأسها :

ان هذا لمخجل حقا ! الساعة الحادية عشرة . تركناك تنام وكنا نريد أن نرى الى أى ساعة ستبقى مستغرقا فى نومك أيها القروى الكسول . طيب لا بأس ! هذا مسموح بعد السفر . اجلس بسرعة أتريد شايا بحليب أم بدون حليب ؟ أتشرب فى كأس أم فى فنجانك ؟

آه نعم ! كيف نسى « فنجانه » ؟ نعم كان له فنجان من البورسلين نقشت عليه الزهور وكتابة : « عيد سعيد » وهى هدية قدمته اليه دونيا فى العام المنصرم .

وها هو ذا السماور لقد نسيه أيضا والكعك الساخن المعلق بأذنيه . واناء السكر الذى من معدن ابيض بشكل الكمثرى والملاقط التى تشبه جسم اللقلق .

ثم الجرس مخروطى الشكل المعلق بطرف خيط تحت المصباح ، والمصباح نفسه مع كرته المليئة برصاص الصيد فوق عاكس النور الأبيض .

ثم ، ما هذا الذى يمسكه بابا بيديه ؟ انها الجريدة ! لقد نسى بيتيا كل النسيان الجرائد ! « اوديسكى ليستوك » مع قاطرتها الصغيرة المدخنة فوق مواعيد القطارات ، وباخرة صغيرة مدخنة فوق مواعيد البواخر . (ثم المرأة ذات الكورسيه وسط الاعلانات) اهه ، اهه و « النيفا » و « زادوشيفنويه سلوفو » . أوه ! أوه ! لقد تراكمت الأعداد أثناء الصيف .

والخلاصة ، ان بيتيا كان يجد نفسه وسط مجموعة من الأحداث القديمة ، قديمة جدا حتى انه ما عاد يعرف أين ينظر .

كان بافليك قد نهض منذ الصباح الباكر وشعر بتآلفه تماما مع الوسط الجديد القديم . لقد تناول فنجان الحليب منذ وقت طويل وهو الآن فى غمرة تكدين جواده كودلاتكا الى عربة الكراسى .

ومن وقت الى آخر كان يجوب الغرف بهيئة مهتمة مناديا المسافرين بصوت البوق .

وفجأة تـذكر بيتيا أحـداث الامس وحتى قفز من وراء الطاولة .

— أوه يا خالتى ! البارحـة لم يكن لدى وقت لأحكى لك ما جرى ! آه ! لو عرفت ما حـدث معنا فـلا تسـتطيعين أن تصدقيه . سأقول ذلك الك حالا ، ولكن شريطة ألا يتدخـل بافليك ..

— ولكننى أعرف كل شىء .

امتقع لون بيتيا بشكل خفيف .

— ما جرى فى العربة ؟

— أعرف ، أعرف .

— وفى الباخرة ؟

— وفى الباخرة .

— وكيف تقفز الى البحر ؟

— أعرف كل شىء .

— طيب ومن قال لك ؟

— فاسيلى بيتروفيتش .

صاح بيتيا بيأس وقد خبط الأرض برجليه معا :

— أوه يا بابا ! من قال لك أن تحكى ما دمت أعرف أن أحكى أحسن منك ! لقد أفسدت كل شىء .

كاد بيتيا يبكى . لقد نسى أنه قد غدا كبيرا وأنه سيدخل المدرسة الثانوية غدا واخذ يتباكى :

— يا خالتى ! سأحكى لك مرة أخرى ، وسوف ترين أن حكايتى أكثر طرافة ومتعة .

ولكن وجه الخالة احمر وترقرقت الدموع فى عينيها وقالت وأصابعها على صدغيها متألمة :

— أرجوك ، أرجوك لا تقل شيئا . لا ، لا أستطيع أن أسمع هذا مرة أخرى بلا اكثرات ان اناسا يطلق عليهم انهم مسيحيون هم سيئون الى هذا الحد فى تعذيب بعضهم بعضا !

واستدارت وهى تنشف انفها بمنديل صغير مزين بالدانتيلا .

ارتاع بيتيا ونظـر الى أبيه وكان والده يلتزم وضعا رصينا وعينـاه تحدجان النافـذة . وكان والـده أيضا — على ما بدا للصبى — تترقرق عيناه بالدموع .

لم يفهم بيتيا شيئا الا انه لا يستطيع أن يتـكلم هنا عن حوادث الأمس .

سـارع الى شرب شـايه وهبط الى الباحـة ليبحث عن مستمعين .

سمع الكناس القصة بدون اكتراث وقال :

— نعم ، هذا بسيط . كثيرا ما يحدث أقوى منه ...

ولم يبق ، أحد ليحكى له . ولسوء الحظ كان نوسيا كوغان ابن عطـار من نفس المنـزل مصيفـا عند عمـه فى خليـج

كوياالنيتسكى . وكان فولوديا ديبسكى قد انتقل والآخرون لم يعودوا من الريف .

وكان غافريك قد ترك خبرا مع دونيا بأنه سيمر اليوم ولم يحضر بعد . آه لو جاء !! ألا ينبغى له أن يذهب لمقابلته على الشاطىء ؟

كان ممنوعا على بيتيا أن يذهب الى شاطىء البحر وحده ولكن شوق نفسه كان شديدا .

دس يديه فى جيوبه ودار بعض الوقت تحت النوافذ بدون مبالاة كى يبعد الشبهة وخرج الى الشارع وتجول بجانب المنزل ثم انعطف وأخذ يركض صوب البحر .

وفى وسط الزقاق الذى توجد فيه الحمامات المائية الحارة تعثر بصبى كان يمشى حافيا . الوجه مألوف .. فمن هو ؟

أوه ! انه غافريك بعينه !!

٢١

أقسم لك بشرفى

— أوه ، غافريك !

— أوه ، بيتيا !

هاتان الصيحتان من الفرح والدهشة انهتا لحظة لقاء الصديقين الحميمين .

لم يتعانقا ولم يتصافحا ولم ينظرا فى عينى بعضهما بعضا كما تفعل الفتيات لو كانت مكانهما .

ولم يتبادلا أسئلة عن الصحة ولم يبديا ابتهاجا صاخبا ولم يضطربا أبدا .

لقد تصرفا تصرف الرجال ، تصرف بحارة البحر الأسود : فقد عبرا عن مشاعرهما بصيحـات تعجـب مقتضبة ومتزنة ، وبعدئذ انتقلا الى الشئون كأنما تفارقا البارحة .

الى أين تذهب ؟

الى البحر .

— وأنت ؟

- الى الطواحين القريبة ، الى أخى !

— ولماذا ؟

— يلزم هذا . تذهب معى ؟

الى الطواحين القريبة ؟

طبعا .

الى الطواحين القريبة ...

ما كان بيتيا قد رأى الطواحين القريبة ، الا أنه كان يعرف أنها بعيدة كل البعد « فى أقصى الدنيا » .

كانت الطواحين القريبة — فى خيـاله — بلاد حـزينة للأرامل واليتامى . وكان وجـود الطواحين القريبة لا يظهر الا عقب مصيبة من المصائب !

وفى أغلب الاحيان كانت هذه الكلمة « الطواحين القريبة » ترتبط بالموت المفاجىء . كان يقال : « يا للمصيبة ! أن زوج أنغليكا ايفانوفنا قد مات فجأة مخلفا اياها بدون مورد وقد انتقلت من شارع مارازليفسكايا الى الطواحين القريبة » .

ومن هناك لم يعد أحد . واذا عاد أحد فانما يعود بمظهر الشبح وليس لمدة طويلة وانما لمدة ساعة على الأكثر .

وكان يقال : « البارحة جاءت انغليكا ايفانوفنا من الطواحين القريبة لزيارتنا وان هذه التى مات زوجها فجأة . قد بقيت ساعة لا أكثر . يشق على المرء أن يعرفها . انها شبح ! »

وذات مرة سمع بيتيا الكاهن يقول كلاما غريبا مفزعا فى جنازة معلم مدرسة مات فجأة . كان يذكر : « بلاد الصالحين التى يجد فيها الأموات الهدوء والراحة » أو شيئا من هذا القبيل .

ولا ريب : أن « بلاد الصالحين » هى الطواحين القريبة حيث ينتهى الأمر بأهل الفقيد بأن يجدوا « الهدوء والراحة ».

كان بيتيا يتمثل تمثلا حيا هذه البلاد الكئيبة وفيها طواحين هوائية عديدة وتهدأ بينها أشباح الأرامل اللابسات السواد والأيتام فى الثياب الممزقة المرقعة .

ولا شك أن الذهاب الى الطواحين القريبة بدون اذن عمل رهيب . انه لأسوأ كثيرا من اختلاس المربى من خزانة الطعام ، أو حمل جرذ ميت الى البيت خفية . انه لجريمة حقا ، وعلى الرغم من أن بيتيا كان يرغب مرافقة غافريك الى المنطقة الساحرة

للطواحين الكئيبة ورؤية أشباح الأرامل بأم عينيه فانه لم يقرر ذلك على الفور .

كان ضميره يخزه طيلة عشر دقائق طوال . لقدكان مترددا .

ولكن هذا ما كان ليمنعه من السير طويلا الى جانب غافريك وهو يحكى له مسترسلا مغامرات سفره .

وهكذا ابتعد الولدان بعدا وافيا بعد النزاع الرهيب بين بيتيا وضميره حينما انتصر بيتيا وسحق ضميره نهائيا .

كانت قواعد الأدب والسلوك توصي أولاد البحر الأسود بأن يقفوا موقف اللامبالاة أمام كل شيء في الدنيا .

ومع ذلك ، خلافا لكل احتمال ، أثرت حكاية بيتيا في نفس غافريك تأثيرا بليغا . ما من مرة لم يكن غافريك يبصق فيها بازدراء ، وما من مرة لم يقل : « وهذه أكذوبة ! » وكان يبدو لبيتيا أن غافريك مرتاع وهذا ما كان يعزوه الى موهبته في الرواية .

كان محمرا كله يصيح وهو يغير ملامح وجهه بشكل حوار دراماتيكي أثناء حديثه عن هذا المشهد الرهيب :

— واذ ذاك ضربه هذا على بوزه ضربة شديدة بعصا في طرفها مسمار ! كلام شرف ، انها لحقيقة حقا ، واذا بالآخر يصيح في الباخرة « تورغينيف » : « قف ! قف ! » ابصق في وجهي اذا كنت أكذب . وحينذاك وثب هذا من السفينة ورمى بنفسه في البحر ، واذا بالبحر يرتفع الى علو أربعة طوابق

قصف الله عمرى اذا لم يكن هـذا صحيحـا وأقسم بالصليب الأقدس !...

كان بيتيا يحرك يديه بشدة ويتحرك حتى قلب سلة خرنوب أمام دكان وبعدئذ أخذ الولدان يركضان بسرعة بمقدار مسافة شارعين هربا من العطار .

سأل غافريك :

ـ وكيف كان هذا ؟ توجد على يده مرساة موشومة ؟

صاح بيتيا فائرا لاهثا :

ـ نعم نعم !

ـ كانت هنا فى هذا المكان المرساة ؟

ـ مؤكدا . ولكن من أين تعرف ذلك ؟

تمتم غافريك وهو يبصق كالرجال :

ـ لقد رأيت بحارة كذلك .

نظر بيتيا الى صديقه نظرة حسد . وبصق بدوره ، ولكن بصقته لم يحسن قذفها وكانت أقل لباقة . فبدلا من أن تنقذف بعيدا سقطت بتراخ على ركبة بيتيا الذى اضطر لمسحها بكمه .

لقد أدرك بيتيا هذا : انها مسألة تدريب . وقد حاول طول الطريق بهمة حتى شفتيه تشققتا فى اليوم التالى وكان هذا يخزه عندما يأكل البطيخ .

قال غافريك :

ـ والآخر كان يلبس خفى سكوروخود ويضع نظارة ؟

ـــ نظارة تعلق بأنفه .

ـــ طيب تعلق بأنفه .

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ أتظن أننى لم أر قط جواسيس ؟

وما أن انتهى بيتيا من حكايته حتى تلسظ وابتـــدأها مرة أخرى .

كان غافريك متألما . ان مغامـــرات بيتيا بالنسبة الى ما كان يعرفه ليست شيئا يذكر ! ما كان لدى غافريك سوى أن يشير اشارة واحدة وأن يقول له أن البحار الآن فى كوخهـــم حتى يطير صواب بيتيا .

ولكنه كان لا بد له من أن يسكت ويسمع ثرثرة بيتيا للمرة الثانية . انها لأمر لا سبيل الى احتماله .

ومع ذلك هـــل يستطيع أن يلمح ؛ كلمـــة صغيرة فقط ؟ لا ، لا ، أبدا ! ان بيتيا لن يتمالك نفســـه عن قول ذلك الى الآخرين . واذا استحلفه بشرفه ؟ لا ، لا ، انه سيفشى السر . طيب واذا طلب منـــه أن يحلف على صليب الكنيسة ؟ لعـــله حينذاك لا يفشى هذا السر بعد هذا القسم العظيم ...

وبعبارة موجزة كان غافريك يتخبط فى لجة الشك .

كان لسانه يحكه ولكنه كان يشد على شفتيه بأصابعه كيلا يفلت لسانه شيئا .

لم يسعفه شيء كان يشعر بحاجة قاهرة لافشاء السر ، وكان

بيتيا خلال ذلك يستمر فى الحكاية بحرارة : كان يصف مشهد العربة ، وظهور البحار المفاجىء الرهيب وهو يخرج من الكرم ويهاجم الحوذى وكان يقول كيف صاح بيتيا فى البحار وكيف اختبأ هذا تحت المقعد ...

لقد طفح الكيل . وما عاد غافريك يملك نفسه :

— احلف بشرفك أنك لن تقول لأحد !

أجاب بيتيا بسرعة وبدون أن يرف طرفه :

— كلام شرف .

— احلف !

— أحلف بالصليب الأقدس الحق ! ولكن ماذا ؟

— سأقول لك شيئا .

— ماذا ؟

— لن تقوله الى أحد ؟

— قصف الله عمرى فى هذا المكان ان فعلت !

— احلف بسعادتك !

قال بيتيا متعجلا وهو يبلع ريقه بدافع الشوق :

— لا أسعدنى الله فى حياتى ان فعلت !

وأردف بسرعة ليعطى كلامه تأكيــدا : فقــأ الله عينى ان فعلت ! ماذا ؟

سار غافريك بعض الوقت صامتا وهو يشخر ويبصق . كان ما يزال يصارع غوايته ، ولكن الغواية انتصرت .

قال غافريك بصوت فيه بحة :

— احلف أمام الكنيسة يا بيتيا .

كان بيتيا الذى يتلهف شوقا لسماع السر يبحث عن كنيسة بعينيه .

وكان الصبيان الصغيران يسران حينذاك أمام المقبرة المسيحية القديمة كانت تظهر من فوق الجدار رؤوس أشجار الأكاسيا وأجنحة الملائكة المرمرية الحزينة وتحت هذا الجدار الكلسى اصطف باعة الأكاليل والتماثيل .

(لقد كان صحيحا أن الطواحين القريبة مجاورة للموت تماما ما دام المرء يمر أمام مقبرة ليصل اليها !)

ووراء أشجار الأكاسيا والملائكة فى السماء ذات لون الليلك الكاشف كانت ترف قبة كنيسة المقبرة الزرقاء .

رسم بيتيا على صدره اشارة الصليب بحماسة وقال بلهجة قانعة وهو ملتفت الى الصليب الذهبى المزدان بسلسلة :

— أقسم بالصليب الأقدس الحق أننى لن أقول لأحد ! فماذا ؟

— اسمع يا بيتيا ...

عض غافريك شفتيه وأصابعه . كاد يبكى .

— اسمع يا بيتيا ... كل التراب واحلف انك لن تقول .

نظر بيتيا بانتباه فيما حوله ورأى فى أسفل جدار ركنا من التراب نظيفا بعض الشىء يصلح لهذه العملية . نكش بأظافره

حفنة ومد لسانه الرطب الوردي مثل قطعة قديد ووضع التراب فوقه . وبعدئذ أدار صوب صديقه عينين محملقتين مستفهما .

قال غافريك بتجهم :

— كله !

أغمض بينيا جفنيه وأخذ يعلك التراب بأكبر همة .

بيد أنهما في هذه اللحظة سمعا على الطريق صوتا خفيفا غريبا .

كان جندياں من المخفر بكتائف سوداء وسيف مشروع يقودان أسيرا مصفدا بالأغلال . وهناك جندي ثالث ، المسدس بيده يمشي خلفهم وهو يتأبط سجلا ذا غلاف رخامي . وكان الأسير يغطي رأسه بقبعة من جوخ الجنود ، ويرتدي قميصا من نفس الجوخ ويبدو تحته كلسون أغبر ؛ وهو يمشي خافض الرأس .

كانت الأغلال التي في رجليه مخفية ويخرج صوتها من تحت الكلسون ولكن السلسلة الطويلة للقيود على اليدين كانت تتدلى من الأمام وتضرب ركبتيه وهي ترن رنينا خفيفا

وكان الأسير من حين الى آخر يرفعها بحركة كحركة الكاهن الذي يعبر رامة .

كان حليقا أصفر الوجه يشبه شبها غامضا جنديا او بحارا .

كان يبدو أنه يشعر بالخجل من السير في رابعة النهار

وسط الشارع بهذا الزى وكان يحاول ألا ينظر فيما حول .

وكان الجنود يبدو عليهم أنهم خجلون أيضا كانوا يتحاشون النظر الى الناس فقد كانت عيونهم تنظر فى الفضاء بحيث لم تلتق نظراتهم بنظرات المارة .

وقف الصبيان فاغرى الفم يتفحصان قبعات الجنود المائلة وأشرطة المسدسات الزرقاء والسيوف اللامعة التى تنوس مع الأيدى وكانت أطرافها تلمع بضوء الشمس .

قال الجندى حامل السجل بصوت جاف وهو لا ينظر الى الصبيين .

مرا ، لا تقفا ! ممنوع التفرج !

مر الأسير وحارساه .

مسح بيتيا لسانه بكمه وقال :

هيا .

ماذا ؟

— قل الآن .

وفجأة ألقى غافريك على صديقه نظرة شرسة ورفع مرفقه المرقع الى فم بيتيا غاضبا .

- خذ ! مص !

ما كان بيتيا يصدق عينيه . وارتعشت شفتاه فقال وهو يكاد يبكى .

ولكنى أكلت التراب .

كانت عينا غافريك تلمعان بمكر وحشي فجئا وأخذ يدور كالدوامة وهو يصيح بصوت جريح :

أيها الأبله قد خدعناك !

أدرك بيتيا أنه قد خدع : لم يكن لدى غافريك سر ليفشيه فقد أراد أن يسخر منه وجعله يأكل التراب . حقا ان هذا مؤلم ولكن ليس كثيرا .

فى مرة أخرى سيفعل لغافريك مثل هذا المقلب . وسيرى !

قال بيتيا باتزان :

— طيب يا وغد ! سوف ترى !

وتابع الصديقان سيرهما كأنه لم يحدث شيء .

ولكن غافريك كان من حين لآخر يعود ويقرع الأرض بقدميه الحافيتين وهو يترنم :

أيها الابلة قد خدعناك !

٢٢

الطواحين القريبة

كان السير مفرحا وممتعا جدا .

ما كان بيتيا يحسب أن المدينة كبيرة جدا . كانت الشوارع المجهولة تزداد فقرا . وفى بعض الأماكن كانت تبدو دكاكين تعرض بضائع على الرصيف .

كانت أسرة حديدية رخيصة ، وفرش مخططة وكراسى تصطف على طول أشجار الأكاسيا الى جانب كومة الوسائد الحمر والمكانس من قش الذرة والفرشايات والنوابض . كان كل شيء وفيرا من الأثاث الكبير والجديد والرخيص دونما ريب .

وبعد المقبرة ابتدأ خط مستودعات الأحطاب الذى كان ينبعث منه رائحة حطب البلوط اللذيذة والحارة والحادة .

وبعدئذ جاء صف مخازن العلف ـ الشوفان والتبن والنخالة ـ مع الموازين الكبيرة المجهزة بسلاسل حديدية . كانت توجد وزنات ثقيلة ـ كما فى السيرك .

ثم جاءت مستودعات أخشاب البناء حيث كانت تجفف ألواح الخشب وهنا أيضا كانت تنتشر رائحة الخشب المنشور الا أنه كان خشب الصنوبر ، فالرائحة ليست حادة ولكنها جافة عبقة تشبه البطم .

كانا كلما اقتربا من الطواحين القريبة برز للأعين أن الدنيا تصبح أكثر قسوة وبشاعة . الى أين انتقلت الأكشاك الجميلة « للمياه المعدنية الاصطناعية » مع دوارها المنكل حيث يعرض عدد كبير من الشرابات من كل الألوان ؟ لقد حل محلها دكاكين مأكولات ذات لافتات زرقاء تحمل سمكة مملحة فى طرف شوكة وخمارات يبدو من أبوابها المفتوحة رفوف مليئة بأباريق شاى بيضاء بيضوية مزينة بأزهار صغيرة مرسومة رسما غير دقيق حتى انها تشبه الحضروات .

وعوضا عن العربات الأنيقة كانت توجد عربات النقل تجرى فى الشارع المبلط بشكل سىء والتبن والنخالة يغشاه .

وبالمقابل كان هذا القسم من المدينة أغنى باللقائط كثيرا . ففى الغالب تعثر العين فى التراب على نعل جواد أو صامولة أو علبة سيكارات .

وعندما كان الولدان يبصران غنيمة كانا ينقضان عليها وهما يتعثران ببعضهما بعضا يتصايحان بأعلى صوتهما :

— الكل لى .

أو أيضا :

— بالنصف :

كان الشىء اللقيط يقسم قسمة دقيقة أو يحتفظ لأحدهما حسب أول صيحة أطلقت .

كانت الغنيمة وفيرة جدا حتى ان الصبيين انتهى بهما الأمر أنهما ما عادا يجمعان شيئا غير علب السيكارات .

كانت هذه العلب تصلح للعب « الورق » : كانت كل واحدة لها قيمة بحسب الصورة التى عليها . كانت صورة الرجل تعادل خمس نقاط والحيوان نقطة واحدة والبيت خمسين نقطة .

كان كل ولد فى أوديسا يحمل فى جيبه كومة من أغطية العلب هذه .

وكانوا يلعبون أيضا بأوراق السكاكر ولكن هذا كانت

الفتيات والأولاد الصغـار ممن لم يتعـدوا الخامسة يقتصرون على ذلك .

أما غافريك وبيتيا فقد كانا يحتقران مربعـات الورق منذ وقت طويل وما عادا يلعبان الا بالورق .

ما كان الناس يدخنون في أحياء الشـاطىء سوى سجائر ماركة « الغجرية » و « السنونو » . فلماذا يفضل مدخنو هذه الأحياء هذه السجائر ؟ انه لسر ! وانها لسجائر مقززة !

وعلى احدى هذه العلب تبدو صورة غجـرية ذات عينين سوداوين : والسيكارة المشتعلـة في فمها القرمـزي ، ووردة حمـراء في شعرها الأزرق القـاتم . وكانت الغجـرية تقـدر قيمتها بخمس نقاط أيضا ولكن بصعوبة لأنها ما كانت مصورة الا بنصف قامتها

أما العلب الأخرى فما كان عليها سـوى ثلاث سنونات ، وكانت قيمتها أقل : ثلاث نقاط فحسب .

كان بعض الناس السخفاء يدخنون سـجائر « النسيم » حيث لا توجد على العلبة أية صورة سوى اسم دخان ولا تدخل في الحساب . ومع ذلك فان هذه السجـائر كانت تباع بثمن أغلى من غيرها .

ما أحمق من يشتري هذه السلعة ، فكان الصبيان يبصقان عندما يعثران على علبة « النسيم » .

كان بيتيا وغافريك يتحرقان وقد نفـد صبرهما : عندما

سيصبحان كبيرين لن يدخنا سوى سجائر « كيرتش » ، انها سجائر عظيمة عليها صورة كاملة : منظر مدينة بحرية ومرفأ فيه بواخر كثيرة .

حتى أحسن الخبراء في الأوراق ما كانوا يعرفون على وجه الدقة كم يجب أن تقدر قيمة « كيرتش » من النقاط لأنه لم يجر اتفاق على تقدير قيمة السفن ، ولكن بصورة تقديرية كان « كيرتش » يقدر بـ ٥٠٠ نقطة فى بورصة الشارع .

وكان للولدين حظ عال .

يمكن المرء أن يظن أن جميع مدخنى حى المقبرة قد راموا خصيصا أن يغنوا الصديقين ، فما كانوا ليدخنوا سوى سجائر « كيرتش » .

لقد أخذا يلهثان لفرط ما جمعا من العلب النفيسة . وقد ظهر هذا لهما فى أول الأمر لا سبيل الى تصديقه ، فكأنما كانا يسيران فى حلم ويجدان ثلاثة روبلات فى كل ثلاث خطوات .

امتلأت جيوبهما . وانها لثروة كبيرة ولكنها ما عادت تفرح قلبيهما : اذ يوجد كثير جدا .

وفى أسفل جدار عال ضيق لأحد المصانع حيث تبرز على القرميد الأسود من الشحار حروف كبيرة لا تمكن قراءتها عن كثب ، أخذ الولدان يلعبان لعبة : « طرة أم نقش » بأوراقهما المربعة .

ولكن الحماسة كانت ضئيلة ، اذا كانا غنيين فما حزنا من الخسارة . اذن أى لذة فى هذا ؟

كانت المدينة تتطاول الى ما لا نهاية وتغير مظهرها فى كل فترة .

فى الأول جاء حى المقبرة والسجون ، وبعدئذ حى التجارة والخمارات ثم المصانع .

واخيرا تسيطر السكك الحديدية على كل المنظر : المستودعات ومحطات المقصات الآلية والشارات والحاجز المخطط الذى يسد الطريق أمام الصديقين .

خرج عامل مقصات السكة الحديدية يحمل علما صغيرا أخضر من كشكه . وسمعت صفرة . ومن وراء الأشجار غيمة صغيرة من البخار الأبيض تنطلق فى الهواء ، وتحت عينى بيتيا وغافريك المسحورين قاطرة كبيرة حقيقية تسير بسرعة القهقرى وهى تدفع عربة فحم .

يا له من مشهد ! ان هذا وحده يستحق أن يذهب المرء لأجله بدون اذن !

كانت الأذرعة الدافعة تتحرك وتدور بسرعة ، وقضبان السكة الحديدية تغنى ، وللدواليب سحر عجيب لا سبيل الى مقاومته ، انها تدور بسرعة مدوخة يغمرها بخار كثيف ولكنه مع ذلك شفاف .

ان النفس المذهولة تشعر باندفاع أرعن ، تجتذبها حركة الماكنة غير البشرية . والجسم يقاوم بيأس الاغراء ويتجمد من الخوف وقد تركته لحظة النفس التى ارتمت تحت الدواليب .

كان الصبيــان واقفين ويداهما مشدودة وساقاهما مفتوحة وهما شاحبان صغيران وعيونهما تلمع وأحسا بأن شعرهما صار باردا .

أوه ! ما أكثر ما يثير هذا من روع وبهجة فى آن واحد !

كان غافريك يعرف هذا الشعور ، ولكن بيتيا كان يشعر به لأول مرة . ففى بادىء الأمر لم يلاحــظ انه بدلا من ســائق القاطرة كان هنــاك جندي بقبعة ذات حافة حمراء يظهر الرأس من النافذة البيضوية بينما كان جندى آخر يحمل حزام الرصاص والبندقية يقف فى عربة الفحم .

وما أن توارت القاطـرة حتى وثب الصبيان الى مسطح السكة الحديدية وألصقا أذنيهما على السكة الحارة الصقيلة من كثرة مرور القطار عليها فسمعا أزيزا كأنه صادر من جوقة .

ان الهرب من البيت بدون اذن والتعرض لأسوأ العقوبات كل هذا ألم يعوض عنه بسعادة لصق الاذن الى السكة الحديدية التى مرت عليها قاطرة حقيقية قبل هنيهة ؟؟

سأل بيتيا عندما استأنفا الطريق بعد ما تمتعا بضجة السكة الحديدية وجمعا صوانات من حصا السكة الحديدية :

- لماذا حل هذا الجندى محل السائق ؟

أجاب غافريك ممتعضا :

- ربما ما يزال عمال السكة الحديد فى الاضراب .

- ماذا يعنى « الاضراب » ؟

— الاضراب يعنى الاضراب . لا يذهبــون الى العمــل . واذ ذاك يقود الجنود القطارات .

أجاب هكذا غافريك وهو متجهم .

— والجنود لا يضربون ؟

— لا ، هذا ممنوع عليهم . اذا فعلوا هذا يرســلون الى سرايا التأديب . هذا كل شيء .

— لولا هذا لقاموا باضراب ؟

— طبعا .

— وأخوك تيرنتى يقوم باضراب ؟

— هذا متعلق ...

— ولماذا يقوم بالاضراب ؟

— لأنه هكذا . اتركنى . يحسن بك أن تنظــر الى محطة شحن أوديسا ثم ها هى ذى الطواحين القريبة .

حاول بيتيا سدى أن يشرئب بعنقه لتفحص الأفــق ، فما كانت هناك أية طاحونة هوائية ولا مائية .

كان يرى : مضخة وحاجــزا أصفــر يحيط بمحطة شحن أوديسا وعربات قطار حمراء وقطار اسعاف عليه راية الصليب الأحمر وركام من البضائع تحت غطاء وحرس ...

— وأين هى الطواحين ؟ أين اذن ؟

— ها هى ذى ، أمامك ووراء ورشات السكة الحديدية . يا غليظ !

سكت بيتيا كيلا ينخدع مرة أخرى .

ولفرط ما لفت رأسه آلمه عنقه الذى يحتك بكنزته ولكنه لم يستطع أن يرى الطواحين .

شىء غريب !!

أما غافريك فما كان غيابها ليبدو له يسبب أية دهشة . كان يسير بخطا خفيفة فى درب بأسفل جدار عال أسود من الشحار قد تخللته نوافذ كبيرة ذات ألواح زجاجية أغلبها مكسور .

بدا على بيتيا الاعياء فكان ينجر وهو يزحلق حذاءه على العشب الذى اسود من الغبار وهباب الشحار . وكانت نشارة الحديد الملقاة من النافذة تتكسر تحت رجله فى بعض الأحيان .

وقف غافريك على أطراف أصابع قدميه ونظر عبر النافذة .

ــ انظر يا بيتيا هذه ورشات السكة الحديدية . هنا يشتغل تيرنتى . أرأيت هذا ؟ تعال وانظر .

وقف بيتيا على رؤوس أصابع قدميه الى جانب صديقه ونظر من لوح زجاج مكسور .

رأى صالة كبيرة مضاءة اضاءة ضعيفة والمربعات الرمادية الصغيرة لنوافذ على الجدار المقابل . وكانت قشاطات عريضة مقوسة وفى كل مكان توجد حدائد كبيرة مملة ذات دواليب وكانت الأرض تغشاها برادة المعادن . وكانت أشعة الشمس

المارة من الزجاج المغبش تلقى على الأرض الفسيحة مربعات نور شاحبة .

لم يكن هناك أحد فى كل هذا المكان الواسع الغريب .

كان الصمت المطلق الساكن يسود المكان من أعلاه الى أدناه . تملك بيتيا الخوف وقال بصوت مذعور :

— لا يوجد أحد ...

تلفظ غافريك بطرفى شفتيه وهو متأثر بدوره :

— حتما انهم مضربون من جديد .

صاح صوت أجش فجأة :

— هيا لا تقفوا تحت النوافذ !

ارتجفا واستدارا عائدين . كان يقف الى جانبهما جندى لف معطفه وحمل البندقية بيده كان قريبا جدا حتى أن بيتيا شم بوضوح رائحة حساء الملفوف الرهيبة والبوية العسكرية .

كان حزام الرصاص المصنوع من الجلد الأصفر الفاهى — ثقيلا مليئا بالرصاص — ويبدو مريعا لعينى الولدين . والجندى نفسه كان يبدو ضخما الى حد أن أزراره البرونزية بصفين ترتفع عاليا جدا الى السماء .

فكر بيتيا وقد جمد الدم فى عروقه من الذعر وهو يحس أن الحادث السيء المخزى الذى يحدث عادة للأولاد الصغار عندما يتملكهم الذعر والخوف قد يحدث معه ، فقال لنفسه « لقد هلكت ! » .

صاح غافريك بصوت حاد وهو ينسل من جانب الجندى ويطلق ساقيه للريح :

— اهرب !

تبعه بيتيا بسرعة الريح وما عاد يشعر بساقيه .

كان يظن أنه يسمع وراءه عدو جزمة الجنـدى فى اثره . فضاعف سرعته وجمع كل قواه ليركض . اشتدت الجزمة تجرى وراءه . كان بيتيا يركض بلا وعى وعيناه مسمرتان فى كعبى قدمى غافريك السمراوين .

كان قلبه يخفق خفقانا شديدا وسريعـا . ما كان الجندى ليدعهما . والريح تصفر فى أذنيهما .

وبعد أن قطع بيتيا فرسخا أدرك أخيرا أن جزمة الجندى لم تكن تجد فى اثره ، انها قبعته المصنوعة من القش قد خرجت عن رأسه وهى تضرب ظهره .

لهث الصبيان لهاثا شديدا . وكان عـرق حار ينصبب من صدغيهما على ذقنيهما تتدلى القطرات .

وما أن تأكدا من أن الجندى قد توارى شـكل الصبيان وجها غير هياب أو مكترث ودسا أيديهما فى جيوبهما وواصلا طريقهما دونما تعجل .

كانا يتظاهران كأن لم يحدث شيء أبدا أو اذا كان قد حدث شيء فهذا أمر تافه لا يستحق أن يجرى الحديث عنه .

سارا طويلا فى شارع عريض غير مبلط . كان يظهر فوق

الأبواب وعلى البيوت فوانيس المدينة وعليها أرقام ولافتات الحوانيت والورشات ، بل كان يسكن للمرء أن يرى فى مفترق الطرق صيدلية وآنيتها الملونة ولافتتها التى يعلوها نسر ذهبى ولكن هذا الشارع مع ذلك كان يشبه أن يكون فى قرية أكثر مما هو فى مدينة .

سأل بيتيا بتراخ :

وأين هى الطواحين القريبة ؟

— وهذه ما هى ؟ أليست هـذه هى الطـواحين القريبة ربما ؟

— أين ؟

كيف هذا أين ؟ هنا .

ولكن أين هنا ؟

— حيث نحن نمشى .

— وأين الطواحين ؟

قال غارفيك متسامحا :

— يا لك من ولد مضحك ! هـل رأيت عينا مكان حى العين ؟ حقا أنت صبى . انك تسأل عن أشياء دون أن تعـرف. ماذا تسأل .

لم يجب بيتيا بشىء . كان غافـريك على حق تماما . هذا صحيح : العين الكبرى والعين الصغـرى والعين الوسطى ، وليس هناك أثر لعين فى هذه الأحياء . انها تسمى هكذا وهذا كل شىء .

كان هذا الحى يسمى بالطواحين ولكنه لا توجد طواحين فيه .

دعك من الطواحين ! ولكن أين أشباح الأرامل والأيتام الصغار الشاحبين وهم فى الثياب المرقعة ؟ والسماء المكفهرة والصفصافات الباكية ؟ والبلاد الخرافية الكئيبة التى لا يعود منها المرء ؟

لا داعى لطرح هذه الأسئلة على غافريك !

لشد ما خاب أمله ، ان بيتيا لم ير أرامل ولا صفصافات باكية ولا سماء مكفهرة . على العكس ، فالسماء حارة زرقاء ملأى بالهواء .

كانت أشجار التوت والأكاسيا تلمع فى الساحات ، وأزهار القرع المتأخرة تلقى بقعا فاهية فى البساتين . وكانت اوزات تمشى على العشب وتدير رأسها خرقاء تارة الى اليمين وتارة الى اليسار كالجنود فى ساحة كوليكوفو .

كانت مطارق تدوى فى مشاغل الحدادين وكان يسمع صوت هواء صادر من كير حداد .

حقا ان هذا كله كان شيقا جدا ولكنه كان صعبا ترك فكرة العالم الوهمى حيث « يرقد » أهل الأشخاص الذين ماتوا ميتة فجائية .

واستعرت نار ثورة فى نفس بيتيا بين الصورة الوهمية للطواحين الخيالية حيث « يرقد الناس » والمشهد الحى لبلدة

عمال القطارات الطواحين القريبة حيث يسكن تيرنتى أخو غافريك .

٢٣

العم غافريك

— تعال هنا !

دفع غافريك برجله الباب ودلف الصديقان الى حديقة جفت فيها أزهار البنفسج وسرعان ما ابتدر الصبيين كلب كبير ذو حاجبين أصفرين .

صاح غافريك :

— صه ، يا رودكو ! ألم تعرفنى ؟

شمه الكلب وعرفه وابتسم خائبا . لقد أزعج نفسه بلا طائل . كان يركض فى آخر الباحة يجر وراءه سلسلة مربوطة بسلك حديدى معلق عاليا وهو يرفع ذنبه ويدلى لسانه وينفخ .

نظرت امرأة مذعورة من باب بيت مطلى بالطين يوجد مثله كثير فى هذه الضاحية .

أبصرت الولدين فقالت وهى تنشف يديها بصدريتها :

— لا أحد ! أخوك جاء ليراك .

برز وراء المرأة رجل ضخم يلبس كنزة مخططة خاصة

بالبحارة كان كساها مقطوعين عند الكتفين الكثيفين مثل المصارعين .

كان تعبير وجهه المنقط المرتبك المتفصد عرقا لا يتلاءم كثيرا مع هيئة جسمه كمصارع . فبقدر ما كان جسمه قويا ضخما بقدر ما كان وجهه يبدو لطيفا حتى ليكاد المرء أن يقول انه وجه امرأة .

شد الرجل حزام بنطلونه وجاء الى الولدين .

قال غافريك وهو يشير برأسه الى صديقه بلا اكتراث :

ــ هذا بيتيا من شارع الحبال فى زاوية ساحة كوليكوفو انه ابن معلم مدرسة . لا بأس به .

أرسل تيرنتى نظرة عابرة الى بيتيا وتأمل غافريك بعينيه الصغيرتين اللتين تلمعان بالمرح .

ــ قل لى أين الحذاء الذى قدمته اليك فى عيد الفصح ؟ لماذا تتجول مثل الشحاذ فى حديقة دوكوف ؟

أطلق غافريك صفرة طويلة كئيبة .

ــ انه بعيد ، ذالك الحذاء ...

ــ يا لك من صعلوك !

هز تيرنتى رأسه محزونا وذهب الى خلف البيت يتبعه الصبيان .

وهناك سحرت نفس بيتيا سحرا شديدا اذ كان هناك معمل ميكانيكى على طاولة مطبخ موضوعة فى ظل شجرة توت ،

وأنبوب للحام مشتعل يخرج من فوهته الضيقة الشبيهة بفوهة مدفع صغير لهب أزرق بنفسجي وقصير .

وعندما يرى المرء حوض التوتياء لتغسيل الطفل مستندا الى الشجرة وأداة اللحم فى يد تيرنتى كان يستطيع أن يستنتج أن رب البيت يشتغل .

سأل غافريك وهو يبصق مثل الرجال :

ـ تشتغل ؟

ـ نعم .

ـ والورشات معطلة ؟

تظاهر تيرنتى بأنه لم يسمع السؤال . فوضع آلة اللحم فى اللهب وأخذ يرقبها بانتباه كيف تتوهج وكان يغمغم فى الوقت ذاته :

ـ لا بأس فى هذا ! كن مطمئنا . سنظل نشتغل عدة اشغال كى نستطيع أن نسد رمقنا .

جلس غافريك على الكرسى وثنى رجليه الحافيتين اللتين لا تصلان الارض ، وأسند يديه الى ركبتيه وأخذ يتأرجح تأرجحا خفيفا ويتحدث مع أخيه الأكبر .

كان غافريك يبلغ أخاه تحيات جده ويحكى له من أسعار سمك القد فى السوق ويحمل على السيدة ستوروجنكو ـ « انها وغدة ، تمسك بخناقنا ، ولا سبيل الى التنفس » وهكذا كان يقول هذا وهو مقطب الوجه ذى الجلد المقشور والحاجبين اللذين حال لونهما من الشمس والملح .

15 -- 4018

كان تيرنتى يوافق وهو يلمس باحتراس بسنقار آلته الحامية حتى درجة الاحمرار ، قطعة من القصدير التى تذوب مثل قطعة الزبدة .

لأول وهلة ما كان هناك من شيء غـريب من زيارة غافريك لأخيه ، والتحدث معه عن شئونه ، ولكن لو تأمل المـرء هيئـة غافريك المهمومة والمسافة التى قطعها لكى يتحدث مع آخيه يدرك بسهولة أن هناك أمرا جللا .

نظر تيرنتى الى أخيـه عـدة مـرات بهيئة مستفهمة ولكن غافريك كان يشير بعينيه الى بيتيـا ويستمر فى الحديث كأن لم يكن شيء .

أما بيتيا فقد نسى كل شيء ، وسـحره منظر اللحم العجيب ، فكان يتتبع حركة المقص الضـخم الذى يقطع صفحة التوتيـا السميكة كأنها صفحة ورق

كان من أحد هوايات صبيان أوديسا التحلق حول السنكرى فى الباحة وتأمل مهارته الغريبة . ولكن هذا غريب ممثل متجول متـعوذ على المسرح : فبعد ما قام بعمله بخفـة وسرعة فلحم الابريق وضع قطع الصفيح الملفوف على كتفه وتناول البـابور وذهب يصيح . « ألحم ، أصلح ! ... »

وهنا كان هذا معروفا ، أخا صديق ، فنانا يظهـر فنه عنده لجمهور ممتاز .

كان يمكن أن يسأل فى أى لحظة : « اسمع ، ماذا يوجد فى

هذه العلبة من الصفيح ؟ حامض ربما ؟ » بدون أن يسمع جوابا خشنا : « اذهب يا صبى من أين اتيت » . كان هذا شيئا آخر .

كان بيتيا يمد لسانه من انبهاره ، ما لا يليق بولد كبير الى هذا القدر ولا ريب أنه لم يقـرر أن يبتعد عن الطاولة لو لم ير فتاة اقتربت من شجرة التوت بين ذراعيها طفل . رفعت البنت بمشقة طفلا ضخما عمره سنة له سنان بيضاوان فى فم أحمـر ، وقدمته الى غافريك :

ـــ انظر قليلا من هنا يا نونو ! هذا غافريك هنا يا نونو ! قل للعم غافريك : « مرحبا يا عم غافريك ! »

دس غافريك يده تحت قميصه بهيئة رصينة فأدهش بيتيا اذ أخرج منه ديكا من السكر فى طرف عود .

قاوم اغراء هذه الحلوى له ثلاث سـاعات ولم يطعمها ولم يرها ، لا بد من ارادة حديدية للقيام بمثل هذه المأثرة ! قـدم غافريك الديك الى الطفل .

ـــ هاك أمسكه !

سارعت الفتاة وقدمت الطفل الى مقربة من الديك قائلة :

ـــ خذه يا جينتشكا ، خذه بيدك . أرأيت أى شىء لذيذ جلب لك عمك . خذه ! وقل له الآن : « شكرا يا عمى ! » يجب أن تقول « شكرا يا عمى ! » .

كان الطفل يمسـك بشدة بيده الصغيرة المطبلجة والملوثة ، العود والسكرة فى طرفه تلمع ، ويطلق فقاعات لعاب وهو يحدج عمه بعينيه الصغيرتين الزرقاوين الخاويتين من كل تفكير .

كانت الفتاة تقول وهى لا تحيد ببصرها النهم عن قطعة الحلوى :

ــ أرأيت كيف يقول : « شكرا يا عمى ! » لماذا تضعه فى فمك ؟ انتظر . يجب أن تلعب معه أولا . وستأكل حساءك وبعدئذ يمكنك أن تأكل الديك ... هكذا أردفت الفتاة بهيئة عاقلة وهى لا تفتأ تلقى نظرات فضولية سريعة على الولد الصغير الجميل الغريب الذى ينتعل حذاء جديدا له أزرار ، ويضع على رأسه قبعة من القش .

قال غافريك :

ــ هذا بيتيا من شارع الحبال فى زاوية ساحة كوليكوفو . هيا العبى معه يا موتيا .

امتقع لون الفتاة من الارتباك والانفعال .

ضمت الطفل اليها وتراجعت وهى تنظر الى بيتيا خلسة ؛ ولم تقف الا عندما شعرت أنها قد التصقت بفخذ أبيها .

مسح تيرنتى على كتفها وركز القلنسوة البيضاء الموشاة بالدانتيلا على رأسها ذى الشعر الحليق وقال :

ــ هيا يا موتيا العبى مع الصبى وأريه الصور الروسية اليابانية التى اشتريتها لك عندما كنت مريضة . هيا ابنتى ان ماما ستهتم بجينتشكا .

احتكت موتيا بفخذ أبيها ورفعت وجهها المضرج بحمرة الخجل وكانت عيناها تترقرقان بالدمع وقرطان صغيران من الفيروز ينوسان فى أذنيها .

كان بيتيا يعرف ان هــذين القرطين كثيرا ما تتحلى بهمــا بائعات الحليب .

ــ لا تخافى يا صغيرتى . ان الصبى لن يضربك . فلا تخافى .

ذهبت موتيا تحمل الطفل الى البيت مطيعة ، وعادت مستقيمة القامة مثل العمود ووجنتاها غائرتان وهى رصينة بشكل شديد .

وقفت على مقربة من بيتيا وهى تتنفس بملء رئتيها وقالت بصوت رقيق غير طبيعى مغمغمة وناظرة جانبا :

ــ يا صبى ، هل تقبل أن أريك صورى الروسية اليابانية ؟

أجاب بيتيا بصوت فيه بحة وهو الذى كان يجب ــ بحسب قواعد اللياقة ــ أن يستعمله فى الحديث مع الفتيات . وفى الوقت ذاته بصق بشىء من البراعة دونما اكتراث .

ــ نعم .

ــ تعال يا صبى .

أدارت الفتاة ظهرها الى بيتيــا بشىء من الــدلال وغنجت بكتفيها وسارت بمشية وثابة فى آخر الباحة وراء سرداب حيث كانت تضع دماها .

كان بيتيا يتبعها بخطى متراخية . كان يشعر بانفعال شــديد حتى ان ساقيه ما عادتا تقويان على حمله عندما رأى عنقها النحيل حيث كانت تبرز فجوة وذؤابة صغيرة من الشعر .

حقا انه لا سبيل الى القول أن هذا قد كان حبا عارما . بيد أنه لا يسع المرء أن يشك فى أن هذا ينتهى نهاية غرامية .

٢٤

حب

ان بيتيا ــ والحق يقال ـــ قد أحب الفتيات كثيرا فى حياته . واذا كان فى بادىء الأمر قد هام حبا بالسمراء فيروتشكا التى تعرف عليها فى العام الماضى عند شجرة رأس السنة لزميل لبابا . فقد أحبها ليلة بطولها . وكانا قد جلسا جنبا الى جنب الى الطاولة وبعدئذ ذهب يدب فى الظلمة تحت شجرة رأس السنة المطفأة على الأرض المزحلقة بسبب الابر الساقطة من الشجرة .

كان الحب شديدا من أول نظرة ، فشعر بيتيا باليأس يخيم فى قلبه عندما حانت الساعة الثامنة والنصف وأراد والد الفتاة أن يأخذها . فطفق يبكى عندما رأى جدائل فيروتشكا وأشرطتها الحريرية تغيب تحت معطفها .

كان قد أقسم أن يحبها حتى الممات ، وقدم اليها ــ كذكرى ــ المندولين المصنوع من الورق المقوى الذى حصل عليه من شجرة رأس السنة وأربع جوزات : ثلاث ذهبية وواحدة فضية .

الا أنه بعد يومين لم يبق من هذا الحب سوى الحسرة المريرة على المندولين الذى أضاعه لدون سبب معقول .

وبعدئذ ، نعم ، حقا هناك فى الريف أحب زويه التى كانت تلبس جوربا ورديا مثل الجنية . وكانا قد تعانقا بجانب جرة

الماء فى ظل شجرة المشمش . ولكن هذا الحب كان خطأ : ففى اليوم التالى غشت زويه فى الكروكيت فاضطر الى ضربها بمطرقة اللعب على رجليها وبعدئذ لم يعد هناك حب .

وكان أيضا العشق الآنى للفتاة الجميلة التى رآها على ظهـر الباخرة فى الدرجة الأولى وهى التى كانت طيلة الوقت تجـادل أباها اللورد غلينارفن .

ولكن هل هذا أمر جدى ؟ من لم يشعر بمثل هـذا الشوق العابر !

على أن موتيا كانت على خـلاف ذلك . فهى ليست فتـاة فحسب ، وليس لها قرطان أزرقان فحسب ولم تمتقع وتحمـر وتحرك كتفيها الناحلين بسحر لا حد له فحسب ، انها فضلا عن ذلك أخت رفيقه . وليست أخته ــ بالمعنى الصحيح ــ بل ابنة أخيه .. الا أنها بالنسبة لعمـر غـافريك كأخته ، أخت رفيقه ! هل يستطيع المرء أن يجد فى فتاة شيئا أجمل وأحسن من هذه الصفة بأنها أخت رفيقه ؟ أليس فى هـذا بذرة لحب لا منـاص منه .

شعر بيتيا باستسلامه لحبها ، فحينما وصلا الى السرداب ، أصبح عاشقا متيما .

وكيلا يظهر هذا لموتيا سرعان ما تظاهر الصبى بعدم المبالاة ، والكبرياء .

أخذت موتيا تريه دماها بأدب وهى ممددة فى أسرتها ، وأرته

فرنا صغيرا عليه قدور حقيقية ولكنها صغيرة ، صنعها لها والدها من بقايا التوتياء وهذا ما أعجب بيتيا كثيرا ، ولكنه مع ذلك بصق من بين أسنانه بهيئة مزدرية وسأل بضحكة صغيرة جارحة :

— يا موتيا لماذا رأسك حليق ؟

قالت موتيا بصوت رقيق متأثر من الاهانة وتنهدت كزفرة الطائر الصغير .

— كنت مصابة بالحمى التيفوئيدية . هل تريد أن ترى الصور ؟

قبل بيتيا بتنازل .

جلسا على الأرض جنبا الى جنب وأخذا يتفرجان على الصور الوطنية الملونة وأغلبها معارك بحرية .

كانت الأشعة الضيقة من عواكس النور تشق السماء الزرقاء فى جميع الاتجاهات وصوار مكللة بالاعلام اليابانية تنهار . وكانت تشتتات الانفجارات تنبجس من الأمواج . وكانت القنابل المحشوة بالشيموزا تنفجر فى الفضاء مثل النجوم .

كانت احدى الطرادات اليابانية تغرق ومقدمتها الحادة مرتفعة الى السماء ، وهى طعمة للنيران الصفراء والحمراء . وكان رجال صغار صفر يتساقطون فى الماء الفائر .

كانت الفتاة تتمتم مسحورة وهى تزحف على ركبتيها أمام الصورة قائلة :

ــ يابانيون صغار :

صحح بيتيا لها القول بصرامة وهو على معــرفة بالسياسة ، قائلا :

ــ ليسوا يابانيين صغارا وانما يابانيون قذرون يجب القول .

وفى الصورة الثانيــة قوزاقى شــجاع بشريط أحمــر على سرواله وقبعة فرو سوداء تسيل الى آذنه يجدع أنف يابانى يخرج رأسه من وراء جبل .

كانت دفقة قوية من الدم تتــدفق من اليابانى وكان أنفــه الافطس البرتقالى المثقوب ثقبين أسودين مرميا على الجبل مما أضحك الولدين .

قال بيتيا وهو يقهقه ويضرب بيديه الأرض الجــافة الحارة والمرقشة بنجوم صغيرة من روث الدواجن .

ــ لا تدسى نفسك ! لا تدسى نفسك !

فكررت موتيا مستعجلة وهى تنظــر الى الصبى الجميــل خلسة .

ــ لا تدس نفسك !

وجعدت أنفها الدقيق الأسمر المنقط كأنف غافريك .

وكانت الصورة الثالثة تمثل نفس القوزاقى ونفس الجبل . وكانت تبدو طماقات اليــابانى وهو يولى الادبار والأســطورة تقول :

الجنرال اليابانى نوغى

يا ابتاه
هرب من الروس بشق النفس
يا أماه !

كانت موتيا تصيح وهى تلتصق بكل ثقة ببيتيا :

– لا تدس نفسك ! لا تدس نفسك ! صحيح ، يجب ألا يدس نفسه !

كان بيتيا متجهما وقد تضرج بحمرة الخجل ، صامتا محاولا ألا ينظر الى ذراع الفتاة النحيل الذى تلمع فيه ندبتان ورديتان من أثر التطعيم .

لقد فات الأوان ! فالحب قد ملأ شغاف قلبه !

وحينما أبصر أن موتيا لديها علاوة على الصور الروسية اليابانية، جوزات للعب فى لعبة « الملك والأمير » وأوراق سكاكر حتى مربعات من الورق المقوى ، بلغ الحب بيتيا أوجه .

آه ما أجمله من يوم سعيد وبديع وفريد ! ان بيتيا لن ينساه مدى الحياة !

ود لو يعرف كيف يثبت القرطان فى الاذنين فأرته الفتاة الثقبين اللذين فى أذنيها وقد ثقبتا منذ وقت قريب . وقد تجرأ بيتيا أن يلمس حتى شحمة أذن موتيا ، انها لينة ومنتفخة قليلا مثل لب المندرين .

وبعدئذ لعبا بمربعات الورق المقوى . وقد ربح بيتيا الكل ، ولكنه أمام وجه الفتاة التعس أشفق عليها فأعاد اليها المربعات

التى خسرتها وأضاف اليها بأريحية مربعاته أيضا . كانت تستطيع أن تقدر مدى أريحيته !

وبعدئذ جمعا عيدانا جافة وقطعا من الخشب وأوقدا الفرن . أخرج هذا كثيرا من الدخان ولم يخرج نارا . فتركا هذه اللعبة ليلعبا بلعبة التخبئة .

كانا يأويان الى أركان بعيدة مظلمة ليختبئا ، بيد ان الخوف كان يستولى على نفس من يبقى وحيدا .

ولكن ما أعظم الفرحة حينما يسمع أحدهما الخطى المحترسة تقترب منه فيشد فمه وأنفه بيديه فى المكمن كيلا يثير الانتباه !

القلب يخفق خفقانا شديدا . والأذنان تطنان بقوة .

وفجأة يظهر نصف وجه بيضوى شاحب من الاضطراب ذى شفتين مزمومتين ، وهو يتقدم شيئا فشيئا ببطء من وراء زاوية . الأنف صغير مقشور والعين مستديرة والذقن حادة والقبعة موشاة بالدانتيلا .

وتلتقى العينان ويشعر الاثنان بالذعر حتى ليكادان أن يغمى عليهما ، وسرعان ما تنطلق صيحة الظفر شديدة .

ــ بيتيا ! رأيتك .

فيطلقان كلاهما ساقيهما للريح الى الهدف .

وذات مرة كمنت الفتاة بعيدا جدا حتى بيتيا ظل نصف ساعة قبل أن يفكر بتسلق السياخ ليذهب ويبحث فى المرج .

كانت موتيا جاثئة مضطربة من الخوف ، فى حفرة كانت تنبت

فيها نبتة الجريس ، وكانت ذقنها النحيلة مستندة الى ركبتيها المكشوطتين وهى تنظر الى السماء حيث تحلق غيمة مذهبة من شمس الأصيل .

وكانت الصراصر فيما حولها ترن والأبقار تضرب الأرض بحوافرها . كان يسيطر عليها قلق غريب .

نظر بيتيا فى الحفرة . وحدج الولدان بعضهما بعضا طويلا وهما مضطربان اضطرابا شديدا وقد تملكهما خجل لم يكن خجل اللعب .

ود بيتيا لو يصيح : « رأيتك يا موتيا ! » ولكنه ما استطاع أن ينبس ببنت شفة . كلا ، حقا لم يعد هذا لعبا ، وانما هو شيء يختلف كل الاختلاف .

خرجت موتيا من حفرتها باحتراس وعادا الى الباحة مضطربين لكنهما تظاهرا كأنما لم يحدث شيء غريب وهما يتدافعان بالمناكب دون أن يمسكا يدى بعضهما بعضا .

كان ظل الغيمة يزحف ببرودة على زهور مرعى المدينة .

ولكن بعد ان اجتازا سياجا افاق بيتيا :

صاح الصبى الخبيث بأعلى صوته :

ــ رأيتك .

وانطلق الى الهدف ليسبق الفتاة المبهوتة .

كل هذا كان غريبا للغاية وجذابا جدا حتى ان بيتيا لم ينتبه الى غافريك الذى بلغه فى اللحظة التى بلغت فيها اللعبة أوجها .

سأل غافريك مهموما :

ــ يا بيتيا ! ما اسم البحار ؟

ــ أى بحار ؟

ــ البحار الذى قفز من الباخرة « تورغينيف » .

ــ لا أعرف ...

ــ ولكن بلى . لقد قلت لى ان الجاسوس ذا الشاربين قد ذكر اسمه .

ــ آه نعم ... جوكوف ، روديون جوكوف . دعنا نلعب .

ذهب غافريك مشـــغول البـــال وسرعان ما نسيه بيتيا وقد استغرقه حبه الجديد .

وبعد قليل جاءت أم موتيا تناديهما للعشاء .

ــ يا موتيا ادعى صـــاحبك ليأكل حساء معنـــا ، حتما ان السيد قد جاع .

خجلت موتيا وامتقع لونها ونصبت قامتهـــا وقالت بصوت مختنق :

ــ يا صبى هل تريد أن تأكل حساء معنا ؟

كان بيتيا قد أحس بالجوع اذ أنه لم يتغد !

لم يأكل أبدا حساء لذيذا وكثيفـــا كهذا ، وقد كانت قطع البطاطا تبعث رائحة وكذلك قطع لحم الخنزير .

وبعد هذا العشاء الجميل فى الهـــواء الطلق وتحت شـــجرة التوت ، عاد بيتيا وغافريك أدراجهما .

رافقهما تيرنتى . دخل البيت هنيهـة وعاد يلبس جاكيتـه القصير وقبعته ذات الزر الصـغير . كان يمسك بيده عصا من الحديد كانت لمظلة ، تماما مثل العصى التى يحملها عـادة عمال أوديسا فى ايام الأعياد

قالت زوجته له بلهجة ضارعة وهى ترافقه الى الباب :

ـ لا تذهب يا تيريشا ، فقد حل الليل .

نظرت اليه بهيئة قلقة جدا حتى ان بيتيا تأثر لذلك .

ـ ابق فى البيت ، لا نعرف أبدا ..

ـ لى شغل .

قالت مذعنة :

ـ كما تشاء .

غمز تيرنتى بعينه فرحا :

ـ كل شىء سيكون على ما يرام !

ـ لا تمر أمام محطة الشحن .

ـ لا حاجة الى قول هذا لى .

ـ موفق !

ـ مع السلامة .

وسار تيرنتى والصبيان على الطريق الى المدينة .

لم يكن نفس الطريق . كان تيرنتى يمر بساحات خالية وأزقة وبساتين . كان الطريق أقصر والمارة فيه قليلون .

وفجأة وصلوا الى ساحة التبن التى يعرفها بيتيا خير معرفة .
قال تيرنتى لغافريك :

ـــ سآمر عليكم اليوم على أبعد تقدير .

وحنى رأسه قليلا وغاب بين الجمهور .

كانت الشمس قد غربت وأشعلت المصابيح فى الحوانيت

شعر بيتيا بالخوف : ماذا سيلقى فى البيت ؟

انتهت السعادة ! وحانت ساعة القصاص . كان بيتيا يحاول ألا يفكر بذلك ، ولكن هذا مستحيل !

يا الله ! ماذا صار بحذائه الجـديد ؟ والجـوارب ؟ ففى الصباح لم تكن هذه الثقوب فى ركبتـه . ويداه ماذا يقال عن يديه ؟ يدا صـانع أحذية ! وآثار الزفت على خديه . يا ربى ! يا ربى !

حقا سيكون الأمر مريعا فى البيت .

ثم اذا ضرب فلقـة ، ولـكن لا ، لن يضرب . لسوف يئن ويتنهد ويقول كلمات مؤثرة ولكنها حقة .

ولسوف يمسك به بابا من كتفيه ويهزه بكل قواه صائحا :

ـــ « يا رذيل أين تسكعت ؟ ان هذا الصبى سيميتنى ! »
وهذا أسوأ كثيرا من الفلقة .

هذه الخواطر المحزنة وأمثالها أغـرقت بيتيا فى لجـة حزن عميق ، وقد زاده شرا الحسرة الأليمة على مربعات الورق المقوى التى أعطاها بغباوة الى أول فتاة قادمة خلال فورة هواه !

٢٥

« لقد سرقونى »

كان يبدو لبيتيا أنه لا سبيل هناك الى تحاشى العاصفة ، الا انه لم يكن من العبث وجود قلتين فى رأسه بدلا من قلة واحدة ، كما يكون عادة لسائر الأولاد وهذا يؤلف ـ كما هو معروف ـ علامة للقدر . لقد مد القدر الى بيتيا حبل انقاذ على غير انتظار .

نعم ، انه ما كان ينتظر هذا !

فعلى مسافة قريبة من ساحة التبن ، فى شارع ستاروبورتو فرانكوفسكايا ابصر بيتيا بافليك يركض ويتعثر كان الولد وحده .

كان وجهه الملوث يفيض بالدموع . وكان لسانه الصغير يرتعش فى فمه المفتوح على اتساعه . وكان المخاط الناعم يسيل من أنفه .

كان يصيح صوتا واحدا «آ» ولكنه لما كان لا يفتأ يركض كان يصل المسامع اصواتا مختلفة وثابة : « آ! آ! آ! آ! آ! آ! » بدلا من (آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ) متصلة .

ــ بافليك ؟

أبصر الطفل بيتيا فركض اليه وتعلق بيديه بجاكيته ، كان يصيح وهو مضطرب وصوته مختنق من الاضطراب :

ــ يا بيتيا ! يا بيتيا ! يا بيتيا !

سأل بيتيا بصرامة :

ــ ماذا تفعل هنا يا أزعر !

بدلا من أن يجيب أخذ يفهق غير قادر على ان يلفظ كلمة :

ــ اسألك : ماذا تصنع هنــا ؟ أين تتسكع يا أزعر ؟ هــذا الولد سيميتنى ! اسمع ... سأضربك على بوزك لأعلمــك كيف يكون سلوكك .

أمسك بيتيا بافليك من كتفيه وأخذ يهزه حتى أخذ بافليك ينتحب من خلال فهقاته :

ــ لقد .. هى .. لقد سر .. قونى !

وعاد وغرق فى بكائه .

ماذا حدث ؟

لم يخطر لبيتيا وحده أن يقوم بجولة حرة غــداة وصوله . لطالما دغدغ نفس الحلم خاطر بافليك .

ما كان ينوى أن يمضى بعيدا كما فعل بيتيا ، كان يريد فقط أن يقوم بجولة قرب حفرة القاذورة ويصــل الى الركن ليرى الجنود يقدمون السلاح .

ولسوء الحظ وصــل الى الساحة فى نفس الوقت فانــكا روتوتو أو بعبارة أخرى قره قوز .

شهد بافليك مع سائر الأولاد مشهد العــرض الذى بدا له قصيرا جدا . وراجت الشــائعة بأن المشــهد سيكون أطول فى الساحة المجاورة .

تبع الأولاد قره قوز الى الباحة الثانية . ولكن المشهد كان أقصر أيضا . فقد انتهى بحركة من فانكا روتوتو — وهو دمية تلبس قبعة وله أنف طويل مثل قرن الفليفلة وعنق مشلول — الذى يقتل الدركى بضربة من هراوته . كان الجميع يعرفون ماذا سيتلو : مسخ رهيب — نصفه بطة والنصف الآخر تمساح — عليه أن يمسك بأسنانه رأس فانكا زوتوتو ويؤدى به الى جهنم .

كان هذا المشهد ملغى . ولا ريب أن الجمهور رمى قطعا قليلة من النقود من النوافذ . كان هذا سيجرى أفضل فى الباحة التالية لا ريب فى ذلك .

انبهر الأولاد وعلقت عيونهم بنهم السلة السرية التى تخفى الدمى فكانوا ينتقلون من باحة الى باحة فى اثر المرأة المبرقشة التى تحمل على ظهرها أرغنها ، وفى اثر الرجل الذى كان يسير حاسر الرأس وهو يتأبط ستاره .

استبد الفضول ببافليك فأخذ يجرى بساقيه الصغيرتين القويتين مع جمهور الأولاد ، مد لسانه وحملق بعينيه الكستنائيتين ذاتى البؤبؤين الأسودين الكبيرين ونسى كل شىء : خالته وأباه حتى كودلاتكا الذى لم يكلف نفسه أن يضعه فى الاصطبل ويعلفه جيدا تبنا وشعيرا .

فقد الولد معنى الزمن ولم يدركه الا عندما لاحظ أن المساء قد حل وأنه ما يزال يلحق الأرغن فى شارع مجهول . كان

الأولاد قد عادوا منذ وقت طويل وبافليك بقى وحده . والمرأة المبهرجة والرجل ذو الستار يغذان السير ولا شك أنهما يجدان فى العودة . شق على بافليك أن يتبعهما . صارت المدينـــة مألوفة قليلا وأكثر ريبة وخيل الى بافليك أن الرجـــل والمرأة يتبادلان أحاديث رهيبة بصوت خافت .

وحينما انعطفـــا فى ركن من الشـــارع التفتا فجأة فرأى بافليك بقلق أن المرأة تدخن سيكارة . هذا شيء مريع ! وخطرت فكرة ارتجف لها : أن جميع الناس يعرفون أن عازفى الأرغن يحبون اجتذاب الأولاد ليخطفوهم ويشـــوهوا أيديهم وأرجلهم ويبيعونهم للبهلوانات .

أوه ! كيف نسى هذا ؟ ان جميع الناس يعرفونه كما يعرفون أن سكاكر الأخوين كراخمالنيكوف سامـــة وأن بائعى المثلجات المتنقلين يصنعـــون بضـــاعتهم من الحليب الـــذى استعمل فى حمامات المستشفيات .

ما عاد لديه من شك فالغجريات وســـارقات الأولاد فقط يدخن السيكارات . انهما سيمسكان به ويكمان فمه ويحملانه الى مكان فى ضاحية رومانوفكا ليشوهوا يديه ورجليه ويجعلان منه بهلوانا صغيرا .

انفجر بافليك فى البكاء ولاذ بالفرار يركض حتى لقى بيتيا على غير انتظار .

وبعد ما وبخ بيتيا أخاه اقتاده الى البيت حيث كان الذعر

يملأ أرجاءه .كانت دونيا وقد لبست تنورتها القطنية الموسوسة ، تجرى من باحة الى أخرى . وكانت الخالة تدلك صدغيها بعــود الصــداع ، والأب خرط معطفــه الصيفى ليذهب الى مخفــر الشرطة ويبلغ عن غياب الولدين .

عندما رأت الخالة بافليك سليما صحيحا انقضت عليه وهى لا تعرف أتبكى أم تضحك .

وطفقت تبكى وتضحك فى وقت واحــد ، وفجأة أخــذت تضرب الهارب وبعدئذ أخذت تقبــل وجهه الباكى وثم عــادت تضربه .

وجاء دور بيتيا فالتفتت اليه الخالة مهددة :

ــ وأنت يا صديقى ؟

صاح الوالد وهو يمسك الصبى من كتفيه :

ــ وأنت أين كنت تتسكع يا أزعر !؟

أجاب بيتيا بانكسار :

ــ كنت أبحث عن بافليك . لقد طفت المدينــة كلهــا حتى عثرت عليه . فلعلك تشكرنى . ولولاى لاختطف زمنا طويلا .

وهنا لفق بيتيا حكاية جميلة : فقد طارد عازف الأرغن الذى هرب عبر الساحات ذات المخرجين . ثم انتهى به الأمر أن أمسك الرجل من تلابيبه واستدعى الشرطة فاستولى الفزع على عازف الأرغن فأفلت من بافليك وولى هاربا .

ــ ولولا ذلك لاقتدته الى مخفر الشرطة . أقسم لك

ولم يتوقع بيتيا هذا ، اذ لم تلق حكايته نجاحا يذكر . فقد أشاح الوالد بوجهه قائلا : « حسبك هذرا ألا تخجل من هذا لقد أرهقتني ! » ولكن لا سبيل الى قول شيء : فبيتيا هو الذي عثر على بافليك ضائعا . وهـكذا نجـا بيتيا من هذه الورطة ، وخلص من بهدلة فظيعة .

ولم يكن عبثا أن له قلتين فى أعلى رأسه .

... وفى أثناء ذلك كان غافريك قد دلف الى كوخه . كان الجد والبحار فريسة انفعال شديد . وقبل ذلك بقليـل جاءت لجنة بلدية ـ على ما تزعم ـ لتتحقق من رخصـة الصيد . كانت الأوراق نظامية .

سأل رجل يحمل محفظة وهو يرى البحار مستلقيا :

ـ ومن هذا الرجل ؟

وكان الجد مترددا ، فأردف الرجل :

ـ هل هو مريض ؟ اذا كان مريضـا فلماذا لا تأخـذه الى المستشفى ؟

أجاب الجد وهو يتظاهر بعدم اكتراث مرح :

ـ لا ، ليس مريضا ، انما هو سكران .

ـ آه ! هو سكران ؟ هل هو ابنك ؟

ـ لا .

ـ غريب ؟

ـ ولكن قلت لك يا صاحب السمو : انه سكران !

ــ فهمت أنه سكران ولكن من أين جاء اليك ؟

غمغم الجد وهو يتظاهر بأنه عجوز خرف :

ــ كيف من أين جاء ؟ سكران ، معروف ما معنى سكران ، كان على الارض فى الاعشاب هذا كل شىء !

تفحص الرجل البحار بامعان :

ــ كان على الأرض فى الاعشاب فى الكلسون فقط ؟

ــ كان هكذا .

صاح الرجل وهو يميل على البحار :

ــ يا هذا ، انفخ !

تظاهر جوكوف بأنه لم يسمع شيئا ، التفت برأســه صوب الجدار وغطى رأسه بالوسادة .

قال الرجل وهو يحدج الجد بصرامة :

ــ سكران ، ومع ذلك لا تفوح منه رائحة الخمرة .

وأردف :

ــ خذ حذرك .

وهنا انسحبت اللجنة .

هذه الحكاية لم توافق مزاج غافريك .

عندما مر أمام المطعم أبصر أمام طاولة صغيرة رئيس قسم الشرطة . هــذا الرئيس السىء لا يســميه الصيادون الا باسم « رئيس البراغيث » .

كان يشرب البيرة ويضع القدح على دائرة سميكة من الورق

المضغوط كتب عليها « بيرة سانزنباخر » ولكنه كان يشرب ويكثر النظر الى ساعته الفضية .

... كان البحار يشعر بتحسن صحته . وقد انقضت النوبة على ما يبدو للعين . وانقشعت الحمى .

ظل جالسا على السرير وكان يمرر يده على خديه المزبئرين بشعر واخز ويقول :

— يجب أن أهرب على الفور .

قال الجد محزونا :

— وأين ستذهب بدون بنطلون ؟ ما دام الليل لم يخيم يجب أن تبقى فى البيت . هذا هو الأمر . يا غافريك أتريد أن تأكل ؟

— تعشيت عند تيرنتى .

رفع الجد حاجبه . اذن هكذا قد ذهب الحفيد الى تيرنتى . يا له من ولد لعين !

— وكيف الحال هناك ؟

— يريد أن يسر علينا اليوم .

حرك العجوز شفتيه ورفع حاجبه عاليا أكثر مندهشا اذ يرى حفيده صار كبيرا وجريئا : انه يفهم كل شىء أحسن من الرجال . وهو على الأخص بارع ! نعم بارع !

على الرغم من أنه لم يتجاوز التاسعة والنصف من عمره فان غافريك كان يتصرف فى بعض الحالات أفضل من الكبار . ولا عجب فى ذلك : فقد عاش منذ نعومة أظفاره بين الصيادين

وصيادو أوديسا لا يختلفون الا قليــلا عن البحــارة والوقادين وعمال احواض السفن والمرفأ الذين يشكلون أكثر قسم من سكان المدينة فقرا واستقلالا .

كل هؤلاء الناس تجرعوا كأس البؤس المريرة حتى الثمالة وعرفوا على حساب حياتهم « ما يكلف كيلو البؤس » ، كلهم كبارا وصغارا . ولكن ربما كان الصغار أشقى من الكبار .

كانوا فى عام ١٩٠٥ ، عام أول ثورة روسية .

وقد تمرد كل الفقراء والمحرومين والمساكين على القيصرية . وما كان الصيادون فى الصفوف الأخيرة من المعــركة . لقد كان النضال الضارى قد ابتدأ . اما الحياة واما الموت . كان هــذا النضال يبث روح الحياة والحذر والجرأة والاقدام والفطنة .

كل هذه الخصال تكونت ونمت فى نفس الصياد الصــغير تدريجيا ، بصورة غير ظاهرة .

كان أخو غافريك تيرنتى فى البدء صيــادا ، ولكنه تزوج بعدئذ وانخرط فى ورشات الســكة الحديدية . كان غافــريك يستشف من علامات كثيرة أن أخــاه الأكبر يتصــل فيما كان يسمى فى ذلــك الحين بشــكل غامض ولــكنه معــبر وهو : « الحركة » .

كان غافريك فى عدة مرات عند تيرنتى فى الطواحين القريبة قد سمع كلمة «اللجنة» و «الفرقة» و «الموعد» .. الخ .. دون أن يفهم معناها ، وكان غافريك من ذلك يشعر أن هذه الكلمات

متصلة بغيرها حتى ان كل واحـد كان يفهم : « اضراب » و «البوليس السرى» و « المنشورات » .

كان غافريك يعرف بشـكل خاص معنى المنشورات ، وهى عبارة عن أوراق سيئة النوع مملوءة بحروف صغيرة مطبوعة . وذات مرة كلف تيرتتى غافريك بأن يلقى بعضـا منها فى مراكب الصيادين على الشاطىء فى منتصف الليل وذلك بصورة سرية .

وقد قال له تيرتتى :

ـــ اذا أبصرك أحد فارمهـا فى المـاء واهـرب . واذا القى القبض عليك فقل انك وجدتها فى العشب .

ولكن كل شىء قد فات على خير .

ولذا قرر غافريك أن يحدث أخاه تيرتتى عن البحار . كان يعرف أن تيرتتى سيدبر كل شىء . الا أنه كان يدرك أن أخـاه قد استشار شخصا ولربما ذهب الى «اللجنة» المشهورة .

ولذا كان لابد من الانتظار فى ذلك الحين ، ولكن الانتظار أصبح أمرا خطرا .

كان البحار يفتح الباب عدة مرات وينظر الى الخارج بحذر . وكان الليل قد خيم ولكن العتمة لم تكن شـديدة كى يستطيع أن يخرج مجردا من الثياب بدون أن يلفت نظر أحد . وقد كان ما يزال على الشاطىء خلق كثير وما زالت أغانى المتنزهين على القوارب فى البحر .

عاد البحار وجلس على السرير وما عاد يتضايق أمام العجوز وغافريك يقول بصوت عال :

ـــ الكلاب .. الأوغاد .. ليتهم يقعــون مــرة بين يدى .. لا أدرى ماذا سأصنع بهم .. أود أن أفقد رأسى ولكننى سأريهم.
وضرب بيده الحديدية على السرير ضربة خفيفة .

٢٦

المطاردة

كان الليل قد خيم والعتمة قد ســادت حينمــا انفتح باب الكوخ فجأة . دلف رجل ذو قامة فارعة وحجب النجوم لحظة . وثب البحار واقفا على قدميه .
قال غافريك :
ـــ ليس غريبا هذا يا عم ، انه أخى تيرنتى .
جلس البحار محاولا أن يتفرس الرجل فى ظلمة الكوخ .
قال صوت تيرنتى :
ـــ مساء الخير . من هناك ؟ لا أرى أحدا . لماذا لا تشعلون المصباح ؟ ربما ليس لديكم بترول ؟
قال الجد بمشقة :
ـــ ما يزال يوجد مقدار ضئيل . وأشعل المصباح الصغير .
ـــ مرحبا يا جدى . كيف حالك ؟ ذهبت لأقــوم بجولة فى المدينة وقلت لنفسى : سأذهب لزيارة أقاربى . آه ولكننى أرى شخصا ثالثا فى البيت . مرحبا يا أخ !

وبسرعة وامعان تفحص تيرنتى البحار على ضـوء المصباح الواهى .

قال الجد بابتسامة مليئة بالعذوبة .

ــ هذا غريقنا !

ــ سمعت الكلام عن هذا .

كان البحار ينظر الى تيرنتى بشك قاتم وهو صامت .

سأل تيرنتى مبتهجا :

ــ روديون جوكوف ؟

ارتعش البحار ولكنه سيطر على نفسـه وأسـند يديه الى السرير بمزيد من القوة وحملق عينيه وقال بابتسامة متحدية .

ــ لنفرض . جوكوف . ولكن من أنت حتى أرد عليك ؟ ربما لا يجب على أن أرد الا أمام اللجنة .

زالت الابتسامة من وجه تيرنتى المجدر قليلا ان غافريك لم ير قط أخاه جديا بهذا القدر .

قال تيرنتى بعـد لحظة من التفـكير وقد جلس الى جانب البحار على السرير :

ــ يمكنك أن تتصرف كأنما أنا اللجنة .

قال البحار باصرار تاركا اللهجة الودية وهو متراجع :

ــ وكيف ستثبت ذلك ؟

أجاب تيرنتى :

ــ عليك أنت أولا أن تقدم الاثباتات .

أشار البحار بعينيه حانقا الى ساقيه اللتين فى الكلسون :

ــ أعتقد أن أمرى واضح وضوحا كافيا .

ــ هذا غير كاف !

ذهب تيرتتى الى الباب وتكلم بصوت خافت من فرجة الباب :

ــ ادخل لحظة يا ايليا بوريسوفيتش !

وسرعان ما سمع مشى فى الاعشاب ودخل رجل قصير القامة نحيل شاب على عينيه نظارة مع شريط أسود يمر وراء أذنه . كان يبدو تحت جاكيته العتيق المحلول الأزرار قميص أسود يشده حزام . وكانت قبعة مهندس تكنيكى تغطى رأسه الكثير الشعر .

بدا للبحار أنه قد سبق أن رأى فى مكان من الأمكنة هذا « الطالب » .

قام الشاب منحرفا وصحح وضع نظارته ونظر الى البحار بعين واحدة .

سأل تيرتتى :

ــ ماذا ؟

قال الشاب بسرعة وبلا توقف :

ــ لقد رأيت هذا الرفيق فى صباح ١٥ حزيران على رصيف بلاتونوف فى حرس الشرف الذى يسهر عند جثة البحار فاكولينتشوك الذى قتله الضباط بفظاعة . كنت هناك أيها الرفيق ؟

ـ مؤكدا .

ـ أرأيت ، اننى لم أخطىء .

واذ ذاك أخرج تيرتنى فى صمت من تحت جاكيته صرة وضعها على ركبة البحار .

قال الشاب بسرعة كذلك ودون توقف :

ـ بنطلون وحزام وجاكيت . لم أستطع ـ مع الأسف ـ أن أحصل على حذاء . سنمشى هكذا الآن ، ولسوف تشترى بعدئذ . ولكن الآن هيا أسرع والبس ولا تضع دقيقة يمكننا أن ندير اليك ظهورنا لتلبس .

ثم أردف :

ـ اننى أشعر أن البيت مراقب .

غمز تيرتنى بعينيه :

ـ اذهب يا غافريك وانظر قليلا .

فهم غافريك فانسل بهدوء خارج الكوخ فى ظلمة الليل ثم وقف وأصاخ السمع . كان يبدو له أن سوق البطاطا الجافة تصر فى البستان .

انحنى وتقدم عدة خطوات وفجأة ، بعد ما تآلفت عيناه مع الظلمة ، ميز وسط البستان شبحين ساكنين .

انقطع نفسه وطنت أذناه ، وما عاد يسمع البحر . وعض شفته وانسل بخطى خفيفة الى خلف الكوخ كى يرى فيما اذا كان لا يوجد أحد على الدرب .

وكان هناك رجلان آخران . كانت بدلة أحدهما بيضاء .

زحف غافريك الى التلعة فأبصر عليها عدة رجال شرطة . لقد عرفهم فورا من بدلاتهم البيضاء . لقد كان البيت محاصرا .

أراد الصبي أن يندفع الى الوراء حينما أحس يدا كبيرة حارة تمسكه من الخلف بقوة من رقبته . حاول أن يفلت منه ولكنه سرعان ما تلقى ضربة على رجله فسقط على وجهه الى الأرض .

كانت يدان قويتان تمسكان به . أفلت منهما فوجد نفسه أمام الرجل ذي الشاربين فارتاع ، ومال عليه هذا : فرأى فمه مفتوحا تفوح منه نتانة اللحم وذقنه ذقن جندي صلب مثل السنديان .

أخذ غافريك يبكي بصوت خافت جعله حادا متعمدا لذلك ويصيح :

ـ يا عم ، يا عم !

قال الرجل ذو الشاربين بصوت صافر :

ـ اسكت يا رذيل !

ـ اتركني !

قال الرجل ذو الشاربين من بين أسنانه وهو يمسك بأصابعه الحديدية أذن الولد :

ـ حاول أن تصيح قليلا يا وغد !

انكمش غافريك متقلصا وصاح بصوت وحشي ووجهه متجه الى الكوخ :

ـــ اهربوا !

ـــ اسكت والا قتلتك !

شد الرجل ذو الشاربين أذنه بقوة حتى طقت . ظن غافريك أن رأسه انفجر . وأحس بألم شـــديد كأنه حـــرق يلهب رأسه . بيد أنه شعر أيضا بنوبة من الحقد والحنق تفور فيه وتسود منه الدنيا فى عينيه ؛ فصاح مرة أخرى بأعلى صوته وهو يتلوى من الألم .

ـــ اهربوا !

انقض الرجل ذو الشاربين على غافريك واستمر فى شد أذنه بيد وكم فمه باليد الأخرى ولكن الصبى تدحـــرج على الأرض وهو يعض اليد الكريهة المزغبرة الندية من العرق ويبكى بكاء حارا ويصيح صياحا مسعورا :

ـــ اهربوا ! اهربوا ! اهربوا !

دفع الرجل ذو الشاربين الصبى بعنف وانقض على الكوخ . وتعالى صفير حاد من صفارة شرطى .

استوى غافريك على قدميه وفهم على الفور أن صيحته قد سمعت . ثلاثة أشـــباح اثنـــان كبيران والآخر صغير قفزت من البيت واجتازت البستان متعثرة .

قطع عليهم الطريق رجلان يلبسان قميصين أبيضين . أراد الهاربون أن يعودوا أدراجهم ولكنهم وجدوا أنفسهم مطوقين .

صاح صوت مجهول فى الظلمة :

ـــ قفوا !

سمع الشاب صوتا رهيبا من تيرتتى يصيح :

ــ يا ايليا بوريسوفيتش ! اطلق النار !

وفى نفس الوقت لمع لهب ، وأطلقت ثلاث رصاصات من مسدس ، فكان صوت الرصاصات كأنه لسع سوط يرن الواحد بعد الآخر . وقد أدرك غافريك من الأصوات ووقع الأقدام أن اشتباكا جرى فى الظلمة .

هل أوقفوهم ؟ كان الذعر يشله عن التفكير . اندفع غافريك الى الأمام كأنما يستطيع أن يساعد الهاربين .

ولكنه قبل أن يجرى عشر خطوات أبصر ثلاثة أشباح ـ اثنان كبيران والآخر صغير ـ تفلت من الاشتباك وتندفع الى المنحدر وتغيب فى لجة الظلام .

ــ أوقفوهم ، أوقفوهم !

وانطلقت حزمة النار الحمراء ودوت طلقة قوية من مسدس سميت ويسون البوليسى . وفى الأعلى على ذروة الشاطىء كانت صفارات الشرطة تطلق صفيرا حادا . كان يخيل للمرء أن الشاطىء كله محاصر .

وقف الصبى يائسا يصيخ السمع الى المطاردة . ما كان ليفهم لماذا اختار تيرتتى هذا الاتجاه ، لعله كان أحمق اذ أراد أن يتسلق المنحدر ، فقد كان فيه كمين ولسوف يقع فيه لا محالة . كان يحسن به أن يدب على طول الشاطىء .

تقدم غافريك عدة خطوات يركض وخيل اليه أنه يرى ثلاثة

أشكال انسانية تتسلق الشاطئ الصخرى المنحدر عموديا تقريبا.
انه الموت لا محالة !

تمتم الصبى يائسا وهو يعض أصابعه كيلا يبكى . وكانت الدموع تدغدغ أنفه وتتسرب الى حلقه وتغلى فيه .

ـ أوه يا تيرتتى الى أين ذاهب ؟

ولكن الصبى فهم فجأة لماذا تسلقوا المنحدر : لقد نسى .. ومع ذلك فهذا بسيط ! اذ أنه فعلا ... غير أنه فى هذه اللحظة انقض عليه الرجل ذو الشارب وجره من ذراعه وقد مزق قميصه وسحبه الى الوراء . دفع الصبى بقوة الى الكوخ . كان بالقرب منه شرطيان يحرسان الباب . تألم غافريك اذ ارتطم فكه بالباب وسقط فى ركن على جده الجالس على الأرض .

صاح الرجل ذو الشاربين فى الشرطيين :

ـ اذا تركتماهما يهربان سأقطع رقبتيكما .

وخرج بسرعة .

جلس غافريك بجانب جده وقد لف ساقا على ساق مثله تماما . بقيا جالسين دون أن يقولا شيئا مصيخين السمع الى صفير الصفارات والصيحات التى تتلاشى فى المدى البعيد .

وأخيرا ما عاد يسمع ضجيج .

حين ذلك أحس غافريك بأذنه التى نسيها والتى كانت تؤلمه ألما شديدا وكأنها ملتهبة . كان يخاف أن يلمسها .

قال غافريك وهو يتمالك نفسه كيلا يبكى محاولا أن يتظاهر بعدم المبالاة :

17 — 4038

ــ آه ان الثور قد قلع أذنى .

كان الجد ينظر اليه خلسة . وظلت عينا العجوز ساكنتين مذعورتين رهيبتين بفراغهما العميق . كانت شفتاه تتحركان بهدوء . مكث طويلا ساكتا . وأخيرا هز رأسه وقال بهيئة لائمة :

ــ أرأيتم مثل هذا أيها السادة ؟ تقلع آذان الأولاد ؟ أهذا شيء مسموح به ؟

وتنهد بمشقة وعاد يجتر بشفتيه . وفجأة مال نحو غافريك بهيئة منشغلة ونظر الى الباب بذعر كى يرى فيما اذا كانا يصغيان اليه وهمس :

ــ لم نسمع عنهم شيئا . هل ذهبوا أم ظلوا ؟

قال غافريك بسرعة وبصوت خافت .

ــ لقد تسلقوا الشاطىء الصخرى . أخذهما تيرنتى الى الديماس . فاذا لم يقتلوا فى الطريق فسينجون وهذا أكيد .

التفت الجد الى صانع المعجزات وأغمض عينيه ورسم اشارة الصليب على صدره بحركة كبيرة وبطيئة وهو يضع أصابعه مجتمعة بقوة على جبهته وبطنه وكتفيه . وترقرقت عبرة صغيرة لا تكاد تبين وسالت على خده وغابت فى أحد تجاعيده !!

٢٧

الجد

توجد ديماسات تحت كثير من المدن . فتوجد ديماسات فى

روما ونابولى والقسطنطينية والاسكندرية وباريس . وتوجد كذلك فى أوديسا .

فمنذ حوالى خمسين عاما كانت ديماسات أوديسا تستخدم مقالع تنشر فيها الحجارة الكلسية للبنـــاء . وهى الآن ما تزال تمتد مثل متاهة سرداب تحت المدينة كلها وفيها عدة منافذ خارج الأسوار .

كان سكان أوديسا يعرفون وجود الديماسات ولكن قلمـــا كان ينزل اليها أحد ولا سيما من يعرفها . كانت الديماسات الى حد ما سر المدينة وأسطورتها .

ولكن تيرنتى كان صيادا وكان يعرف شاطىء أوديسا معرفة تامة وقد درس دراسة دقيقة منافذ الديماس النافذة الى البحر .

كان أحد هذه المخارج يقع على بعد مئة خطوة من الكوخ فى منتصف سفح منحدر . كان عبارة عن فرجة فى منحدر صخرى مغطى بالشجيرات . وكان جدول يخرج من الفرجة وينحدر الى الأسفل وهو يهز النباتات المتسلقة والاعشاب .

وبعدما دحر تيرنتى أول هجوم من الشرطة والتحــرى قاد رفيقيه رأسا الى الفرجة التى كان يعرفها .

ما كان لدى الملاحقين أدنى فكرة عن هــذا المنفذ . كانوا يظنون أن الهاربين سيفرون بالمرور بين الفيلات . وهذا ما اشتغل له الشرطة . كانت جميع الفيلات محاصرة . وكان لا بد للهاربين من أن يقعوا فى الشرك لا محالة .

ولذلك بعد طلقة المسدس الأولى تلقى الشرطة أمرا بألا يعودوا الى اطلاق النار .

ومع ذلك فبعد ما انتظر ربع ساعة فى الأسفل رئيس مخفر شرطة الكساندروفسكى الذى كان يدير بنفسه الحملة ، أرسل رئيس قسم الشرطة يسأل فيما اذا كان المجرمون قد ألقى القبض عليهم .

سار رئيس قسم الشرطة فى طريق ملتو أقل وعورة وعاد ليقول بعد ربع ساعة ان الهاربين لم يظهروا فى الأعلى . لم يكونوا لا فى الأعلى ولا فى الأسفل فأين هم اذن ؟ لا سبيل الى التصديق أبدا بانهم ظلوا وسط السفح فى الأجمة ينتظرون كى يوضع القيد فى أيديهم .

ومع ذلك فقد أمر رئيس مخفر الشرطة رجاله بتسلق السفح لتفتيش كل نقطة فى الأجمة . كان يطلق الشتائم المقذعة وهو يتسلق بدوره وجزمته اللامعة تنزلق على العشب والطين ، وهو يأبى أن يثق « بهؤلاء الحمقى » .

فتشوا فى الظلام كل السفح من الأسفل الى الأعلى دون أن يعثروا على شىء شىء عجيب ! ان الهاربين لم تبتلعهم الارض مع ذلك !

صاح صوت مذعور فجأة من الاعلى :

ــ سيادتك هل يمكن أن تأتى الى هنا .

ــ ماذا يوجد ؟

ــ يوجد ديماس يا صاحب السيادة !

أمسك رئيس مخفر الشرطة الأغصان الشائكة بيديه اللتين تلبسان قفازين أبيضين وسرعان ما ارتفع بيدين قويتين الى مسطح صغير .

كان الرجل ذو الشاربين يشعل عود الكبريت تلو الآخر . كانت تظهر على ضوئها فرجة سوداء فى الشاطىء الصخرى المغطى بالشجيرات .

فهم رئيس مخفر الشرطة فى الحال بأنه قد خاب المسعى ! فأفلتت من يده هذه القنيصة !! كان رئيس مخفر الشرطة يرتجف من الغيظ ويقرع الأرض بجزمته الضيقة ويلوح بيده اللابسة القفاز الأبيض ذات اليمين وذات الشمال ، وفى أى اتجاه ، فى الأفواه وفى الفكوك وفى الشوارب . كان يصيح بصوت مسعور وقد بح مع شدة الصياح :

ــ ولماذا تقفون أيها البهائم ! الى الأمام ! فتشوا الديماس ! سأقلع رؤوسكم سأعفس بوزكم غضب الله عليكم ! يجب أن يلقى القبض على الأوغاد ! انطلقوا !

الا أنه كان يعرف حق المعرفة أن هذا جهد خائب فلكى تفتش الديماسات كلها لا بد لهم ما لا يقل عن خمسة عشر يوما . وفضلا عن ذلك ستبوء هذه الأبحاث بالفشل : انقضت ثلاثون دقيقة ولا ريب ان الهاربين قد صاروا فى الطرف الآخر من المدينة .

دخل بعض الشرطة رغما عنهم فى فرجة الشاطىء الصخرى وأشعلوا أعواد الثقاب وأخذوا يدوسون بعيدا قليلا عن المدخل ويتفحصون الجدران الرطبة للسرداب الذى يغيب فى ظلمة القبور .

بصق رئيس مخفر الشرطة من الغيظ وعاد ونزل من على الشاطىء الصخرى المنحدر ومهمازات جزمته تصدر أصواتا . كان الغضب يكاد يخنقه . فشد بعنف الياقة المنشاة حتى تطايرت أزرارها .

سار بخطا واسعة فى الاعشاب التى كانت تصدر أصواتا تحت قدميه حتى وصل الى الكوخ وفتح الباب بحنق . تجمد الشرطيان متهيئين مرتعبين .

دخل رئيس مخفر الشرطة الكوخ وبقى لحظة ساكنا وساقاه منفرجتان وهو يحرك أصابعه وراءه بحركة عصبية . دلف الرجل ذو الشاربين من الباب بدوره . وهمس سرا وهو يشير بعينيه المستديرتين الى الجد .

ــ اسمح لى يا صاحب السيادة . ها هو ذا صاحب البيت الذى تجرى فيه المواعيد السرية وهذا صبيه .

وبدون أن ينظر رئيس مخفر الشرطة الى الرجل ذى الشاربين مد يده جانبا وأمسك بأصابعه الخمسة بوزه المبلل بالعرق ودفعه بازدراء حانق .

ــ أنت يا أحمق لم أسألك شيئا ؟ أعرف ماذا يجب على أن أصنع .

شعر غافريك بالذعر . كان يدرك أن شيئا فظيعا سيحدث على الفور . كان ينظر محملقا الى الضابط المشوق ذى الكتفين القويين الذى يلبس بنطلونا أزرق وحمالة سوداء صقيلة عبر كتفه وهو ممتقع وصغير مع أذنه المتورمة الحمراء .

وبعد دقيقة من السكون بدت للصبى كأنها ساعة ، جلس رئيس مخفر الشرطة على السرير منحرفا . مد جزمته اللماعة بدون أن يحيد ببصره عن الجد وأخرج من جيبه علبة سيكارات فضية مع قداحة برتقالية وأشعل سيكارة صفراء .

فكر غافريك ، « معمل أسمولوف » .

نفخ رئيس الشرطة الدخان من منخريه ، وقال : « هيا » وأخذ يصيح فجأة بأعلى صوته حتى طنت الآذان .

ــ قف أيها الوغد حينما تكون بحضرة ضابط !

وقف الجد وهو يقوم بحركات مشوشة . قوس رجليه الحافيتين السوداوين وأصلح قميصه على جسمه القمىء وحدج رئيس مخفر الشرطة بعينى الجندى الخاليتين من التعبير .

كان غافريك يرى عنق جده المتطاول يرتعش وجلده الجاف يتوتر مثل حبلين تحت ذقنه الموسومة بندبة جرح قديم .

قال رئيس مخفر الشرطة بصوت شديد :

ــ تخفى عندك مجرمين سياسيين ؟

تمتم الجد :

ــ لا .

ـ قل لى من هؤلاء الرجال الذين كانوا عندك الآن ؟

ـ لا أعرف .

ـ آه ، لا تعرف ؟

نهض الضابط ببطء وشفتاه مزمومتان وضرب العجوز على أذنه بعنف وبحركة محكمة فتدحرج العجوز وارتطم بالجدار بكل جسمه .

ـ قل من هؤلاء ؟

أجاب العجوز بحزم وخداه يرتعشان :

ـ لا أعرف .

وتلقى صفعة أخرى بيده اللابسة القفاز الأبيض فنزف منخرى الجد شريطان دقيقان من الدم . أغمض العجوز جفنيه وطمر رأسه بين كتفيه وأخذ ينتحب .

قال الجد بصوت خافت ولكنه مهدد وهو يمسح الدم السائل من أنفه ويرى رئيس مخفر الشرطة يده الدامية :

ـ لماذا تضربنى يا صاحب السيادة !؟

صاح الضابط وقد امتقع من الغضب :

ـ صه !

كانت شامة تصنع نقطة سوداء على وجهه الجامد . ونظر الى قفازه المتلف بتقزز :

ـ قل من هؤلاء ؟

ـ لا أعرفهم ...

كان لدى العجوز الوقت ليغطى وجهه بيــديه ويلتفت الى الجدار فانهالت الضربة على رأسه . ورف بنطلونه على ركبتيه . وأخذ الجد يزحف ببطء على الأرض .

صاح غافريك ودموع اليأس فى عينيه وقد اندفع الى رئيس مخفر الشرطة :

— يا عم ، لا تضربه ! انه عجوز !

ولكن رئيس مخفر الشرطة خرج من الكوخ وهو يصيح :

— امسكوا هذا الوغد ! واقتادوه !

انقض الشرطيــان على العجوز وأمســكاه وهما يفتــلان مرفقيه . وجراه خارج الكوخ مثل كيس التبن . جلس غافريك على الأرض وهو يعض يديه ويبكى بدموع الحقد والحنق .

مكث بعض الوقت بلا حراك مصيخا السمع بأذن واحدة الى الصيحات والى ضوضاء الليل . وما عادت أذنه الأخرى تسمع .

ومن حين الى آخر كان الصبى يسد أذنه غير الجريحة واذ ذاك يطبق صمت عميق . كان هــذا رهيبــا كأنما خطر محيق يترصده وسط هذا الصمت .

كان يفتح أذنه كأنما يبــادر لاطلاق الأصوات الحبيســة الآتية . ولكن أذنا واحدة ما كانت تستطيع أن تلم بكل شتاتها .

كان يسمع خلال فترات هدير البحر الشديد ، لا غير ، أو موسيقى الصراصر ، ولكن ضوضاء البحر كانت تنقطع ، وكانت نسمة حارة فى بعض الأحيان تطوف على الأعشاب الضارة فتملأ

الليل بحفيف لا يترك مجالا للصراصر ولا للبحر . وأخيرا كان فى بعض الأحيان لا يعود يسمع سوى صوت المصباح الصغير الذى استنزف البترول فيه .

وفجأة شعر الصبى شعورا واضحا بوحدته . وأطفأ النور حالا واندفع فى اثر جده .

كان ليل آب بديعا يخيم على الدنيا . كانت السماء السوداء الرفافة تنثر فى طريق الولد الراكض النجوم . وكانت أصوات الصراصر تتعالى وترتفع الى عنان السماء .

ولكن ماذا يهم الصبى المرهق المنكسر هذا الجمال البارد الذى ليس له سلطان ليجعله سعيدا ؟

كان غافريك يركض بكل قواه .

لحق جده فى المدينة فى شارع ستاروبورتوفرانكوفسكايا القريب من مخفر الشرطة .

كان شرطيان يقودان الجد بعربة ، أحدهما جالس والآخر واقف وكان العجوز منطرحا عند رجليهما فى العربة لأنه انزلق عن المقعد ، وكان رأسه يثب بدون قوة ويرتطم بالدرجة . وكان نور فوانيس الغاز يمر على وجهه الممرغ بالتراب والدم .

اندفع غافريك وراء العربة . ولكنها توقفت عند باب المخفر ، سحب الشرطيان من العربة العجوز المترنح .

صاح الولد :

— يا جدى !

ضرب الشرطي بغمد السيف على رقبته ضربا خفيفا . وأغلق الباب وبات غافريك وحده .

٢٨

الخالة المكابرة

حانت لبيتيا ساعة النصر والفرح .

لم تحن الساعة الواحدة وهو قد طاف في البيت ليرى الجميع عمرته المدرسية الجديدة ويحكي كيف أجرى امتحانه وهو مهتاج .

ما كان هناك شيء ذو بال ليحكي — والحق يقال — فلم يكن هذا امتحانا بالمعنى الصحيح وانما مجرد أسئلة لم تدم سوى ربع ساعة . فقد ابتدأت في الساعة العاشرة والنصف وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة سلم البائع في المخزن الذي في البناية بجوار المدرسة ، للصبي قبعته العتيقة من القش مغلفة بالورق والابتسامة مشرقة على وجهه

لبس بيتيا عمرته أمام مرآة المخزن ولم يخلعها طيلة النهار .

كان يقول بصوت مهتاج وهو يسير في الشارع بخطا مستعجلة :

— آه لقد أجريت امتحاني بمهارة !

وكان ينظر الى نفسه في جميع الواح زجاجية ليرى نفسه مرة أخرى وهو يلبس عمرته .

كانت خالته تقول له وهى تضحك ضحكا قويا فتهتز ذقنها :

— يا صاحبى هدىء من نفسك ، فليس هذا امتحانا وانما هو مجرد أسئلة .

وكان بيتيا يصيح بأعلى صوته مغتاظا ويضرب برجله ويكاد يبكى من الاهانة :

— كيف يا خالتى ! كيف تستطيعين أن تقولى هذا ؟ لم تحضرى ثم تؤكدين ! انه امتحان حقيقى بمعنى الكلمة . كنت أنت فى غرفة الاستقبال فلا يحق لك أن تقولى هذا . أقول لك انه امتحان !

— حقا اننى حمقاء وأنت ذكى ! انه مجرد أسئلة .

— ولكن لا ، انه امتحان .

— أقول « محلوق » ويقول « مقصوص » .

كانت الخالة تشير الى الحكاية الأوكرانية القديمة التى تروى أن فلاحا عنيدا أصر فى نقاشه مع زوجته : كاتب الناحية له لحية مقصوصة أم محلوقة ؟ وكان الفلاح المكابر يصيح على الرغم من كل حقيقة : « مقصوصة » حتى احتدت زوجته وألقته فى النهر . كان وهو يغيب ما يزال يستمر فى الاشارة بأصابعه الى حركة قص اللحية .

ولكن بيتيا لم يستسغ الاشارة وأصر فى القول بصوت حزين :

— انه امتحان مع ذلك ، امتحان !

كانت الخالة طيبـــة القلب . فلم ترد أن تجرد ابن أختها من أنفس سبب لنصره . « امتحـــان » يا لها من كلمة حلوة مؤثرة ! فليتمتع بها الصبى وليبتهج ، ما الفائدة من افساد هـــذا اليوم التاريخى !؟

وكفت الخالة عن الطعن فى الحقيقة . فقالت بابتسامة ناعمة :

— ربما أنا مخطئة ، وربما هذا امتحان حقيقى .

أشرق وجه بيتيا بالبهجة .

— أوه أجل امتحان وأى امتحان !!

ولكن بيتيا فى قرارة نفسه كان يشـــعر بالشك يأكل نفسه . فقد جرى كل شىء بسرعة وبسهولة بالنسبة « للامتحان » !

صحيح أن الأولاد اصطفوا مثنى مثنى وأخذوا الى «الصف» وصحيح أنه كانت هناك منضـــدة طويلة مغطاة بقماش أزرق ، وصحيح أن الأســـاتذة الصارمين أحاطوا بالمنضدة وهم كانوا يلبسون بدلة زرقاء ونظارات وأزرار مذهبة ونياشين وصدرية منشاة تبدو صلبة مثل قشرة البيض وأكمام تحدث أصواتا من الضجة وبينهم كانت تبدو جبة قسيس متموجة وشعره الطويل كالمرأة .

كان بيتيا يشعر بمعدته تهبط وبقدميه تنفصدان عرقا ، بينما كان عرق بارد يخرج من صدغيه ... كان كل شىء يجرى حسب العادة المقررة منذ عصور غابرة .

على أن الامتحان ... لا ، كان بيتيا يدرك جيدا أن هذا ليس سوى مجرد أسئلة .

فما أن جلس الأولاد دس أحد الأساتذة أنفه على ورقة كبيرة منشورة وقال وهو يوضح كل كلمة ويكورها :

— هيا سنبدأ . ألكسندروف بوريس ، ألكسندروف نيقولاى ، باتشى بيوتر . تفضلوا تعالوا الى هنا .

سمع بيتيا اسمه الذى رن رنينا غريبا وحادا فى آن واحد فى هذا الصف الداوى المقفر ، وشعر بضربة يد فى جوف بطنه . ما كان يتوقع أن تأتى اللحظة الرهيبة مسرعة الى هذا الحد .

وجد بيتيا أنه قد أخذ على حين غرة ، فتضرج وجهه وتقدم يمشى على الأرض المزحلقة متردد الخطى ويكاد يغمى عليه .

ثلاثة أولاد أمام ثلاثة أساتذة هكذا !

وكان بيتيا من نصيب الكاهن . فقال هذا وكان عجوزا ضخما ، وأخذ يشمر كم جبته العريض .

— هات .

وغرز فى صدره الضيق دبوس الصليب الذى يحمله بطرف سلسلة فضية . كانت السلسلة تتألف من حلقات مسطحة فيها فجوات مثل حبات البن .

— تعال يا شاب . ما اسمك ؟

— بيتيا .

— يجب أن تقول بيوتر يا صاحبى ، بيوتر . بيتيا بقى فى المنزل ،وما شهرتك ؟

— باتشى .

— ابن فاسيلي بيتروفيتش ؟ الأستاذ في المدرسة الحرفيـة لمراقبى العمل ؟

— نعم .

أسند الراهب ظهره الى مسند الكرسى واتخذ وضع المدخن الحالم .

وأغمض عينه وهو يحدج بيتيا وتلفظ مبتسما مما لم يفهم الصبى شيئا .

— أعرفه ، وكيف اذن . انه رجل حر . هات ... وعاد ومال الى الوراء كثيرا .

صار الكرسى الصغير يتأرجح على رجليه الخلفيتين .

— ما هى الصلوات التى تعرفها ؟ أتعرف صلاة الايمان ؟

— نعم أتلوها .

— هيا قلها .

استنشق بيتيا بملء رئتيه وأخذ يتلو بدون توقف محـاولا أن يقول الصلاة كلها بدون أن يأخذ نفسا .

— أؤمن بالله الأب الواحد فاطر السماوات والأرض وسيدنا اليسوع المسيح الابن ..

وصل بيتيا الى هذه الكلمة فى آخر نفسه وتوقف الا أنه سرعان ما استنشق مؤونة من الهواء جديدة مصـدرا صوتا من لعابه فى أثناء ذلك ، كيلا يظن أنه قد نسى . ولكن الراهب قام بحركة مرتاعة .

كفى ! كفى اذهب الى التالى .

وجد بيتيا نفسه أمام معلم الرياضيات .

— حتى أى عدد تعرف العد ؟

قال بيتيا متشجعا بنجاحه فى امتحان الديانة :

— الى أى عدد تريد .

— حسنا جدا . ابدأ بالعد حتى المليون .

يا للمصيبة ! شعر بيتيا كأنما وقع فى لجة الماء وعلى غير ارادة منه دمدمت شفتاه مثل الغريق . ألقى نظرة فيما حوله يائسا ليجد نجدة . ولكن الجميع كانوا مشغولين وكان معلم الرياضيات ينظر الى جهة أخرى من خلال نظارته التى كانت زجاجتاها تعكسان نافذتى الصف الكبيرتين مع خضرة حديقة المدرسة ، والقباب الزرق لكنيسة القديس باتنيلمون وكذلك برج مخفر الشرطة الكساندروفسكى . وكان يظهر فيها كرتان سوداوان مما يعنى أن حريقا قد اندلع فى المنطقة الثانية .

— عد حتى المليون ..

كان بيتيا فاقد الصواب ! وابتدأ يعد مظهرا كل كلمة وهو يثنى خفية أصابعه ويبتسم ابتسامة خبيثة حزينة :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ... ثمانية ، تسعة ، عشرة ، أحد عشر ..

كان معلم الرياضيات ينظر ساهما من النافذة . وحينما لفظ الصبى محزونا تسع وسبعون قال :

— كفى . هل تعرف جدول الضرب ؟

أخذ بيتيا يعد بسرعة وقوة خوفا من أن يقاطع :

— واحد فى واحد : واحد ، واحد فى اثنين : اثنان ، واحد فى ثلاثة : ثلاثة . ولكن المعلم هز رأسه قائلا :

— كفى !

— أعرف أيضا الجمع والطرح والضرب والتقسيم .

— كفى ! اذهب الى التالى .

يا لها من قصة ! لا يترك المرء يفتح فمه . انه لشىء مزعج حقـاً !

ذهب بيتيا الى المعلم التالى الذى يحمل وساما يظهر من خلال لحيته ذات الشعر الجاف .

— اقرأ من هنا .

أخذ بيتيا بمهابة الكتاب ذى الجلد المرمرى ونظر الى الظفر الأصفر الذى يشير الى عنوان بالحروف الكبيرة : « الأســد والكلب الصغير » .

ابتدأ بيتيا ببعض الخفة يقرأ ، وكان يغمغم قليلا لأنه كان مضطربا .

— « الأسد والكلب الصغير . كان يوجد أسد فى معرض للوحوش وكان شرسا دمويا . وكان الحراس يخافون منه . كان الأسد يلتهم كمية كبيرة من اللحم ، وما عاد صــاحب المعرض يعرف ماذا يصنع ... » .

– كفى !

كاد بيتيا يبكى . انه لم يصل الى الكلب الصغير بعد ، فجاءت « كفى ! ... »

– هل تحفظ شعرا ؟

أوه ! ان هذه اللحظة ينتظرها بيتيا بارتعاشة سر النصر هنا سوف يظهر أخيرا روعته !!

– أعرف الشراع ، قصيدة ميشيل ليرمنتوف .

– هيا ابدأ بالقائها !

– يجب أن ألقيها بلهجة معبرة ؟

– ألقها بلهجة معبرة .

– لحظة .

فتح بيتيا بسرعة رجله ، وهذا شرط ضرورى للالقاء المعبر ومال رأسه الى الوراء بوجاهة ، وقال بصوت مدو :

« الشراع » قصيدة ليرمنتوف :

شراع أبيض وحيد
فى ضباب البحر الازرق
ماذا ينشد فى البلاد النائية ؟
وماذا خلف فى الوطن ؟

وبعد ما قام بحركة سريعة بيديه ، اشارة للدهشة والاستفهام ، استرسل مستعجلا لالقاء ما يمكن قبل أن يقاطع :

تلاعبت الامواج وهبت الرياح
واز الصارى وانحنى تحت لطمات الرياح

يا للاسف انه لا ينشد السعادة
وانه لم يهجر السعادة !

وبادر بيتيا لاظهار كلمة يا للاسف بحركة معبرة ولكن المعلم هز يده قائلا :

— كفى !

قال بيتيا بصوت منكسر :

— سأنهى الآن لم يبق سوى عدة أبيات .

الموج يحمله وهو ابهج من اللازورد

— كفى ! كفى ! انصرف الى البيت !

— ألا تريد أن ألقى شيئا آخر ؟ أعرف « أنشودة أوليغ » قصيدة ألكسندر بوشكين .

— لا ، كفى . يمكنك أن تقول لأهلك انك قد قبلت . هذا كل شيء .

أصاب بيتيا الذهول . وبقى دقيقتين فى وسط الصف دون أن يعرف ماذا ينبغى له أن يفعل .

كان يخيل اليه أن هذا أمر لا سبيل الى تصديقه ، وهو هذا الحادث الرهيب السرى الذى استعد له طيلة الصيف وهو مرتعد الفرائص قد انتهى .

وأخيرا أدى التحية بدون مهارة وضرب كعبى قدميه ، وتعثر وانطلق خارج الصف ، ولكنه رجع بعد لحظة مأخوذا ليسأل بصوت متقطع :

— ويمكننى أن أشترى عمرة للمدرسة ؟

— نعم ، نعم يسكنك ، فاذهب .

دخل بيتيا بسرعة الريح الى ردهة الاستقبالات حيث كانت تجلس خالته بقبعة الصيف مع برقع وقفازين على كرسى مذهب تحت تمثال لومونوسوف النصفى المصنوع من الجبصين .

صاح بقوة حتى ان الحوذيين سمعوه فى الشارع مؤكدا :

— يا خالتى ! تعالى بسرعة ! يقولون انه يجب أن تشتروا لى عمرة طالب المدرسة !

٢٩

فى مخفر الشرطة

آه ! ما أجمل السعادة التى يشعر بها المرء لدى شراء عمرة !

لقد بدأ بتجريبها طويلا وبعدئذ أخذ يساوم وشرع ينتقى الشارة ، ذلك الشىء الصغير الفضى والأنيق جدا الذى يتكون من غصنين دقيقين متشابكين و : « ث. أ. ٥ » وهذا يعنى : ثانوية أوديسا الخامسة .

اختار أضخم شارة وأرخصها : خمسة عشر كوبيكا .

ثقب البائع العمرة الزرقاء بالمخرز وأدخل دبوسى الشارة ، وثناهما من الداخل .

وقد أثارت العمرة المحلاة بالشارة حماسة عامة فى البيت . كان كل واحد يحاول أن يجسها ويلمسها ولكن بيتيا لم يدع

أحدا . تأملوها بقدر ما تريدون ولكن لا تلمسوها !

كان بابا ودونيا وبافليك يسألون : « كم ثمنها ؟! » كأنما هذا هو أهم شيء .

كان بيتيا يرد على الجميع بحيوية :

— العمرة بروبل وخمسة وأربعين كوبيكا والشارة بخمسة عشر كوبيكا . ولكن ما قيمة هـذا لو تعـرفون كيف قدمت الامتحان !

كان بافليك يشيح بوجهـه عن العمرة وهو ينفخ بأنفـه ويكاد يبكى .

سارع بيتيا ونزل ليرى عمرته الى نوسيا كوغان ابن العطار

الا أن نوسيا كوغان كان ما يزال فى الضاحية . ان هـذا لمزعج حقا !

وقد أبدى اهتماما بالغا بالعمرة والد نوسيا العجوز كوغان ، وهو العطار الملقب : « بوريس دان من عائلة الجرذان » .

وضع نظارته وتفحصها طويلا وتمطق بلسانه وسأله :

— كم ثمنها ؟

وبعد ما زار بيتيا جميع أصحـابه فى البناية ذهب الى المرج ليرى عمرته الى الجنود . وقد سـألوا هم أيضا كم ثمنها ؟ ولم يبق أحد لم يعرضها عليه ، ولم يمض سوى نصف نهار .

استولى اليأس على نفس بيتيا .

وفجـأة أبصر غافريك الذى كان يسـير بمحاذاة جـدار

مستوصف الولادة . اندفع بيتيا الى صديقه وهو يصيح ويلوح بعمرته .

ولكن يا للغرابة ! ماذا حدث لغافريك ؟ كانت عيناه مضرجتين بلون كلون الصدأ ، فكانتا تلقيان بريقـا خامدا مستوحشا فى دارة وجهه الناحل الملوث . وكان قميصه ممزقا وكانت احدى أذنيه ذات حمرة مزرقة ، متورمة تلفت النظر بمظهرها الرهيب .

أراد بيتيا أن يصيح :

— ليتك رأيت كيف قدمت الامتحان ؟

ولكن الكلمات توقفت فى حنجرته .

فتمتم :

— أوه ! مع من تشاجرت ؟ من ضربك هذا الضرب المبرح ؟

انفرجت شـفتا غافريك ببسمة كالحة وخفض بصره . وقال بدون أن يرد عليه :

— أرنى هذه كم ثمنها ؟

ومد يده الى العمرة .

كان ترك عمرته للأيدى الغريبة أمرا مؤلما ومع ذلك فان بيتيا سمح لغافريك أن يلمسها والقلق يعتصر نفسه .

— ولكن حذار أن تفسدها !

— اطمئن !

جلس الصبيان فى ظل شجرة بجانب حفرة الأقذار المنزليـة وأخذا يتفحصـان العمرة من كل زاوية . وجدا فيهـا كثرة من الأسرار والامكانيات .

أولا : لاحظا أن حلقة الفولاذ الرقيقة التى تشد قعر العمرة يمكن نزعها . كانت هذه الحلقة ملفوفة بورق مغطى ببقع الصدأ . فاذا انتزعت من العمرة فانها ستكون ذات قيمة بحد ذاتها .

سيكون من السهل تكسيرها الى قطع كثيرة من الفولاذ يمكن أن تستعمل مثلا فى وضعها فوق سكة القطار لدى مروره فى الضاحية ، من أجل أن يرى ماذا يحدث !

ثانيا : كانت توجد بطانة سوداء عليها كتابة مذهبة بالحروف الكبيرة : « غورالنيك اخوان » . فاذا فتقت قليلا يمكن أن يخبأ فى طيها أشياء شتى لا يخطر فى بال أحد أن يفتش فيها !

ثالثا : ان رفرفها الجلدى الأسود اللامع من فوق يمكن أن يجعل سطحه العلوى أكثر لمعانا أيضا : يكفى أن يدلك بشدة بالقشور الخضراء من شجرة يسميها الصبيان « شجرة التلميع » .

أما الشارة فكان لا بد من تقويسها فى الحال كما تقتضى متطلبات الموضة وكذلك قطع الغصنين منها بشكل خفيف !

شرع الصبيان بالعمل بهمة فاشتغلا على ذلك النحو حتى أبدت لهما العمرة جميع ما تخفى من مسرات .

وقد سلى هذا غافريك قليلا .

ولكن عندما فقدت العمرة نهائيا كل شكل لها واكتفيا من ذلك عاد غافريك مكتئب النفس وقال فجأة بقسوة مفتعلة :

ـ اسمع يا بيتيا ! هات لى قطعة من الخبز وقطعتين من السكر لآخذها الى جدى .

— وأين هو ؟

— فى مخفر الشرطة .

حملق بيتيا فى وجه صديقه ولم يدرك من الأمر شيئا .

ابتسم غافريك متجهما وبصق على الأرض .

— لماذا تنظر الى هكذا ؟ ألا تفهمنى ؟ أنت ولد ؟ لقد اقتيد جدى الى مخفر الشرطة البارحة . يجب على أن أحمل اليه صرته .

استمر بيتيا لا يفهم شيئا .

كان قد سمع أنه يسجن فى المخفر : السكارى المعربدون واللصوص والمشردون . ولكن ما دخل جد غافريك ؟ ان هذا تجاوز مدى فهمه .

كان بيتيا يعرف حق المعرفة العجوز ، اذ كثيرا ما جاء لزيارة غافريك على الشاطىء .

كم من مرة أخذه الجد مع غافريك الى عرض البحر لصيد سمك القد ! وكم من مرة قدم له من شايه الخاص العبق الذى تفوح منه رائحة الدخان قليلا أيضا . وكان لا يفوته أن يعتذر : « سكر ، لا ، ليس عندى » وكم من مرة أصلح وضع رصاص الشص لبيتيا وأراه كيف يجب أن يعلق الخيط .

وكم عنده من ذخيرة مسلية من الأمثال الأوكرانية لجميع مناسبات الحياة ! وكم من حكاية من أزمنة الحملة التركية ، وكم من نادرة عن الجنود يعرف !

كثيرا ما كان يحتبى ويضع رجلا على رجل ويرقع الشبكة بمسلة من الخشب ويحكى ويحكى حكايات لا نهاية لها . كان المرء يشعر بالألم من فرط ما يضحك . كان يحكى حكاية الجندى الذى طهى فأسا فى القدر وحكاية المدفعى الذى دخل الجنة مباشرة ، وحكاية الوصيف الذى خدع الضابط السكران بمهارة .

ان بيتيا لم ير قط رب بيت لطيفا وكريما مثله . كان يقص الحكايات ولكنه كان يجد متعة أيضا وفرحة فى الاستماع الى الآخرين .

وعندما كان يحدث لبيتيا أن يبدأ بسرد حكاية فيتحمس ويحرك ساعديه ويقول أكاذيب كان الجد يصغى اليه وهو جالس بهدوء مستحسنا ما يقوله بهز رأسه برصانة .

— ولم لا ؟ انها أشياء يمكن أن تحدث !

ورجل مثل هذا يؤخذ الى مخفر الشرطة ! هذا شىء لا يمكن تصديقه !

— ولكن لماذا هذا ؟ لماذا ؟

— هكذا !

تنهد غافريك بهيئة جادة مثل الرجال وظل لحظة صامتا وفجأة قال سرا وكتفه مستند الى صديقه :

— اسمع ...

وحكى لبيتيا ما حدث فى الليل .

لا جرم أنه لم يقل له كل شيء فلم يقل كلمة عن البحار ولا عن تيرتتى . لقد حكى أن ثلاثة رجال يطاردهم رجال الشرطة قد لجأوا الى كوخهم فى منتصف الليل . وكانت تتمة القصة تطابق واقع ما حدث تماما .

— حينئذ أخذ ذلك الجاسوس القذر يشد أذنى .

صاح بيتيا مهتاجا وعيناه تلمعان :

— لو كنت أنا لضربته ضربة شديدة وأريته نجوم الظهر !

آجاب غافريك متجهما وهو يمسك عمرة بيتيا من رفرفها ويخرطها فى رأس صديقه بقوة حتى ان أذنيه قد انفتحتا ، وقال :

— دعنا من هذه !

واسترسل فى حكايته . وكان بيتيا يصغى اليه مذعورا ، ثم سأله حينما انتهت الحكاية :

— ومن كانوا ؟ قطاع طرق !؟

ـ لماذا ؟ ألم أقل لك : رجال عاديون ، رجال من اللجنة .

لم يفهم بيتيا .

— من هم ؟

ـ أوه ! قبل أن يكلمك المرء يجب أن يأكل الخبز الاسود ! قلت لك رجال من اللجنة فهم اذن من اللجنة .

مال غافريك على بيتيا وأسر فى أذنه ورائحة البصل تفوح من فمه .

— الذين يقومون بالاضراب . رجال من الحزب . أتسمعنى ؟

ــ ولكن الجد لماذا ضربوه وأخذوه الى المخفر ؟

ابتسم غافريك بازدراء .

ــ ها قد عدت الى سالف أمرك ! لأنه أخفاهم ، يا فهيم ! أنا أيضا كانوا سيأخذوننى ولكنه لا يحق لهم ذلك لأننى صغير أتعرف كم يودع السجن من يخفى الناس ؟ أوه أوه ! ولكن أسمع .

خفض غافريك صوته وقال بأهدأ ما يسكن وهو ينظر فيما حوله :

ــ اسمع ، لن يبقى أكثر من أسبوع ان الآخرين سيهاجمون مخافر الشرطة فى أوديسا وسوف يلقى جميع الجواسيس فى البحر الأسود . قصف الله عمرى اذا كنت أكذب أقسم لك بالصليب الأقدس !

وبصق غافريك مرة أخرى تحت رجليه وقال بصوت مهتم بصوت رجل أعمال :

ــ اذن ستجلب لى هذا ؟

ركض بيتيا الى البيت وبعد دقيقتين عاد ومعه ست قطع سكر فى جيبه ونصف قطعة خبز أبيض تحت قميصه .

قال غافريك بعد ما أحصى عدد قطع السكر وراز الخبزة :

ــ هذا يكفى ! هل تأتى معى الى المخفر ؟

لم يكن المخفر بعيدا الا أنه كان محظورا تماما الذهاب اليه . واذا ببيتيا يشعر برغبة شديدة فى مرافقة غافريك .

وبدأ فى نفس الصبى صراع جديد مع ضميره واستمر هذا الصراع حتى وصل المخفر .

وحينما تغلب ضميره كان الوقت قد فات : وكان قد صار عند باب المخفر .

كانت الأشياء والأفكار المكتسبة كلها ، بصحبة غافريك ، تخرج عن نطاقها العادى لتظهر تحت ضوء ظل مجهولا حتى ذلك الحين . فقد انتهى أمر الطواحين القريبة عن أن تكون مدينة الأرامل واليتامى الكئيبة ، لتصبح ضاحية عمالية فى حدائقها زهور بنفسجية وأصبح الشرطى ثورا ، وظهرت حلقة فولاذية من قعر العمرة .

والآن جاء دور مخفر الشرطة !

ماذا كان فى خاطر بيتيا حتى ذلك الحين ؟ انه بناية كبيرة فى منعطف شارع ريشيليو وشارع الأسماك الجديد قبالة كنيسة القديس باتتيلمون . كم من مرة مر بيتيا أمام هذه البناية بترام الخيل .

ان ما لاحظه على الأخص هو برج عال مربع مع عامل المطافىء صغير فى الأعلى . كان رجل يلبس فروة خروف يرقب المدينة من الأعلى ليل نهار يسير فى شرفة صغيرة حول صار له عارضة . كان هذا الصارى يذكر بيتيا دائما بميزان أو الأرجوحة . كان يحمل دائما كرات صغيرة سوداء شئيمة كان يشير عددها الى المنطقة التى اندلع فيها الحريق . والمدينة كانت كبيرة جدا حتى ان النار كانت لا ينطفىء لها لهيب فى مكان .

وفى أسفل البرج كان يوجد مستودع المطافىء للحريق فى أوديسا . وكانت تظهر فيه عدة أبواب من الحديد .

ومن هنا كانت تنطلق فى بعض الأحيان صيحة الأبواق الحادة بينما تخرج وراء بعضها عربات مكدن عليها أربعة جياد مبقعة ذوائبها وذيولها بيضاء ترفرف فى الهواء .

كان الرتل المشئوم الأحمر للمطافىء يطير فى الطريق ويتعالى رنين جرس الانذار . وكانت ترف وراءه ألسنة اللهيب البرتقالية من المشاعل . كانت أضواء النيران تنعكس على الخوذات النحاسية وجثم على صدر المدينة غير المهتمة شبح المصيبة ، وما عدا هذا ما كان مخفر الشرطة ليبدو جديرا بالاهتمام فى نظر بيتيا .

ولكن مع غافريك .. تحول المخفر بضربة من عصا سحرية الى زقاق ضيق تطل عليه نوافذ السجن ذات الشباك .

هذا المخفر ، انه مجرد سجن .

قال غافريك :

— انتظرنى هنا .

واجتاز الطريق المبلل دون أن يشعر الشرطى به واندس من باب المخفر . كان بديهيا واضحا أن غافريك مألوف هنا أيضا .

بقى بيتيا وحده وسط جمهور ضئيل كان يقف هناك . انهم اهل المساجين الذين يتبادلون من الشارع أحاديث مع المساجين .

ما كان بيتيا يعتقد أن هذا القدر من الناس يمكن أن «يجلس» فى المخفر : كانوا لا يقل عددهم عن المئة .

ولكنهم لم يجلسوا جميعا . كان بعضهم يقف على حافة النوافذ ويده على شبك النوافذ المفتوحة والبعض الآخر كان ينظر من وراء ظهور الأوائل وهم يلوحون بأيديهم وبعضهم كان يقفز فى الهواء محاولا أن ينظر الى الشارع من فوق الرؤوس والأكتاف .

ولشد ما أدهش بيتيا أنه لم يكن هناك لصوص ولا سكارى ولا صعاليك بل على العكس أناس بسطاء عاديون مناسبون تماما شبيهون بهؤلاء الذين يمكن أن يراهم المرء كل يوم أمام المحطة وفى شارع لانجورون وفى حديقة الكساندروفسكى وفى ترام الخيل كان بينهم بعض الطلاب . وكان أحد المساجين يتميز بفروة سوداء قوقازية يلبسها فوق بدلة بيضاء ذات أزرار ذهبية . كان قد وضع يديه حول فمه وأخذ ينادى شخصا بين الجمهور بصوت أجش :

— قل من فضلك للجمعية ان الرفاق لوركيبانيدزه وكراسيكوف وبوريفوى قد أخذوا هذه الليلة من زنزاناتهم مع حوائجهم . أكرر : لوركيبانيدزه وكراسيكوف وبوريفوى ! هذه الليلة ! نظموا احتجاجا عاما . تحياتى الى الرفاق !

وكان رجل بجاكيت وقميص ذى ياقة محلولة الأزرار يشبه بعض الشبه تيرنتى ، يصيح من نافذة أخرى :

— قل لسيريوجا أن يذهب ليقبض أجرتى من المكتب !

وكانت ترتفع أصوات يقاطع بعضها بعضا :

— احذروا أفاناسييف ! أتسمعنى : احذروا أفاناسييف !

— سجن كولكا فى مخفر البولفارد !

— عند بافيل ايفانيتش فى الصندوق الخشبى وراء الخزانة !

— لا أبعد من يوم الأربعاء !

وكان الأهل بدورهم يصيحون وهم يرفعون فوق رؤوسهم سلالا وأولادا .

كانت امرأة تمسك بين ذراعيها فتاة لها قرطان يشبهان كل الشبه قرطى موتيا .

كانت تصيح :

لا تقلق علينا ! ان الأصدقاء لن يتخلوا عنا . لقد أكلنا بشكل كاف . يمكنك أن ترى ابنتك فيروتشكا بصحة جيدة !

وفى بعض الأحيان كان يقترب شرطى من الجمهور ويداه على غمد السيف .

أيها السادة ! أقول لكم بأدب : ممنوع الوقوف أمام النوافذ والتحدث مع المساجين .

ولكن سرعان ما يرتفع الصفير والشتائم والصيحات من النوافذ وينهال قشر البطيخ وبقايا الذرة والخيار على الشرطى .

وغد !

— ثور !

— اذهب وحارب اليابانيين !

وكان الشرطى ، — وسيفه تحت ذراعه — يعود بتؤدة الى الباب كأن لم يحدث شىء كلا !

ان كل شيء فى هذه الدنيـا ليس على ما يرام ، والظواهر خداعة . عاد غافريك متجهما غاضبا .

— هل رأيت جدك ؟

لم يجب غافريك بشيء . وعاد الصديقان أدراجهما . وقف غافريك أمام المحطة .

قال وهو يمسح خديه بكمه الممزق :

— انهم يضربونه كل يوم ضربا مبرحا . مع السلامة !

وسار غافريك

— أين ذاهب ؟

— الى الطواحين القريبة !

اجتاز بيتيـا ساحة كوليكوفو وعـاد ببطء . كانت الريح تسوق سحب الغبار الجاف الذى يزهق النفس .

شعر الصبى بالحزن شـديدا حتى ان الخرطوشة الفـارغة المدهوسة والتى التقطها أثناء الطريق لم تبعث المسرة فى نفسه !

٣٠

تلميذ فى الصف التحضيرى

حل الخريف !

وذهب بيتيا الى المدرسة الثانوية . ان الصبى الكبير الأسمر ذا الساقين الطويلتين المغلفتين بجورب متين حالما ارتدى بزته

أصبح تلميذا اعداديا رأسه حليق وأطلق عليه اسم « **قرد** » فى لغة المدرسة .

كان البنطلون الطويل من الجوخ وجاكيت البزة التى اشتريت بستة وثلاثين روبلا من مخزن البدلات لاندسمان غير مريحين . فالياقة الخشنة كانت تحك جلد رقبته الغض بعد ما اعتاد على ياقة قميص البحرية العريضة .

حتى الحزام ، حزام مدرسة ثانوية حقا ذو ابزيم معدنى لم يبرر هذا الأذى ، على الرغم من تحمس بيتيا له بعد العبرة . فقد كان الحزام يرتفع دائما تحت ذراعيه والصفيحة تنحرف جانبا وطرفه الحزام الحر يتهدل ويتدلى .

ان هذا الحزام ما كان يضفى على صاحبه مظهر الرجولة الذى كان الصبى يعتمد عليه كثيرا ، بل كان يستدعى على الدوام اقتباها مخزيا فيصبح غرض سخرية الكبار .

ولكن ما أعظم الفرحة غير المتوقعة بشراء الدفاتر والكتب والقرطاسية المدرسية !!

وما أكبر الفرق بين المكتبة ذات المظهر المهيب الهادىء وسائر المخازن التافهة فى شارع ريشيليو أو الباساج ! قد تكون هذه المكتبة أكثر مهابة من الصيدلية أو على الأقل لها هيئة علمية أكثر .

ثم ان لافتتها الضيقة المتواضعة « تربية » كانت توحى بشعور من الاحترام العميق .

ذهب اليهــا بيتيا مع أبيــه فى أمسية قاتمة من أمســيات الخريف، .

كانت المــكتبة المملكة الهاجعــة للمجلدات ذات الأضواء المنعكسة المخضرة مثل الجامعة ، وكانت مضاءة بمصابيح الغاز ومزدانة برؤوس ملونة لممثلى الأجناس الأربعة : الأحمر والأصفر والأسود والأبيض .

كانت الرؤوس الثلاثة الأولى تطابق تماما لون أجنــاسها . فالهندى كان أحمر فعلا والصينى كان يشبه لونه لون الليمون والزنجى كان لونه أشد سوادا من القطران . ولم يجعــل فرق الا لممثل الجنس الأبيض ، الجنس المسيطر : فلم يكن أبيض بل انه متورد له لحية صغيرة شقراء . كان بيتيا مبهورا يتفحص الكــرات الزرقاء التى تقطعها خطوط طــولانية من النحاس ، والخرائط السوداء لسماء النجوم ولــوحات التشريح المريعة واللامعة بشكل عنيف .

ان كل حكمة الكون المركزة فى هذا المخزن كانت تبــدو كأنما قد نفذت الى مسام الزبون . عاد بيتيا الى البيت فى ترام الخيل وهو يشعر أنه مثقف جدا بعد هذه الزيارة على الرغم من أنه لم يبق فى المكتبــة أكثر من عشر دقائق ولم يشــتر سوى خمسة كتب كان ثمن أضخمها اثنين وأربعين كوبيكا .

وقد اشترى له محفظة تحمل على الظهر حقيقيــة من جلد العجل ذات وبر مقلوب وسلة للطعام .

ثم اشترى مقلمة زين غطاؤها اللمـــاع بصورة جميلة . وكان هذا الغطاء يصر عنـــدما يمرر فى فرضتى المقلمة منسحبـــا على شاكلة بيضة عيد الفصح الخشبية . ملأ بيتيا جميع أقسام المقلمة بالأشياء المخصصة لها ، وقد فعل ذلك بمنتهى الذوق والعنـــاية حريصا بوجه خاص على ألا يبقى قسم فارغ .

فوضع هنـــا ريشات من كل نوع : الريشـــة الزرقاء ذات الثقوب الثلاثة و « ريشة الغراب » والريشة المستديرة وريشة «٨٨» وريشة « بوشكين » التى عليها رأس الشـــاعر المشهور وكثير غيرها .

وبعد ذلك المحاة وقد طبع عليها فيل ثم المدعكة وقلمان : واحد للكتابة وواحد للرسم وموس صغير لماع ومسكة ريشـــة نفيسة ثمنها عشرون كوبيكا ! ومعجونات للختم من كل الألوان ومسامير كباسة ودبابيس وصور صغيرة .

ما أعظم ارتياح هذه اللوازم المدرســية اللمـــاعة والجديدة والأنيقة والدقيقة !!

أمضى بيتيا سهرة بكاملها ليغلف بعناية كتبه ودفاتره بورق أزرق خاص كان يلصقه بمعجون للختم .

وكان يلصق فى زوايا ورق النشاف صورا صغيرة . وكانت باقات من الأزهار وصور الملائكة اللمـــاعة تشـــد على أشرطة حريرية صغيرة .

وفى نهاية الأمر كتب بعناية على جميع الدفاتر :

دفتر

بيـــوتر ياتشى
تلميذ فى الصف التحضيرى
فى ثانوية أوديسا الخامسة

انتظر بيتيا الصباح بفارغ الصبر . كان الليل ما يزال يخيم على الباحة تقريبا ، والمصباح ما يزال مشتعلا حينما سارع الصبى الى المدرســة مجهزا من رأسه حتى قدميه كأنما هو ذاهب الى معركة .

ويل للعلم ! انه لن يصمد أمام هجومه ! لقــد انكب على تنظيم مواده العلمية خلال ثلاثة أسابيع بصبر طويل وذلك فى المدرسة والبيت . كان فى كل لحظة ينزع الصور الصغيرة ويعيد لصقها ويغير غلاف الورق لكتبه ويبــدل الريش فى المقلمة كى يتوصل الى أوج الجمال والكمال .

وعندما قالت له خالته :

— لعلك تحسن صنعا اذا تعلمت دروسك !

نهد بيتيا قائلا :

— أوه يا خالتى ! انك تقولين حماقات ! كيف أستطيع أن أتعلم دروسى عندما لا تكون لوازمى على ما يرام من النظام .

والخلاصة ان كل شيء هو كما يجب .

كان شيء واحد يكدر فرحة بيتيا : انه لم يسأل مرة واحدة بعد وما زال لم يحصل على علامة فى سجله . ان جميع التلاميذ تقريبا كانت لهم علامات ما عدا بيتيا .

كان كل يوم سبت يجلب سجله فارغا المغطى بورق الورد والمزين بالنجوم الذهبية والفضية والنياشين والعلائم الملونة بألوان متعددة أما هو نفسه فكان يحمله كئيب النفس . غير أن بيتيا فى يوم من أيام السبت دخل مسرعا الى غرفة الطعام ولم يخلع ثيابه وهو منفعل محمر يفيض بهجة وهز سجله الجميل وصاح بأعلى صوت :

— يا خالتى ! يا بافليك ! يا دونيا ! تعالوا الى هنا بسرعة ! لقد حصلت أخيرا على علامات ! آه ! يا للخسارة ان بابا ليس هنا !

وألقى السجل على الطاولة بازدهاء ، وابتعد بهيئة يشوب اعتزازها التواضع كأنه لا يود أن يحول دون تفحص العلامات . فصاحت الخالة التى سارعت وفى يدها نموذج تفصيلة :

— هلموا ننظر قليلا ! هلموا ننظر قليلا ! أرنى هذه العلامات .

— ديانة : ٢ ، لغة روسية : ٢ ، حساب : ٢ ، انتباه : ٣ ، اجتهاد : ٣ ، أنا لا أفهم علام سرورك ؟ كل علاماتك اثنان !

ضرب بيتيا برجله حانقا : وصاح والحزن يشيع فى صوته :

— أعرف جيدا أن هذا هو هكذا ! أنت لا تفهمين يا خالتي ! الشيء المهم هو أن في السجل علامات ! أتفهمين : توجد علامات ! وأنت لا تريدين أن تفهمي ... هذا شأنك دائما .

تناول بيتيا مغتاظا سجله الشهير ونزل الى الباحة بسرعة ليرى علاماته لرفاقه .

وهنا انتهت أول فترة مرحة من دراسة بيتيا . وابتدأت بعدئذ الحياة القاسية اليومية ، تلك الفترة المملة التي كان مضطرا فيها الى البصم .

كان غافريك قد غاب ، وانهمك بيتيا بحياته المدرسية فكاد ينساه .

كان غافريك هو أيضا قد نسي وجود بيتيا الى حين . كان يسكن حينذاك في حي الطواحين القريبة مع تيرنتي .

كان الجد ما زال مسجونا . فكانوا يودعونه طورا في مخفر الشرطة في حي الكساندروفسكي وطورا آخر في مخفر البوليس السري الذي كانوا يأخذونه اليه بالعربة في الليل . ولكن العجوز كما يظهر كان لا يفوه بشيء لأن تيرنتي لم يمسه أحد حتى ذلك الحين .

ما كان غافريك يدري أين استقر البحار . ولم ير من الضرورة أن يسأل تيرنتي ، بيد أنه استطاع أن يفهم من بعض الدلائل أن البحار في مكان أمين في الضواحي .

كانت توجد في الطواحين القريبة سراديب ومخابيء كثيرة

يستطيع المرء أن يندس فيها ويتوارى ويغيب ! وكان يوجد فى حى الطواحين القريبة كثير من هؤلاء الناس يكمنون بعض الوقت مختبئين .

ما كان من عادة غافريك أن يدس أنفه فى شئون الآخرين . فهو نفسه كانت لديه المشاغل الكثيرة .

كان تيرنتى وأسرته يمرون بأيام عصيبة . فعمال السكة الحديدية كانوا مضربين طيلة الوقت تقريبا . وكان تيرنتى يشتغل أشغالا شتى ليسد رمق عياله . ولكن الأعمال كانت قليلة نادرة وكانت الشئون الماسة التى ما كان الكلام يجرى عنها فى أسرته الا بالاشارة ، تستغرق وقتا كثيرا .

كان فى وسع المرء أن يقول ان تيرنتى ما عاد فارغا أبدا . كان بعض الأشخاص يأتون اليه فى لجة الظلام واذ ذاك ما كان ليقول كلمة ، بل كان يرتدى ثيابه ويذهب فى بعض الأحيان لمدة أربع وعشرين ساعة .

كان فى البيت على الدوام أناس غرباء يقدم لهم الشاى والحساء . وما كانت آثار طين الخريف لتزول من الردهة ، وقد كان عمود من دخان الماخوركا يتصاعد فى البيت .

تضايق غافريك من أن يعيش على نفقة أخيه الذى يعيل أسرته ، فكان مضطرا الى السعى وراء رزقه بنفسه . انه لم يعد ولدا صغيرا ! ثم عليه أن يحمل صررا الى جده السجين . حقا انه بدون جده لا يمكن أن يفكر بالصيد ، لا سيما أن العواصف كانت تهب طيلة تلك الأيام .

ذهب غافريك الى الشاطىء ، وجر القارب الى جيرانه وأغلق الكوخ بالقفل .

كان يقضى وقته طيلة النهار فى التسكع فى المدينة ، ينتعل حذاء عتيقا لتيرنتى ، ساعيا وراء الرزق . كان أيسر شىء لديه أن يستجدى من المارة ، ولكنه آثر أن يموت جوعا ولا يمد يده الى المارة يطلب صدقة . لقد ثارت نخوته كصياد عندما خطرت له هذه الفكرة وحدها .

لا ! كان قد اعتاد أن يكسب قوته بالكد . فقد كان يعرض خدماته على الطباخات ليحمل لهن السلال من السوق الى البيت بكوبيكين . وكان يساعد الحمالين فى محطة الشحن فى أوديسا ، وكان يقدم خدمات صغيرة الى الحوذيين الذين لا يحق لهم أن يتركوا عرباتهم والا وقعوا تحت طائلة الغرامة : فكان يذهب ليجلب لهم قدحا من الخمرة من الحانة التابعة للدولة .

الا أنه حينما كان غافريك لا يجد عملا ، ويعض الجوع أحشاءه ، كان يقصد كنيسة المقبرة وينتظر ميتا ليجمع حفنة من « الكوليفو » الطعام الجنائزى المؤلف من الرز المسلوق المرشوش فوقه سكر ناعم والمخلوط بقطع مربعة بنفسجية من معجون الفواكه .

كان توزيع الكوليفو فى الجنازات عادة متبعة فى أوديسا . وكان شحاذو المقبرة يستفيدون من ذلك استفادة كبيرة . فكان بعضهم يسمن كثيرا . ولكن الشحاذين ما كانوا وحدهم يأكلون

الكوليفو فقد كان جميع الذين يحضرون الدفن يأكلون منه ، ولم يكن غافريك ليجد هذا أمرا مهينا اذا استفاد من هـذه العادة ، ولا سيما أن المربعات الصغيرة من معجون الفواكه تصلح أن تقدم حلوى الى أولاد تيرنتى ، وبدون ذلك يشق على نفس غافريك أن يأتى لينام عندهم .

وفى بعض الأحيان كان تيرنتى يرسله ليحمله صرة الى أحد العناوين الذى يجب عليه أن يحفظه غيبا . اذ أنه من الممنوع منعا قاطعا تسجيله على ورقة . كان غافريك يحب هذه المهام المرتبطة بالأمور التى تشغل كل وقت تيرنتى .

والصرة ـ كانت فى أغلب الأحايين أوراقا ـ كان غـافريك يدسها فى أعماق جيبه ويسوى السطح البارز . وكان يعرف أنه اذا وقع « حادث » فعليه أن يقول انه التقطها من الطريق .

وكان الشخص المرسل اليه حينما يعثر عليه ، يجب أن يقول له أولا : « مرحبا يا عم ، تبلغك صـوفيا ايفانوفنا تحياتهـا الطيبـة » . وعلى الشـخص أن يرد : « وكيف حال صـوفيا ايفانوفنـا » ؟ وحينذاك ـ وليس قبلئذ ـ يستطيع أن يسلمـه الصرة ! وفى كثير من الأحيان كان الشخص الذى يستلم الصرة يعطى الصبى عشرة كوبيكات « ليركب العربة » .

كم كانت هذه المهام مخيفة وممتعة !!

ففى نهاية الأمر كان غافريك يكسب دراهم اذ يلعب بلعبة « الآذان » . كانت موضة هذه اللعبة شاعت منذ وقت قريب .

فالأولاد حتى الرجال كانوا يولعون بهذه التسلية . وقد كانوا يسمون أزرار بدلات مختلف الدوائر العامة التى لها حلقـة ملحومة من الداخل « آذانا » .

كان اللاعبون يكومون الآذان وكان كل واحد بدوره يضربها بزر خاص يسمى « المضرب » محاولا أن يقلب الأزرار المكومة الى الوجه الذى نقش عليه نسر . وكل أذن تنقلب على هـذا النحو تعتبر مكسوبة .

لم تكن هذه اللعبة أكثر صعوبة أو متعة من سائر اللعبات ، ألا أنها كان لها سحر خاص شيطانى : اذ كانت للأزرار قيمـة مالية . فكان يمكن أن تباع وتشرى وكان لها رصيد فى بورصة الشارع .

كان غافريك لاعبا مبرزا كانت ضربة يده قوية صائبة وعينه محكمة . وسرعان ما اكتسب شهرة البطل . كان لديه كيس ملىء دائما بأغلى أنواع الآذان . وعندما كانت أمور معيشته لا تستقيم كان يبيع قسما من احتياطه .

ولكن كيسه ما كان يفرغ . فقد كان فى اليوم التالى يكسب أكثر من الآذان التى باعها بالأمس .

وهكذا فان ما كان تسلية للآخرين أصبح نوعا من الحرفة التى تدر الربح على غافريك . ما العمل ؟ فقد كان من الواجب عليه أن يجتاز المحنة .

٣١

نعش على المدفع

كانت أحداث خطيرة تقترب . وكان يخيل للمرء أنها تتقدم ببطء شديد بالرغم من أنها كانت تتلاحق بسرعة غريبة .

كان غافريك ـ وهو يسكن حى الطواحين القريبة ـ يعرف جيدا هذا الشعور من الانتظار لوصول قطار مندفع بسرعة الريح .

هذا القطار مايزال بعيدا جدا ، فلا يرى له أثر ولا يسمع له صوت ولكن رنينا طويلا فى محطة الشحن بأوديسا يعلن قدومه . فالطريق شاغر والملوح مفتوح والسكة الحديدية تلمع ساكنة . والصمت يطبق على كل ما حولها . على أن جميع الناس يعرفون أن القطار سيأتى وما من قوة تستطيع أن توقفه .

هبط الحاجز القاطع ببطء أمام الممر وسارع الأولاد لتسلق سياج المحطة وغادرت أسراب العصافير الخائفة الأشجار وحومت فوق قسطل الماء . لعلها من هناك كانت ترى القطار .

ووصل من بعد صوت بوق فاتح المقص وهو لا يكاد يبين ، واذا بضجة خفيفة تعكر صفو السكون دون أن يلاحظ ذلك . وفى الحقيقة ما كانت هذه ضجة . انها تحسس الضجة ،

ورجة ناعمة من السكة مفعمة بضجيج لا يدرك ، الا أنها مع ذلك رجة وصوت وضجة .

ها هى ذى نفثات البخار البطيئة تستبين بوضوح وكل نفثة أوضح من السابقة .

ومع ذلك فان المرء لا يكاد يصدق أن القطار السريع سيمر بعد دقيقة مثل خطف البرق ولكن ها هى ذى القاطرة مغلفة بسحابة من البخار تبدو أمام العين فجأة . يبدو انها واقفة ساكنة فى آخر الممر الأخضر .

أجل لقد توقفت وهذا أكيد .

ولكن لماذا تتعاظم تعاظما قويا فى كل لحظة ؟ ما عاد لدى المرء وقت للاجابة على هذا السؤال .

مر القطار السريع بعنف فى اعصار مدوخ من الدواليب والنوافذ والأسطحة والنوابض والمصادم وهو ينفث البخار على الجانبين ..

هام غافريك على وجهه فى المدينة طيلة النهار ولم يكن ليستطيع أن يصم أذنيه عن دنو الأحداث . كانت ما تزال فى الطريق – ربما فى منتصف الطريق بين اوديسا وسانت بطرسبورغ . الا أن ضجة غير مسموعة بل موهومة من حركة كانت تختلط بسكون الانتظار .

وفى الشوارع كان الجرحى ذوو لحى يمشون متأرجحين على عكازاتهم الجديدة وعلى رؤوسهم قلانس منشوريا من

فرو ومعاطفهم ملقاة على أكتافهم وصدورهم محلاة بوسام سانت جورج .

كان العمال القادمون من روسيا الوسطى يروجون شائعات عن الاضراب العام . وفى الجماهير المحتشدة حول مخافر الشرطة كانوا يتحدثون عن أعمال العنف . وكان يجرى الكلام عن الحرية بين الجماهير التى تطوف حول الجامعة ومعهد النساء العالى وكان يجرى الكلام عن تمرد مسلح بين الجماهير التى تدور حول مصنع « غين » .

وذات يوم فى أواخر شهر سبتمبر دخلت باخـرة بيضـاء كبيرة المرفأ : كانت تحمل جثمان الجنرال كوندراتينكو الذى قتل فى بور — آرثور * .

كان الصندوق الضخم الذى يزن طنا والـذى يحتـوى النعش الرصاصى ، قد سافر طيلة عام تقريبا فى البرارى والبحار الأجنبية قبل أن يصل الى الوطن .

وهناك فى المرفأ وضع الصندوق على مدفع وأخذ الى المحطة عبر شوارع أوديسا العريضة .

رأى غافريك موكبا حزينا تسـطع عليه شمس سـبتمبر الضعيفة : أثواب الكهان الجنائزية والفرسـان ورجال الشرطة الذين يلبسـون قفازات بيض وأشرطة سـود تجلل فوانيس الشوارع .

---

* كوندراتينكو رومان ايسيدوروفيتش (١٨٥٧ ـ ١٩٠٤) . جنـرال ـ لفتينانت بطل الدفاع عن قلعة بور ـ آرثور . وطنى روسى . أحبه الجنود .

وكان القبارون على رؤوسهم قلانس سود ذات أشرطة فضية يحملون فى أطراف عصيهم فوانيس زجاجية تتذبذب فيها فتائل الشموع الموقدة والشاحبة التى لاتكاد تبين فى ضوء النهار .

كانت الجوقات العسكرية تعزف ببطء ودونما انقطاع وتختلط أنغامها بترانيم كنسية .

كانت أصوات أولاد حادة لا تطاق الا أنها مع ذلك منسجمة انسجاما أليما ، ترتفع الى عنان السماء وترتعش تحت قباب أشجار الأكاسيا الذاوية . وكان شعاع باهت من الشمس يخترق دخان البخور البنفسجى . وكان المدفع الذى يعلوه الصندوق الأسود مثقلا بالأكاليل والأشرطة الحريرية يتقدم ببطء ، ببطء جدا وسط شارع بوشكين المحفوف بالجنود من جانبيه .

وعندما بلغ الموكب حديقة المحطة برز طالب على سياج الحديقة . لوح بقبعته الجامعية فوق رأسه المشعث وصاح :

— يا رفاق !

كان صوته فى هذا الحشد الضخم الصامت يبدو خافتا لا يكاد يبين . ولكن الكلمة التى أطلقها : « يا رفاق ! » كانت لا تصدق أبدا ، غريبة جريئة حتى جميع الناس قد سمعوها والتفتت جميع الرؤوس صوب الشبح الصغير الذى كان متشبثا بسياج الحديقة الضخم :

— يا رفاق ! لا تنسوا بور — آرثو ! لا تنسوا تسوسيما !

لاتنسوا يوم تسع يناير الدامى !* ان القيصر وطغمته قد جروا العار والخـراب والبؤس على روسيا بشـكل شنيع ! ولكن الشعب الروسى العظيم حى وسيبقى حيا ! فليسقط الاستبداد !!

كان الشرطة قد انتزعوا الطالب عن السياج ولكنه كان معلقا رجليه بالسياج يلوح بقبعته ويصيح مسرعا متحمسا يود أن ينهى خطابه مهما كلف الأمر :

— فليسقط الاستبداد ! عاشت الحرية ! عاشت الثـ ...

رأى غافريك أنهم كانوا يجرونه ممسكين بيديه .

كانت أصوات النواقيس الجنائزية تتعالى فى سماء المدينة . وكانت نعال الخيل تقرع بلاط الشارع .

---

* قلعة بور ـ آرتور (فى شبه جزيرة لياودون) أجرتها الصين فى سـنة ١٨٩٨ لروسيا لمدة ٢٥ سنة • وقد كان هجـوم غادر قامت به مدمرات اليـابان دون اعلان الحرب على العمارة الروسية فى بور ـ آرتور بداية الحرب الروسية ـ اليابانية سنتى ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ • فى سنة ١٩٠٤ سلمت القيادة القيصرية المأجورة هذه القلعة بغدر الى اليابانيين •

اما معركة تسوسيما البحرية فجرت فى مايو (آيار) سنة ١٩٠٥ فى منطقة جزيرة تسوسيما بين العمارة الروسية والاسطول اليابانى • ورغم بطولة الجنود الروس المنقطعة النظير منيت العمارة الروسـية بهزيمة نكراء بسبب القيـادة العاجزة • وقد ساعدت هذه الهزيمة ازدياد الحركة الثورية فى روسيا •

٩ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٠٥ (« الاحد الدامى ») هو يوم أطلقت الحكومة القيصرية فيه الرصاص على مظاهرة عمال بطرسبورغ السلميـة وقتلت عددا كبيرا من النـاس • وهـذه المظاهرة نظمها البوليس القيصرى السرى باغراض اسـتفزازية •

ان حوادث ٩ ينـاير (كانون الثانى) كانت بداية ثورة سنوات ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ •

وضع النعش الذى يحتوى جثمان الجنرال كوندراتنكو فى عربة جنائزية معلقة بقطار سانت بطرسبورغ . وصدحت الموسيقى لآخر مرة . وارتفع صوت يقول :

— قدم سلاحك !

وتحرك القطار .

ومرت عربة القطار الجنائزية ببطء وراء حاجز الحراب المصطفة ، تحمل الصندوق الأسود وعليه اشارة الصليب . مر أمام محطة الشحن بأوديسا عبر الضواحى السود من الجماهير الساكنة وأمام المحطات والمواقف الصامتة وعبر روسيا كلها متجها الى الشمال الى بطرسبورغ . كان شبح الحرب الفاشلة يجوب روسيا مع هذا القطار الحزين .

كان بيتيا يشعر طيلة تلك الأيام كأنما حدث موت فى بيتهم . كانوا يمشون فى البيت بصمت ويتكلمون قليلا . وكان لدى الخالة منديل مدعوك موضوع على طاولة التواليت دائما . كان أبوه بعد العشاء مباشرة يغطى المصباح بعاكس النور الأخضر وهو صامت ويبقى يصحح الوظائف حتى وقت متأخر من الليل . كانت نظارته العالقة بأنفه تسقط كل حين فيفركها ببطانة جاكيته .

كان بيتيا يمكث صامتا ساكنا . كان يرسم فى دفتر الرسم ، ولكنه ما كان يرسم الكرات والمخاريط التى أخذها وظيفة بل معركة تورينتش والطراد « ريتيفيزان » بمقدمته الحادة وقد

احاطت به دفقات انفجارات الألغام اليابانية . الا أن بافليك كان لا يعتريه الكلل اذ كان يكدن دائما كودلاتكا الى كرسى مقلوب وينفخ بملء رئتيه فى بوق صغير من الصفيح المدهون ويقود الى الدهليز « جنازة كوندراتنكو » .

وذات مرة بينما كان بيتيا فى فراشه سمع بابا وخالته فى حجرة الطعام يتحادثان ؛ كانت الخالة تقول وهى تخن كأنما كانت مصابة بالزكام :

— مستحيلة ، مستحيلة الحياة .

ولكن بيتيا كان يعرف جيدا أنها بصحة حسنة .

فأصاخ السمع ، فأردفت الخالة بصوت حزين النبرات :

— الجو خانق تماما . ألا تحس بذلك ، يا فاسيلى بتروفيتش ؟ لو كنت مكانهم لتملكنى الخجل اذا ظهرت للناس ، ولكنهم — يا الهى — انهم يظهرون كأنما يقولون كل شىء على ما يرام . لقد رأيت فى الشارع الفرنسى — ولم أصدق عينى — جيادا مطهمة مبقعة ببقع رمادية تجر عربة فاخرة وعلى المقعد جندى يسوق العربة وله قفازان أبيضان . وكان ضجيج وصخب .. وسيدتان بوشاح ابيض عليه صلبان حمر وعليهما رداءان من جلد السمور وفى أصابعهما خواتم فيها ألماسات بحجم البندقة كل واحدة ، ومعهما منظاران وحواجبهما مزينة ، وعيونهما تلمع بحشيشة الحمرة ومعهما ضابطان أنيقان يحملان سيفين صقيلين والسيكارة بين أسنانهما البيض ، وهم يضحكون

ويمرحون .. هل عرفت من هم ؟ انهم السيدة كونبارس وابنتها مع عشيقيهما يذهبون الى « أركاديا » بينما روسيا غارقة فى الدماء والدموع . ما رأيك بهذا ؟ لا ، فكر قليلا : ألماسات بحجم البندقة كل واحدة ! ومن أين جاءت هذه الجواهر ؟ سرقوا ونهبوا وملأوا جيوبهم .. أوه كم أمقت هذه العصبة من الأوباش لا مؤاخذة . ان ثلاثة أرباع البلاد جياع ! مناطق بأسرها ترزح تحت كلكل الجدب والقحط لا أستطيع أن أرى هذا .. لا أستطيع أن أرى هذا ..

وسمع بيتيا نحيبا لاهثا :

ـ من فضلك يا تاتيانا ايفانوفنا .. ماذا نستطيع أن نعمل ؟ ما العمل ؟

ـ آه ، وهل أدرى ؟ نحتج ، نطلب ، نصيح ، ننزل الى الشارع ..

ـ أتوسل اليك .. فهمت .. ولكن قولى لى ماذا نستطيع أن نعمل ؟

صاحت الخالة بصوت حاد صاف :

ـ ماذا نستطيع أن نعمل ؟ كل شىء ، نستطيع كل شىء ، شريطة أن نريده ولا نخاف . نستطيع أن نقول للوغد أنت وغد ، فى وجهه ، وللص أنت لص وللجبان أنت جبان ، فى وجهه ، ولكننا ننزوى ونسكت ! يا الهى ! ما أقسى التفكير بما آلت

اليه روسيا من بؤس ! الجنرالات عاجزون والوزراء عاجزون والقيصر عاجز .

ــ أرجوك يا تاتيانا ايفانوفنا قد يسمعنا الأولاد !

ــ انه لشيء حسن أن يسمعوا . دعهم يعـرفوا فى أى بلاد يعيشون ! انهم سوف يشكروننا فيما بعد . دعهم يعرفوا أن لهم قيصرا غبيا سـكيرا ضرب بالخيزرانة على رأسه . يا له من نذل ! وأكرم الناس فى البلاد وأشرفهم وأعلمهم وأذكاهم يزجون فى غياهب السجون والمعتقلات ...

ذهب الوالد باحتـراس ليرى فى الحجـرة فيما اذا كان الولدان مستيقظين . أغمض بيتيا عينيـه وأخذ يتنفس تنفسا متساوقا عميقا متظاهرا بالنوم . مـال والده عليه ولثم خده بشفتيه المرتعشتين وخرج على رؤوس أصابع قدميه وأحـكم اغلاق الباب .

بقى بيتيا طويلا يسمع الحديث فى حجرة الطعام .

فلم يستسلم للنوم . كانت بعض الأشعـة من النور تضيء السقف اضاءة مخططة . وكان يسمع قرع نعال الجياد ، وكانت ألواح الزجاج ترتج ارتجاجا خفيفا .

كان يخيل للصبى طيلة الوقت أن عـربة السيدة كولبارس الفـاخرة تذهب وتجيء ، تلك المرأة التى سرقت من الخـزنة (هذه الخزنة التى كان يتصورها بشكل صندوق حديدى مركب فوق دواليب) كمية ضخمة من النقود والألماس .

٣٢

ضباب

فى هذا المساء انفتحت عينا بيتيا على كثير من الأشياء التى ما كان ليرتاب فيها .

فقبلئذ كانت توجد بالنسبة له أفكار معـروفة عامة راسخة الى حد أنه لا حاجة الى التفكير بها .

مثلا : روسيا ؛ فقـد كان من الواضح تماما ولا سبيل الى الجدال فيه أن روسيا كانت أفضل البلاد وأقواها وأجملها فى الدنيا . والا فلماذا يعيشون فى روسيا ؟

ثم بابا . كان بابا أذكى الرجال وأفضلهم وأشجعهم وأكثرهم علما فى الدنيا .

وبعدئذ القيصر . لا حاجة الى الكلام عن القيصر . القيصر هو القيصر ؛ أعقل الناس وأقواهم وأغناهم ؛ لأنه لو لم يكن كذلك فلماذا يملك روسيا هو بالتحديد ، وليس أى امبراطور أو ملك آخر ، مثلا ملك فرنسا ؟

ثم الله الذى يستحيل أن يقال عنـه شىء : هذا غنى عن البيان .

فماذا يجرى ؟ ان روسيا أشقى البلدان . فما عدا بابا ، كان

يوجد رجال آخرون من أفضل الفضــلاء يزجون فى غياهب المعتقلات والقيصر غبى ســكير ضرب على رأسه بالخيزرانة . أما الوزراء فهــم صفــر على الشمال ، والجنرالات كذلك . ليست روسيا هى التى سحقت اليابان ، ان الذى لا يرقى اليه الشك حتى ذلك الحين هو العكس ، فاليابان هى التى كسرت روسيا .

لقد كان بابا وخالته يتحــدثان عن ذلك وهذا شىء مهــم جدا ، غير أن بيتيا كان يخمن ذلك قليلا .

كانوا يزجون فى المخفر بأناس شرفاء ، أناس لا يسكرون ، حتى عجوز طيب مثل جد غافريك الذى ضربوه ضربا مبرحا . كان البحار قد قفز الى البحر . والجنــود أوقفوا العربة والحراس تمركزوا فى المرفأ وجسر الميناء قد أحــرق والدارعة قصفت المدينة .

لا ، ان الحياة — حقا — ليست مــرحة حلوة جميلة الى هذا الحد الذى كان يظن قبل وقت قريب جدا .

كان بيتيا يرغب أشد الرغبــة فى أن يسأل خــالته : متى وكيف ضرب القيصر بالخيزرانة على رأسه ؟ وعلى الأخص لماذا بالخيزرانة ؟ ولــكنه كان يدرك أن مثل هــذه الأمور يحسن السكوت عنها ويبدو بمظهر تجاهلها . الا أن الخــالة استمرت بكونها خالة لطيفة ساخرة عملية تحتفظ لنفسها بالعواطف التى ما عبرت عنها الا مرة واحدة بصراحة فى ذلك المساء .

وجاء شهر اكتوبر .

كانت أشجار الأكاسيا تكاد تكون عارية من أوراقها تماما .

وكانت العاصفة تزمجر في البحر .

كان الناس ينهضون ويلبسون ثيابهم على ضوء المصابيح .

لقد غشي الضباب المدينة أسابيع طويلة ، وكان الناس والأشجار يظهرون كأنما هم مرسومون على زجاج أغبش .

وكانت المصابيح تطفأ في الساعة التاسعة صباحا ايعاد اشعالها في الساعة الخامسة . وكان رذاذ المطر يهطل ، وفي بعض الأحيان كان المطر ينقطع وتسوق الريح الضباب . واذ ذاك يتقد شفق قان طويلا في السماء الصافية مثل المرآة وراء المحطة ، وراء السوق ، وراء خطوط السياجات ، وراء أغصان الأشجار الجرداء التي ملأتها أعشاش الغربان الكبيرة السوداء مثل قلانس منشوريا من الفرو .

كانت الأيدي تتجمد حينما يخرج المرء بدون قفازات ، وكانت الأرض صلبة وكان سكون رهيب فارغ شفاف يرف على السقوف . في هذه الساعات القلائل ساد السكون السماء والأرض . وكانت المدينة معزولة عن ساحة كوليكوفو بحاجز السكون الشفاف ، وتتراجع الى ما لا نهاية مع كل شائعاتها المروعة وأسرارها وانتظار الأحداث وكانت تبدو صافية وتكاد تكون شديدة وفي الوقت ذاته بعيدة بعدا لا نهاية له كأنما ينظر اليها من الثقب الصغير للمنظار .

ولكن الطقس كان يتعكر ، فالسماء تتلبد بالغيوم والضباب الكثيف يتصاعد من البحر فكان المرء لا يرى شيئا على بعد خطوتين . كان هذا مساء رهيبا داجيا يطبق ويخيم فوقه الليل .

وكانت رياح عاتية تهب من البحر ويتعالى صوت الصفارة من المرفأ مريعا تنقبض له النفس . كان يبدأ بأنغام جهيرة وسرعان ما ترتفع الى الحادة وتتعالى حتى تبلغ الزعيق الحاد والعذب فى آن واحد وتبعث الكآبة فى النفس بشكل شديد . كان يخيل للمرء ان هذا الدوى يحمل معه الموت ويغيب فى لجة العاصفة المظلمة .

كان بيتيا يخاف فى هذه الليالى أن يدنو من النافذة وينظر الى الشارع من انفراج المصراعين .

كانت فسحة ساحة كوليكوفو الواسعة والموحشة كلها غارقة فى غياهب الظلام وكانت ظلمة الضباب تلحم الساحة بالمدينة لحما متينا . وكان السر فى كل مكان . وكان يخيل للمرء أنه ينتقل انتقالا غير محسوس من فانوس الى فانوس وقد خنقه الضباب .

كانت تبدو أشباح بعض المارة القليلين تدب على الأرض ويسمع فى بعض الأحيان صفير طويل خافت من صفارة الشرطة يخترق أحشاء الظلام . وكانت الحراسة المشددة تقوم عند مدخل القيادة . وكانت الدورية تمر بخطى شديدة متزنة .

وفى كل ركن ـ لا ريب ـ كان يوجد شخص كامن ، وفى كل لحظة يمكن أن يقع شىء مفاجىء رهيب .

وبالفعل فقد حدث هذا مرة .

فقد كانت دونيا حوالى الساعة العاشرة مساء ذاهبة لجلب بترول من الحانوت فدخلت مسرعة الى حجرة الطعام وقالت بدون أن ترفع منديلها بأنه قبل خمس دقائق انتحر حارس فى الساحة عند أسفل سور القيادة . وأعطت تفاصيل مريعة : خلع الجندى فردة جزمته ووضع فوهة البارودة فى فمه وضغط على الزناد باصبع رجله الحافية . كان قفاه كله ممزقا . بقيت دونيا جامدة ممتقعة وشفتاها مزرقتان وهى لا تفتأ تربط وشاحها الدافىء وتحله .

ثم قالت :

ــ ثم يقال انه لم يترك حتى بطاقة . حتما انه لا يعرف الكتابة .

شدت الخالة على صدغيها بيديها شدا قويا جدا .

وصاحت ودموع الغضب تطفر من عينيها :

ــ أى بطاقة ! كل شىء واضح ! ...

ووضعت رأسها على غطاء الطاولة الى جانب الصفحة الصغيرة المليئة بالشاى حيث كانت تنعكس أصغر أجزاء المصباح المغطى بعاكس أبيض وهو صغير يترنح .

ومن نافذة المطبخ التى تشرف على مكان الحادث رأى بيتيا فانوسى عربة الاسعاف يرفان ويغيبان فى الظلام .

ارتعدت فرائص الصبى من البرد والذعر فمكث جالسا على حافة النافذة الباردة فى المطبخ الخاوى ووجهه ملتصق الى الزجاج الذى تسيل عليه قطرات المطر . ما كان يستطيع أن يحيد ببصره عن الظلام الذى كان ما يزال يظن انه يشعر بوجود الموت ..

مكث بيتيا طويلا حتى نام : وفى كل آونة كان يتخيل جثة الجندى الحافى ببدلة الحراسة الكاملة وقفاه محطم ووجهه أزرق ولا يحير بحركة بشكل غريب لا يدرك كنهه فيستولى عليه الذعر .

وفى اليوم التالى صباحا على الرغم من ذعره لم يستطع أن يتغلب على الرغبة المغرية لرؤية المكان الرهيب .

اجتذبته قوة خفية الى مكان الحادث فقد عرج عليه وهو ذاهب الى المدرسة فكان يمشى باحتراس كما يفعل فى الكنيسة ، على العشب العفن المبلل بمياه الأمطار والضباب واتجه الى المكان الذى كانت تقف فيه فئة صغيرة من المتفرجين .

رأى بيتيا الى جانب سور القيادة تجويفا محفورا فى الأرض الندية ، تجويفا بحجم رأس انسان ، مليئا بماء من المطر صبيغ صبغة وردية بالدم النازف الى الأرض . لا ريب أن رأس الجندى قد ارتطم هنا .

كان هذا كل ما يذكر بالفاجعة التى وقعت فى الليل .

رفع بيتيا ياقة معطفه المدرسي ووقف بعض الوقت بجانب الحفرة مرتعدا من الرطوبة . وفجأة أبصر عند قدميه دائرة صغيرة ، فالتقطها وارتعش من الفرحة . انها قطعة خمسة كوبيكات سوداء مبقعة وقد أكل التحات النسر ذا الرأسين .

انها لمجرد صدفة لا علاقة لها بحادث الليل . كان محتملا ان هذه القطعة بقيت هنا منذ الصيف ، وربما أضاعها أحد العمال الذين يلعبون بالطرة والنقش أو فقدت من شحاذة كانت تقضى الليل تحت شجرة . الا أن هذه القطعة اكتسبت فى عينى بيتيا أهمية شبه سحرية ناهيك عن الثروة الضخمة التى تمثلها : خمسة كوبيكات !

ما كان الوالد يعطى بيتيا دراهم . كان يحسب أن الدراهم تستطيع أن تفسد الولد بسهولة . ولذا فان لقية هذه الخمسة كوبيكات قد سحره .

ان هذا النهار الذى أضاءته هذه اللقية ما كان سوى عيد طويل .

كانت قطعة النقود تنتقل من يد الى يد فى الصف . كان بين رفاق بيتيا أناس خبيرون فى هذه الأشياء . كانوا يحلفون وهم يرسمون اشارة الصليب على صدورهم ورؤوسهم ملتفتة الى كنيسة القديس بانتيلمون أنها قطعة « لا تصرف » . وأنها الشقيقة الصغرى للروبل الأسطورى الذى « لا يصرف » . أنها لا بد أن تجلب لبيتيا ثروات لا تحصى .

ومقابل هذه التميمة قدم له أحد التلاميذ غداءه علاوة على سلة صغيرة وموس صغير . لا جرم أن بيتيا رفض وهو يقهقه عاليا . أتراه أبله حتى يقبل ! ؟

استخف الفرح بيتيا فـركض من المدرسـة الى البيت . كان يود أن يرى لقيته الى جميع أصدقائه .

وقد ابتهج اذ رأى غافريك فى الباحة جاثيـا الى الأرض والأولاد حوله جاثمـون . كان يعلمهـم اللعبة الجـديدة : « الآذان » .

وقبل أن يسلم سلامه المألوف على صديقه الذى مضى وقت طـويل لم يره فيه استولى ولع اللعبة على بيتيا . وابتـدأوا يلعبون لعبة « بآذان » غافريك . وقد شاق بيتيا هذا .

قال بيتيا وهو يمد يده المرتجفة من نفاد الصبر :

ــ يا غافريك أقرضنى عشرا لأبدأ وعندما أكسبها سأعيدها اليك . أقسم لك بالصليب الأقدس .

أجاب غافـريك متجهما وهـو يصب « الآذان » فى كيس صغير ثم يحكم ربطه بالخيط :

ــ لا تمسه ، ليس للبيع ! ان « الآذان » ليست مربعـات الورق المقوى انها ذات قيمة مالية . أبيعك اذا شئت .

لم يشعر بيتيا بالانزعاج ولم يحرد . فقد كان يعرف جيدا أن الصداقة مهما كانت فلكل لعبة أصـولها وقواعدها . فما دامت « الآذان » ذات قيمة مالية فعليـه أن يدفـع له دراهم ،

والصداقة لا شأن لها هنا . هكذا كان قانون الشارع الصارم .
ولكن كيف يفعل ؟

كان يشعر برغبة أليمة للعب ، واجتاحت نفس الصبى عاصفة عاتية فلم يتردد أكثر من دقيقة ، وضع يده فى جيبه وقدم الى غافريك قطعة الخمسة كوبيكات الشهيرة .

تفحصها غافريك بامعان وهز رأسه :

ـ ما من أحد يود أن يقبلها .

ـ ولكن بلى ! سوف تقبل .

ـ لن تقبل !

ـ يا لك من غبى !

ـ انت الغبى ... اذهب واصرفها عند العطار .

ـ اذهب انت .

ـ لا حاجة تقتضينى الذهاب ، فالقطعة لك !

ـ و « الآذان » لك .

ـ اذا كنت لا تريد ، فلا بأس .

ـ لا بأس .

ترك غافريك الكيس يسقط فى جيبه بهدوء وبصق بعيدا من بين أسنانه بدون اكتراث عن جانب منه . ركض بيتيا الى العطار ورجاه أن يصرف له قطعته . وبينما كان « بوريس دان من عائلة الجرذان » يحمل الى عينيه المريضتين قطعة النقود المريبة ، اجتاحت نفس الصبى جميع المشاعر المذلة ومن جملتها

الشعور الجبان بنفاد الصبر الذى يحس به اللص الذى يحاول أن يصرف ما سرقه .

لن يندهش بيتيا فيما لو جاء الدرك فى هذه اللحظة ودخلوا الحانوت مشهرى السيوف واقتادوه بعربة الى المخفر كشريك فى جريمة سرية مخزية .

وأخيرا ألقى « بوريس دان من عائلة الجرذان » القطعة فى جراره ووضع بدون تأثر خمس قطع فى كفة الميزان . سارع بيتيا الى العودة الى الباحة حيث كان غافريك يبيع آذانا لغيره من الأولاد . اشترى منه بيتيا بكل رأسماله بعض الأزرار من مختلف القيم .

وابتدأوا اللعب . كان بيتيا قد نسى كل شىء فى الدنيا .

كان الليل قد أظلم تماما فى الباحة عندما أضاع بيتيا آخر « أذن » . لشد ما أحزنه هذا اذ كان فى الأول يبتسم الحظ له ، وكانت الآذان التى كسبها تملأ جيوبه .

بيد أنه الآن حانت ساعة مندم ! ضاعت الدراهم وضاعت الآذان !

كاد بيتيا يبكى . فقد سيطر عليه اليأس والغم . أشفق غافريك على صديقه فأقرضه أذنين عاديتين ليجرب حظه . ولكن بيتيا كان مغرما جدا ومستعجلا جدا : فلم تمض خمس دقائق حتى خسر كل شىء . حقا ان منازلة غافريك لأمر صعب .

جمع الصياد الصغير غير مكترث كل أرباحه الكبيرة فى كيسه وذهب وهو يقول انه سيعود فى اليوم التالى .

٣٣

الآذان

ما أكثر ما كان يوجد ! ...

ذوات « العشرة » يعنى أزرار الطلاب المنتفخة وعليها نسور ملصوقة ، وذوات « الخمسة » وهى أزرار الضباط الذهبية وعليها نسور منقوشة ، والأزرار السمر لمعهد التجارة وعليها رمز اله التجارة قد التفت عليه الثعابين وقبعة صغيرة مجنحة خبيثة ، وأزرار كاشفة للبحرية عليها مراس متشابكة ، وأزرار موظفى البريد والبرق عليها صواعق وأبواق خضراء ، وأزرار جنود المدفعية المزينة بالمدافع ، وأزرار القضاة وعليها أعمدة القوانين وأزرار الخدم الكبيرة مثل قطع الخمسين كوبيكا مزينة بأسود وأزرار « الثلاثة » السميكة المخصصة لردنجوت الموظفين ، وأزرار الكتبة « الليمون » الناعمة جدا وذات الأطراف الحادة القاطعة وصوتها رقيق ، والأزرار الكبيرة العادية لمعاطف الطلاب ، فضية من الداخل وفى وسطها بقعة حمراء من العتق .

انها لكنوز خيالية : كل شعارات الامبراطورية الروسية قد تركزت بين يدى بيتيا فترة قصيرة سعيدة .

كانت راحتا الصبى ما تزالان تحسان بأشكال « الآذان »

المتعددة ، وأوزانها الثقيلة . ومع ذلك فقـد أفلس افلاسا تاما وجرد من كل ما معه . يا لقطعـة النقـود الاسطـورية التى لا تصرف !

ما عاد الصبى يفكر بغير الآذان ، لا شيء سوى الآذان . كانت تتراءى لعينيه باستمرار مثـل رؤيا ثروة لاحت له فى الحلم . وعلى المائدة كان ينظر ساهما فى صحنه وعيناه تبصران فى نقاط زيت الحسـاء ثلاثمئة عاكس مصبـاح على الأقل ، ان ما كان يراه هو ثلاثمئة أذن متلألئة مع نسورها الذهبية .

كان يتفحص بتقزز أزرار جاكيت أبيـه المغطاة بالجـوخ والتى ليست لها أية قيمة . لقـد لاحظ أخيرا أنه يعيش فى اسرة فقيرة : فلم يكن فى البيت كله زر مناسب .

وقد لاحظت الخالة هيئة الطفل الغريبة فسألته وهى تحدج وجهه الهائج بنظرة نفاذة :

ــ ماذا أصابك اليوم ؟ ربما ضربك أولاد الباحة ؟

أجاب بيتيا وهو يهز رأسه مغتاظا .

ــ أو ربما حصلت على علامات سيئة ؟ قل بصراحة فالقول أفضل لك من السكوت والتألم بصمت !

ــ لا يا خالتى ! لا أفهم لماذا تسألينني .

ــ ربما أنت مريض ؟ !

ــ أوه ! يا ربى ! يا ربى .

أخذ بيتيا ينتحب تحت لسع هذه الأسئلة .

— طيب افعل كما تشاء . اذا كنت لا تريد أن تقول ذلك فلا بأس . تألم !

وبالفعل كان بيتيا يتألم ويرهـق رأسـه : من أين يأخذ الدراهم ليلعب غدا . لقد نام غير مرتاح تقض مضجعه الرغبة فى استعادة ما خسره . وفى الصباح قرر أن يستعمل حيلة ذكية .

حام حول والده طويلا وبشكل حنون وهو يحك رأسه تحت مرفقه ولثم عنقه الأحمر ذا المسام الذى كان يبدو بهيا من تسريح الصباح . كان الوالد يمرر يده على شعر الطالب الواخز وضم رأس ابنه الى جاكيته ذى الأزرار غير المفيدة .

— ماذا تريد يا بنى بيتيا ؟

لشد ما كان بيتيا ينتظر هـذا السؤال ، هـذا الارتعاش الحنون فى صوت أبيه : الآن لن يرفض أبوه شيئا .

قال الصبى وهو يحتك بأبيه ويصلح حزامه بخجل مصطنع :

— بابا أعطنى خمسة كوبيكات !

سأل الوالد الذى لا يتخلى عن مبادىء التربية الصارمة حتى فى لحظات العطف والتدليل :

— وماذا ستفعل بها ؟

— محتاج اليها كثيرا .

— ولكن قل لى ما حاجتك بها ؟

— لا ، أعطنى اياها .

— لا ، قل لى . يجب أن أعرف بماذا ســوف تنفق هذا المبلغ . فاذا كان بشيء مفيد فسوف أعطيك الدراهم بلذة ولكن اذا كان غير مفيد فلن أعطيك شيئا . هيا قل لى : ما حاجتك بها ؟

كيف يستطيع بيتيا أن يقول لأبيه انه بحاجة الى الدراهم ليلعب بالقمار ؟ هذا مستحيل حقا !

تظاهر بيتيا بسذاجة الولد العاقل الذى يرغب أن يتلذذ . فقال بلطف :

— أود أن أشترى لوح شوكولا .

— لوح شوكولا ؟ عظيم ! يستحيــل أن تعــارض هذه الرغبة .

وأشرقت نفس بيتيا .

ولكن أباه ذهب الى مكتبه صامتا ففتحه وقدم الى الصبى المذهول لوح شوكولا وعلى الغلاف المختوم مثل الطرد البريدى بخمسة أختام شمع صورة متحركة .

تناول بيتيا لوح الشوكولا وتمتم والدموع فى عينيه :

— شكرا يا ابتاه !

وذهب الى المدرسة مكسور الخاطر !

ومع ذلك فهذا أحسن من لا شيء . يمكنه أن يبادل بلوح الشوكولا على الآذان .

غير أن بيتيا هذا اليوم لم تسنح له الفرصة ليلعب .

ما كاد يجتاز ساحـة كوليكوفو ويدخـل شارع الأسماك الجديد حيث تقع المدرسـة حتى آدرك أن حـادثا مهيبا سعيدا يجرى فى المدينة .

وعلى الرغم من أن الوقت كان صباحا فان الشوارع كانت تزدحم بالناس وكان الناس يبدون مهتاجين مشغولين مـع أنه ما من أحد يذهب الى شئونه . كانوا يحتشدون قرب الأبواب ويقفون فى مفترقات الطـرق حـول الأكشـاك . كان الناس يفتحون الجرائد فى كل مـكان وسرعان ما تتبلل برذاذ المطر وينقلب لونها أكثر سمرة .

كانت الأعلام الوطنية ترفرف فوق الأبواب بألوانها الأبيض والأزرق والأحمر . وقد اعتاد بيتيا أن يحكم على ثروة الملاك من هذه الاعلام . وكان بعض هذه الأعلام صغيرا حائل اللـون على عصى قصيرة مـربوطة كيفما كان بالباب . وكان بعض منها جديدا متوهجا كبيرا مزينا بشريط ملون بألوان ثـلاثة ولهـا شراريب فاخرة ذات ألوان ثلاثة متدلية حتى الرصيف .

كانت الريح لا تحرك هذه الرايات الثقيلة الصبيغة حديثـا الا بصعوبة . وجد بيتيا المدرسة مغلقة . ورأى طلابا فرحين يخفون عائدين . وكان كناس المدرسة يلبس صدارا أبيض فوق معطفه الشتوى ذى الياقة من جلد الغنم ، يمد سلكا دقيقا على طول الواجهة بين الأشجار . ستكون اذن اضاءة فى المساء ! فى

العادة لا يجرى هذا الا فى الأعياد الرسمية ، مثلا : عيد صاحب الجلالة الامبراطور .

هذه الكلمات الثلاث : اضاءة وأعياد رسمية ، عيد صاحب الجلالة الامبراطور كانت بالنسبة لبيتيا مثل الوجوه الثلاثة لبلور الثريا . كانت بلورات ثريات الكنائس يقدرها صبيان أوديسا كثيرا . كان يكفى المرء أن يلصق عينه الى هذا الموشور الصغير واذ ذاك تتلون الدنيا بألوان قوس قزح الوطنى « عيد القيصر » .

ولكن هل هذا عيد القيصر ؟ كلا ! ان عيد القيصر يعلن عنه بالتقويم مسبقا . ان رقم تقويم بابا اليوم أسود ، انه لا يعلن اضاءة ولا عيدا رسميا ولا عيد القيصر .

فماذا حدث اذن ؟ هل ولد وريث للقيصر كما فى السنة الماضية ؟ لا ! كل سنة ولد ليس هذا ممكنا ! هذا شىء آخر مؤكدا . فما هو اذن ؟

سأل بيتيا الكناس :

— ماذا يوجد اليوم ! ؟

فأجاب الكناس بطريقة بدت للصبى قليلة الرصانة :

— الحرية .

— لا ، أسأل بدون مزاح .

— أى مزاح ؟ الحرية قلت لك .

— كيف هذا ، الحرية ؟

— يعنى تستطيع اليوم أن تعود الى البيت لأنه لن تكون دراسة . لقد عطلت اليوم .

احتد بيتيا وقال بلهجة صارمة وهو يبذل جهده ليحتفظ بكرامته كطالب فى ثانوية أوديسا الخامسة :

— اسمع يا كناس أسأل سؤالا جديا .

— وأنا أقول لك قـولا جـديا : عـد الى أهلك الذين ينتظرونك بفارغ الصبر ولا تدس نفسـك بين أرجل الناس الذين يشتغلون .

هز بيتيا كتفيه بازدراء وابتعد بخفة عن هذا الكناس الذى اتخذ عادة سيئة بالتكلم مع الطلاب كما يفعل الناظر .

أما الشرطى الذى خاطبه بيتيا بعـدئذ باعتبـاره ممثـلا للسلطات ، فقد تأمل الصبى الأسمر من فوق ، ومسح شاربه الأشقر متريثا .

ثم اصطبغ فجأة وجه اليهودى تماما وقال مكسر الفاظه :

— الخورية !

ازداد امتعاض بيتيا وانزعاجه فعاد أدراجه الى البيت .

كان الناس يتزايدون فى الشـوارع . كانت تمـر قبعات الطلاب وأكمام فراء كاراكول للطالبات واللبادات ذات الأطراف العريضة « للمفكرين الأحرار » لقد سمع بيتيا عدة مرات هذه الكلمة « الحرية » التى ما كان يفهمها جيدا .

وأخيرا تركز انتباهه فى زاوية شارع الحبال على جمهور يحيط بورقة ملصوقة على جدار مستودع خشبى .
انسل بيتيا الى الصف الأول وقرأ :

بيان امبراطورى

نحن ـ بعون الله ـ نيقولاى الثانى امبراطور روسيا كلها وعاهلها ، قيصر بولونيا وامير فنلندا الاكبر ، الخ ، الخ ...

ان الفوضى والاضطرابات التى عمت العاصمتين وأماكن عديدة من امبراطوريتنا قد ملأت قلبنا بالألم العميق . وان سعادة امبراطور روسيا منوطة بشكل متين بخير شعبه وهموم شعبه هى همومه ، فالاضطرابات التى ابتدأت تجازف بتقطيع أوصال الامة وتهدد كمال سلطاننا ووحدته .
وان العهد العظيم الذى تضمنته رسالة القيصر يأمرنا بأن نحاول بكل قوى عقلنا وسلطاننا لنوقف بأسرع ما يمكن هذه الاضطرابات الخطيرة على أمن الدولة ...

قرأ بيتيا البيان حتى الجملة الأخيرة بشىء من المشقة . كان يتعثر بالكلمات الصعبة الغامضة « ملأت قلبنا » ، « التى ابتدأت » ، « يأمرنا » ، « لنوقف بأسرع ما يمكن » ، ثم الحروف الكبيرة المتعددة التى تنتهك حرمة جميع قواعد الكتابة فى الأماكن غير المتوقعة أبدا فيها ، مثل جذوع محترقة فى غابة ذهبت طعمة للنيران !

لم يفهم بيتيا سوى شىء واحد : وهو أنه من الواضح أن القيصر يمر بفترة عصيبة ويرجو أن يساعده كل واحد فى حدود طاقته .

شعر الصبى - والحق يقال - فى أعماق نفسه بشىء من الشفقة على القيصر المسكين لا سيما حينما خطر له انه قد ضرب بالخيزرانة على رأسه ذات مرة .

ولكن لماذا يبتهج الناس ولماذا تقام الزينات ؟ هذا شىء لا سبيل الى فهمه . قد يكون البيان يحتوى شيئا مفرحا فى النهاية ؟ غير أن بيتيا ليس لديه الانتباه الكافى ليقرأ رسالة القيصر الحزينة حتى خاتمتها .

لقد لاحظ مع ذلك أن جميع الذين اقتربوا من البيان بدأوا يفتشون فيه ، فى وسطه عن فقرة تسر بشكل خاص جميع الناس . هذه الفقرة كان كل واحد يقرأها عاليا ويصيح بنشوة الظفر وهو يلتفت الى جاره :

— أوه ! أوه ! انه لواضح وضوح الشمس : رعاية حرمة الشخص ، حرية الضمير والكلام والاجتماع والاتحادات .

وكان بعضهم لا يشعرون بحرج من وجوده فى الطريق ، فيهتفون : عاش ! عاش ! ويتبادلون القبلات كما يحدث عادة فى عيد الفصح . ولذا فقد شهد بيتيا أيضا مشهدا أثاره .

وقفت عربة فجأة قرب الجمهور وخرج منها سيد بقبعة جديدة «مخفوسة» ، بقفزة واحدة وقرأ بسرعة الفقرة الشهيرة من البيان وهو يضغط على أنفه نظارته ، وقبل الحوذى المذهول ثلاث مرات فى لحيته النحاسية الحمراء وتهاوى على العربة وهو يصيح بأعلى صوته : « سأعطيك خمسين كوبيكا بخشيشا ! أضرب يا نذل ! » وغاب بسرعة كما جاء !

وخلاصة القول انه ليوم غريب من كل ناحية .

كانت الغيوم قد انقشعت ولم يعد المطر يهطل وشقت أسداف الضباب شمس ساطعة .

أبصر بيتيا فى الباحة نوسيا كوغان الذى كان يتجول بازدهاء ببزته المدرسية السوداء التى لها مشابك صغيرة بدلا من الأزرار وعلى رأسه عمرة بدون شارة . فبفضل حرية الدين التى أعلنت كان يحلم أن يستطيع أن يدخل المدرسة وأن يضع على عمرته شارة جميلة .

لعب بيتيا طويلا معه بلعبة المملكة وهو يقف عند كل قفزة ليحدثه عن المدرسة أحاديث شتى مريعة .

كان يقول مهددا :

- وبعدئذ يخرجك الى السبورة واذا به يبدأ بسؤالك وحينئذ اذا كنت لا تعرف شيئا فسيقول هكذا : « يمكنك أن تجلس » ثم يعطيك صفرا طيبا ليعلمك كيف تعيش !

وكان نوسيا العاقل يرد عليه بهدوء مبتهجا :

- ولماذا ؟ اذا كنت دارسا دروسى جيدا !

فكان يهز كتفيه .

كان بيتيا يصر دونما شفقة وهو يقفز على رجل واحدة ويحاول أن يخرج بضربة من رأس حذائه ، الحجرة الصغيرة من الخانة المسماة « السماء » فيقول :

لا قيمة لهذا ! سوف يعطيك صفرا على الرغم من ذلك .

وهنا ضيف بيتيا نوسيا بقطعة صغيرة من الشوكولا . ثم ركض نوسيا بدوره الى العطار وجلب حفنة كبيرة من الزبيب .

دعى بيتيا الى تناول طعام الغداء فدعا نوسيا . كان أبوه قد عاد . فصاح فرحا لدى رؤيته نوسيا :

— آه ! يجب أن نعتقد أننا سننعم عما قريب برؤيتك تذهب الى المدرسة ، أيها الشاب ! أهنئك !..

ضرب نوسيا كعبى حذائه بأدب وازدهاء ، وأجاب بحياء وعيناه مطرقتان وخداه متوردان من الفرحة :

— ولم لا ؟

كانت الخالة مشرقة النفس وكان بابا مشرق النفس . وكان بافليك يحدث ضوضاء رهيبة فى الدهليز وهو يلعب « الحرية » : وما كان أحد يدرى لماذا كان يغطى بالسجادة الكراسى المقلوبة والمرصوفة ويمر زحفا على بطنه فى هذا النفق وهو ينفخ بلا رحمة فى بوقه الذى ما كان يستطيع أن يلعب أى لعبة بدونه على الرغم من ارتياع الجميع .

الا أن هذه المرة لم يفكر أحد بتوقيفه فاستطاع أن يعبث كما يريد .

كانت دونيا طيلة الوقت تعود من الباحة تحمل آخر أنباء المدينة وهى منفعلة كل الانفعال . فقد رؤى قرب المحطة جمهور يتقدمه علم أحمر ! — « لا سبيل الى المرور » ! وفى شارع ريشيليو كانوا يهتفون لجندى وهم يحملونه فى الهواء على

الطريقة الروسية : « والمسكين يطير ويقفز ! » وقصد الجمهور من كل حدب وصوب الى مخفـر الشرطة حيث كان المساجين ـ كما يقـال ـ يطلق سراحهم . « كانت امـرأة تركض وبين يديها ابنتها والدموع تنذرف من عينيها وتنهمر » . أو كما كانت تقول دونيا أيضا : ان زمرة من الطـلاب الضباط قد وضـعوا أمام القيادة : ولم يكن مسموحا لأحد أن يتكلم مع جنود القيادة حتى انهم كانوا يطردون الذين يقتربون من النوافذ . وقد نجح رجل مدنى بالوصول الى النافذة وارتفع على حجرة وهتف : « عاشت الحرية » ! فرد عليه الجنـود من النوافذ « عاشت الحرية ! »

استقبلت كل هذه الأخبار بفرح وبأسئلة متلاحقة :

— والشرطة ؟

— وهو ؟

— وهى ؟

— وماذا فعلوا ؟

— وفى شارع اليونان ؟

كان باب الشرفة يفتح من حين الى آخر ، وكانوا يخرجون ليروا ماذا يجرى فى الشارع بدون أن يعيروا التفاتا الى البرد . وكان يمكن للمرء أن يميز فى طرف سـاحة كوليكوفو حشد الجمهور حيث يرف العلم الأحمر .

وفى المساء جاء أصدقاء لزيارة أسرة باتشى وقد مضى وقت

طويل لم يرهم أحدهم . انهم زملاء بابا وطالبات يعرفن الخالة . فصار المشجب فى الدهليز مغمورا بالمعاطف السوداء والبراقع والقبعات والقلانس من فرو استراكان .

وفى المطبخ رأى بيتيا المقددات واللحوم اللذيذة والخبز الشهى تقطع .

وعندما نام بيتيا بعد هذا النهار المنهك والمبهج أيضا ، كان يسمع خليطا من الأصوات الغريبة والضحكات وقرع ملاعق الشاى .

كان شعاع من النور ينفذ من حجرة الطعام الى حجرة الأولاد مع دخان السيكارات الأزرق الذى كان يحمل فى الهواء الرطب الدافىء شيئا غريبا من الرجولة والحرية اللتين كانتا تنقصان البيت حتى ذلك الحين اذ أن بابا ما كان يدخن .

كان النور أكثر مما هو فى العادة وراء النافذة . وكانت تختلط بضوء الفوانيس الباهت الأكاليل الملونة والمرتعشة من زينات الأنوار .

كان بيتيا يعرف أنه الآن بدلا من الأعلام قد رفعت على أسلاك بين الأشجار فى المدينة كلها فوانيس صغيرة من الزجاج ذات ستة وجوه ، ولكنها زجاجات حارة مسودة من الشمعة المشتعلة فى داخلها .

كان صفا الأنوار المتماثلان يمتدان طويلا الى آخر شوارع أوديسا الطويلة والمستقيمة . كانت تجتذب المرء الى أبعد

دائما ، الى أقاصى المدينة الخفية المجهـولة شارعا بعد شارع وكانت تبدو كأنما توهم للمـرء أنها ستقـدم له عن كثب فى مفترق الطـرق مشهـدا بديعـا كله ألوان وجمـال واشراق لا مثيل له ...

بيد أن المـرء كان يرى فى مفترق الطـرق نفس الشارع الطويل ونفس خطوط الفوانيس الصغيرة المتمـاثلة بالشـكل والمختلفة بالألوان وقد أضناها الاشتعال مثل المرء الذى أرهقه التجول تحت أنوار الاضاءة .

وكانت بقع من النور حمراء وخضراء وبنفسجيـة وصفراء وزرقاء تترامى فى لجة الضباب وتسقط على المارة وتدب على الواجهات وتغرى الناس بأن تريهم بعـد المنعطف شيئا أجمـل وأطرف بكثير .

كل هذا التنوع المرهق الذى كان يدعى حتى ذلك الحين : « عيد الامبراطور » « عيدا رسميا » « عيد القيصر » ، صـار يسمى الآن بكلمة لا تقل تلوينا : « الدستور »

كانت كلمة « الدسـتور » تبرز فى كل آونة فى حجرة الطعام بين صخب الأصـوات الغـريبة ورنين مـلاعق الشاى الفضية .

نام بيتيا على صخب المدعوين الذين لم يتفـرقوا الا فى ساعة متأخرة ، لا ريب أنها بعد الساعة الحادية عشرة ليلا .

٣٤

القبو

ما أن انتشرت الشائعة فى الطواحين القريبـة عن اطلاق سراح المساجين حتى ركض غافريك الى مخفر الشرطة .

أما تيرنتى الذى لم يأو الى البيت منذ سبعة أيام والذى جاء من الصباح الباكر لا يدرى أحـد من أين أتى ، فقد اصطحب غافريك حتى زاوية الشارع . كان متجهما يترنح من الاعياء .

— اسمع يا غافريك ، يجب حتما أن تذهـب لتستقبـل العجـوز ولكن لا تأت به الى هنا . فمـع هذه « الحـرية » ـ لعنـة الله عليهـا ـ فالجواسيس حول المخفر ـ مؤكدا ـ منتشرون وكثيرون . فاذا هديتهم الى بيتنا فسوف تجـر عليه الوبال ويحيق الشر بالرفاق ! أفهمت ؟

هز غافريك رأسه :

— فهمت .

لقد تعلم غافريك أن يفهم كثيرا من الأمـور من حياته فى الطـواحين القريبة ، واتسعت معارفه اتساعا كبيرا . ولم يعد هذا سرا لديه اذ كان يعرف أن لجنـة الاضراب تجتمع عند تيرنتى .

كم من مرة كان على غافريك أن يقضى الليل كله تقريبا على مقعد قرب الباب ويصفر بهدوء عندما يظهر أناس مجهولون قرب البيت !

وكم من مرة رأى البحار يأتى فى الفجر وسرعان ما يغيب ، على أنه كان يستحيل على المرء أن يعـرفه . فقـد كان يرتدى معطفا من الجوخ لائقا وقبعة مهندس عليها شـارة (مطرقتان متصالبتان) وله شارب صغير أنيق ولحية صغيرة تجعله قليل الشبه بنفسه حتى أن الصبى لايكاد يصـدق أنه هو الرجـل الذى انتشله هو وجده من البحر .

الا أنه حسب المرء أن ينظر بامعـان الى عينيه القاتمتين الساخرتين وابتسامته المتقلبة والمرساة الموشومة على يده حتى تتبدد الشكوك .

وبمقتضى العـرف الصـارم فى الطواحين القريبـة ـ الا يندهش المرء والا يعرف أحدا وأن يخيط فـاه بالسـكوت ـ كان غافريك يتظاهـر برؤية البحار لأول مرة عندما يصادفه . وكان البحار يتصرف كذلك تجاه غافريك .

الا أن جـوكوف ذات مرة حينما هم بالذهاب هز رأسـه للصبى هزة الصديق وغمز بعينه وربت على كتفه كما لو كان شخصا كبيرا وترنم :

ـ لا تبكى يا ماروسيا عما قريب سنلتقى !

فأطرق رأسه ودخل الى الردهة الصغيرة المظلمة .

على أن غافريك كان يقدر أن البحار آخطـر زائر من بين جميع زوار تيرنتى من مندوبى مصنع « غين » ومطحنة وينشتين وأحواض السفن ومعمل برودسكى وكثيرين غيرهم .

كان ينتمى حتما الى « منظمة الكفاح » السرية الباسلة التى كانت موضع الحديث عنها فى الطواحين القريبة وجميع المدينة منذ بعض الوقت .

قال غافريك :

— ... فهمت ، ولكن أين سآخذ عجوزنا فى هذا البرد ان لم آخذه الى الطواحين القريبة ؟ ..

أخذ تيرنتى يفكر . ثم قال :

— اسمع اذن ! خذه أولا الى الشاطىء الى كوخـكما . فاذا كان هناك جاسوس يتبعكما فلا بد أن يرى أين تذهبان . وانتظر هناك حتى يحل المســاء وبعدئذ حينما يرخى الظـلام سدوله ستذهبان خفية الى العنوان الذى سأعطيك اياه ويجب ألا تنساه : شارع آرناؤطسكايا الصغير ، ١٥ . ستدخل الى كناس البناية وتطلب يوسف كارلوفيتش . ستقول له هكذا فلا تنس : « مرحبا يا يوسف كارلوفيتش . صوفيا بتروفنا تسألك هل استلمت رســالة من نيقولايف » وسوف يجيبك : « ها قد مضى شهران ولم استلم رسالة » . أفهمت ؟

مؤكدا .

يمكنك أن تكرر هذا ؟

— نعم يمكنني .

— هيا أسمعني .

غض غافريك جبهته ثم أنفه باهتمام وقال بهيئة مركزة كما لو كان في امتحان :

— هكذا : شارع ارناؤطسكايا الصغير ، ١٥ . ثم أطلب من الكناس يوسف كارلوفيتش وأقول له : « مرحبا يا يوسف كارلوفيتش ، صوفيا بتروفنا تقول لك هل استلمت رسالة من نيقولايف » وعليه أن يرد : « ها قد مضى شهران ولم أستلم شيئا » ..

هذا هو حسنا . وحينذاك ستقول له بصراحة ان تيرنتي أرسلك وانني أرجوه أن يؤوي العجوز عنده وأن يطعمه وبعدئذ سنرى . سأمر عليه .. أفهمت !

— طبعا .

— اذن مع السلامة !

عاد تيرنتي الى بيته بينما انطلق غافريك ركضا الى مخفر الشرطة .

كان يجري بأقصى ما لديه من سرعة وهو يشق طريقه بين الجمهور المتكاثف بازدياد كلما اقترب من المحطة .

وابتداء من ساحة التبن كان يلتقي بمساجين أطلق سراحهم . كانوا يمشون أو يركبون عربات مع صناديق وسلال كأنما هم قادمون من المحطة . وكانوا يلوحون بقبعاتهم . وكان أقاربهم وأصحابهم ورفاقهم يرافقونهم .

وكان جمهور الناس الذى يسير فى الشارع يهتف لهم دون انقطاع :

— عاشت الحرية ! عاشت الحرية !

والى جانب مخفر شرطة حى ألكسندروفسكى المحاط بفصائل الشرطة رجالة وخيالة ، كان الجمهور كثيرا ومزدحما حتى ان غافريك لم ينجح فى اختراقه . قد لا يعثر على العجوز هنا .

تملكت الصبى قشعريرة حينما خطرت له هذه الفكرة : اذا لم يعثر على الجد قد يلحقه جاسوس الى الطواحين القريبة ؟!

خفق قلبه ورمى بنفسه فى الزقاق ليلتف الجمهور ويصل مهما كلف الأمر الى مخفر الشرطة ويستقبل جده واذا به يراه على مقربة منه .

ولكن يا الهى ! ماذا فعلوا لجد !؟ ان غافريك لم يعرفه لأول وهلة .

شيخ هم ذو لحية بيضاء وعينين زرقاوين باهتتين دامعتين وفم غائر ، يمشى قبالة صبى وهو يحاذى المنازل ويتعثر على ساقيه المتراخيتين . كان يسير بتثاقل على الحصا بحذائه الممزق ويقف كلما تقدم ثلاث خطوات . ولولا السلة التى تتأرجح فى يده لما عرف غافريك جده .

غير أن هذه السلة المضفورة من القصب التى يعرفها الصبى جيدا والمغطاة بقطعة من القماش الوسخ قد برزت لعينيه وانقبض قلبه بألم شديد .

وصاح مذعورا :

— يا جداه ! هذا أنت ! ؟

لم يرتجف العجوز لهذا الصوت المفاجىء . فقد وقف وأدار وجهه الى غافريك وشفتاه تهتزان بدون اكتراث دون أن يكون فيهما تعبير لفرح أو انفعال ؛ لا شيء سـوى هدوء طيع ملىء بالانتظار .

كان يسـتطيع المرء أن يظن أنه لم ير حفيـده لأن عينيه الدامعتين ظلتا ثابتتين تنظران بعيدا .

سأل غافريك بصوت عال كأنما يخاطب أصم :

— يا جدى الى أين تذهب ؟

اجتر العجوز شفتيه طويلا قبل أن يتفوه بصوت خافت الا أنه واع :

— الى الطواحين القريبة .

قال غافريك بصوت خافت وهو يلقى فيما حـوله نظرات قلقة :

— يجب ألا تذهب الى هناك هكذا قال تيرنتى ؛ يجب ألا تأتى الى الطواحين القريبة بشكل خاص .

نظر العجوز أيضا فيما حوله ولكن نظرته كانت بطيئة آلية لا اكتراث فيها .

— هيا بنا الآن الى البيت يا جدى ، وسوف نتدبر الأمر بعدئذ .

انصاع الجد وغير الاتجاه ولم يقل شيئا وسار فى اتجاه معاكس وهو يجر قدميه بتثاقل .

أعطى غافريك كتفه للعجوز ليتكىء عليه بثقله . سارا على مهل الى البحر عبر المدينــة التى ســادها الهرج والمرج . كان يخيل للمرء أنه ضرير يقوده دليله : لقــد كان الصبى يتقــدم الجد قليلا والجد وراءه غير بعيد عنه .

كثيرا ما كان العجوز يقف ليستروح قليلا . لقد اقتضاهما الذهاب من مخفر الشرطة الى البحر ساعتين . وكان غافريك قطع هذا الطريق وحده بمدة خمس عشرة دقيقة .

كان القفل المقلوع الصدىء مرميا بين الاعشاب السمراء قرب الكوخ . وكان الباب معلقا بانحراف بمفصل واحد . كان يصر وتؤرجحه الريح . وكانت أمطار الخريف قد انتزعت عن الألواح الخشبية المسودة آخر أثر المكلس الذى طلت به الجدة الكوخ . وقد وضع على السطح الشــوك ولا ريب أن بعض صيادى الطيور قد استعمل الكوخ كمينا له .

كان كل شىء داخل الكوخ قد قلب عاليه سافله وكان لحافه ووسادته الرطبان وانوسخان ملقيين فى الزاوية من الكوخ . الا ان الصندوق الصغير كان لا يزال فى مكانه سليما . دخل العجوز متريثا بيته وجلس على حافة السرير . وضع السلة على ركبتيه وثبت نظره الساهم فى أحد الأركان دون أن يعير أدنى التفات الى البلبلة التى اجتاحت المسكن .

لقد بدا انه جاء الى هنا هنيهة ليستروح قليلا ثم يواصل سيره . هذا ما كان يبدو فى حسبانه .

كانت ريح شديدة باردة مشبعة برذاذ الماء تهب من النافذة المكسورة . وكانت العاصفة تزبد على طول الشاطىء المقفر . وكانت بقع زمج الماء البيض والزبد تتطاير مع الريح فوق الشاطىء الصخرى الداوى وكانت لطمات الأمواج تدوى فى كهوف الشاطىء .

ولماذا بقيت جالسا يا جدى ؟ اضطجع .

استلقى الجد مذعنا . ووضع له غافريك وسادة تحت رأسه وألقى عليه لحافا . تكمش العجوز اذ كانت الحمى تفتك به .

— لا ضير فى هذا يا جدى . اسمع . عندما يسدل الليل أسجافه سنذهب من هنا الى مكان آخر . الأ أنه الآن ابق مستلقيا .

كان الجد ساكتا ، وكل كيانه يعبر عن عدم الاكتراث والاذعان بأكمل ما يكون . وفجأة أدار الى غافريك عينيه الجاحظتين الشاخصتين وحرك شفتيه طويلا ثم قال :

— ألم يأخذ البحر القارب ؟

بادر غافريك فطمأنه بأن القارب بأمان عند جيرانه . فهز العجوز رأسه مستحسنا ما فعل وسكت .

وبعد ساعة بدل جنبه وهو يتأوه ويئن بصوت مخنوق .

— يا جدى ماذا يؤلمك ؟

قال الجد مبتسما ابتســامة مرتبكة فبــدت لثته المسننة .

– لقد كسرونى وأنهكونى .

أشاح غافريك بوجهه .

ولم يعد العجوز فيتفوه كلمة . وعندما أظلم الليل قال الصبى :

– هلم بنا يا جدى !

نهض العجوز وتناول سلته وذهبا يسيران على طول الفيلات ذات النوافذ المسمرة ثم مرا بالمرمى المغلق والمطعم . وقصــدا شارع أرنائوطسكايا الصغير ، ١٥ .

وبعد ما سأل غافريك الكناس ، لقى دونما مشقة فى قبو مظلم مسكن يوسف كارلوفيتش وقرع الباب المغلف بقطعة من اللباد الممزق .

سأل صوت بدا له مألوفا :

– من هنا ؟

– هنا يسكن يوسف كارلوفيتش ؟

– وماذا تريد ؟

– افتح يا عم . أنا قادم من طرف صوفيا بتروفنا .

وسرعان ما انفتح الباب ولشد ما أدهش الصبى أن رأى فى العتبة صاحب المرمى وفى يده مصباح بترول . تأمل الرجــل الصبى دونما تأثر ولــكن بشىء من التعالى وقال ولم يغير مكانه :

— أنا يوسف كارلوفيتش . وبعدئذ ؟

قال الصبى كأنما يتلو درسا :

— مرحبا يا يوسف كارلوفيتش . تسألك صوفيا بتروفنا هل استلمت رسالة من نيقولايف ؟

وبعد ما تفحص صاحب المرمى مندهشا الصبى من رأسه حتى قدميه ـ وما كان هذا يتطلب وقتا لا يقل عن دقيقتين وان كانت قامة غافريك قصيرة ـ قال بصوت أكثر تعاليا :

— منذ أكثر من شهرين لم أستلم رسالة .

وبعدئذ هز رأسه حزينا وأضاف :

— كما ترى انها سيدة غير دقيقة ! واسفاه !

ثم جعل وجهه لطيفا كل اللطافة كالشريف البولونى الذى استقبل فى مزرعته رسولا بابويا . ما كان هذا متناسبا مع قدميه الحافيتين وبدلته : فلم يكن تحت جاكيته قميص .

— ادخل أيها الشاب . أعتقد كنت تأتى من حين الى آخر لزيارة حانوتى ؟ يا لها من صدفة طيبة ! وهـذا العجوز ـ اذا لم أخطىء ـ هو جدك ؟ ادخلا اذن .

دلف الجد والولد الى مأوى قمىء بائس ـ وهما اللذان كانا يعرفان البؤس فاعترتهما الدهشة .

أوه ! لا ، ان غافريك كان قد كون فكرة مختلفة عن حياة صاحب المرمى ، هذا الرجل القوى والغنى ـ تصور ـ الذى كان يملك أربعة مسدسات مونت كريستو !

اندهش الصبى فأخذ يجيل طرفه فى الجدران التى عرتها الرطوبة من طلائها واخضرت . كان يتوقع أن يرى معرضا للبنادق والمسدسات . فلم ير بدلا من هذا سوى مسمار علقت به الحمائل وكلها وسخة أشبه بالأرسان منها بالحمائل .

صاح غافريك مذهولا

— يا عم ! أين بنادقك ؟

تظاهر يوسف كارلوفيتش بأنه لم يسمعه ، وفتح يديه مرحبا وداعيا الى الجلوس وانزوى فى أحد الأركان ، وسأل :

— هل لديكما شيء لتقولاه لى ؟

رجا غافريك ـ باسم أخيه ـ يوسف كارلوفيتش لايواء جده بعض الوقت .

أجاب يوسف كارلوفيتش بحيوية :

قل لأخيك ان كل شيء سيتم ويسكنه أن يطمئن . لى بعض الصداقات فى المدينة . أعتقد أننى سأستطيع أن أجد له عملا كحارس ليلى .

ترك غافريك جده عند يوسف كارلوفيتش ووعد بأن يمر للاستخبار عنه وخرج . لحقه رب البيت الى العتبة وهمس له

قل لتيرنتى ، من طرف صوفيا بتروفنا : عندها مقدار هام من الجوز ولكنه ليس كبيرا مع الأسف . انه أشبه ما يكون بالبندق . وسوف يفهم . بندق . عليه أن ينظم النقل . أفهمت ؟

قال غافريك الذى ألف هذه المهمات :

— فهمت ، بندق وعليه أن يدبر أمر أخذها .

— تماما .

فتش يوسف كارلوفيتش فى بطانة جاكيته المربع ثم قدم لغافريك قطعة عشرة كوبيكات .

— أرجو أن تأخذ هذه لتشترى سكاكر لك . يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أقدم لك شيئا آخر . أقسم لك بشرفى انه يبهجنى أن أقدم لك مسدس مونت كريستو ولكن . .

وفتح يوسف كارلوفيتش يديه بهيئة حزينة وغمرت وجهه المتأثر رعشة عصبية .

— ولكن — يا للأسف — بسبب طبعى الشقى ليس لدى واحد .

قبل غافريك قطعة العشرة كوبيكات بهيئة رصينة بسيطة وشكره وخرج الى الشارع المغمور بأنوار الزينات المضطربة .

٣٥

دين شرف

فى الصباح أخذ بيتيا من الخزانة المنزوية حذاء صيفيا وباعه بأربعة كوبيكات لبائع عتقيات وهو ذاهب الى المدرسة .

وعندما وصل غافريك فى النهار وضع الصديقان على الفور

« آذانهما » على حدة الا أن بيتيا خسر كل ما اشتراه من غافريك بأسرع من المرة الأولى .

لقد كان واضحا أن القوى غير متكافئة كل التكافؤ .

كانت جميع « آذان » الحي الساحلي تقريبا في أكياس غافريك . فكان يمكنه أن يجازف دونما خوف بينما كان بيتيا مضطرا لأن يدبر كل قطعـــة « اثنين » وأن يقامر بمقادير ضئيلة مما أدى به الى الخسران السريع . وهذا معروف .

وفي اليوم التالي قـــام بيتيا الذي لم يعد يتمالك نفسه ، واختلس ستة عشر كوبيكا من النقـــود التي نسيتها دونيا على خزانة الاطعمة .

وقد قرر هذه المرة أن يتصرف تصرفا أكثر حكمة وتحرزا . فقبل كل شيء كان يلزمه « مضرب » حقيقي كي يستطيع أن يلعب بنجاح .

كان مضرب بيتيا ـ وهو زر كبير من بدلات الخدم ذو مظهر جميل وعليه أسدان وتاج الكونت ـ لا يساوي شيئا على الرغم من جماله : اذ كان خفيفا جدا . فلا بد من جعله ثقيلا . ذهب بيتيا الى المحطة وانسل الى خطوط الاستيداع وفي زقاق بعيد وراء المستودع انتزع رصاصا من عربة قطار للشحن وهو يرتعد خوفا .

وحينما عاد الى البيت دس الرصاص في فجـــوة المضرب ووضعه على سكة القطار قبالة ساحة كوليكوفو . وحالما مر

قطار الضاحية تناول مضربا مسطحا بشكل رائع وثقيلا وحارا . انه لا يقل شأنا عن خيرة مضارب غافريك .

لم يلبث غافريك أن وصل وابتدأ اللعب ، وحمى وطيسه .

بيد أن الحصول على مضرب جيد لم يكن كل شيء . فلا بد من ان يكون المرء فنانا ! وفى نهاية الأمر خسر بيتيا كل ما معه وبقى مدينا لخصمه .

وعد غافريك بأن يأتى ليقبض دينه غدا .

وقع على بيتيا كابوس رهيب .

قال الأب فى المساء بهدوء ، بعد تناول العشاء .

ــ كان يوجد ستة عشر كوبيكا على خزانة الطعام ، ألم تأخذها صدفة ؟

تدفق الدم الى قلب بيتيا ثم سرعان ما انحسر وأجاب بأكثر ما يمكن من عدم المبالاة :

ــ لا !

ــ هيا انظر فى عينى .

أمسك الوالد ذقن الصبى وأدار وجهه كى يراه مقابلة وجها لوجه ، فقال بيتيا وهو يبذل كل جهده كى ينظر فى عينى والده بثبات .

ــ كلام شرف ! وأقسم بالصليب الأقدس !

تجمد الصبى من الذعر وهو يرسم اشارة الصليب على صدره ويلتفت الى الأيقونة .

كان يتوقع أن يرى السقف ينشق وتنقض الصاعقة .

ان الله لا يجب آن يفوته آن يجازى على الفور من يحنث يمينه .

ومع ذلك فقد بقى كل شيء ساكنا .

قال الأب ببرودة :

ــ هذا شيء غريب جدا . هذا يعنى أن فى بيتنا لصا سارقا وما من ريب فى أنه ما من أحد منا أنا والخالة بحاجة الى اختلاس الدراهم من على الخزانة . وبافليك يلعب طول النهار تحت مراقبة أشخاص كبار وهو كذلك لا يستطيع آن يقوم بهذا . وأنت أقسمت بشرفك . بقى على أن أفترض أن مرتكب السرقة هى دونيا التى تشتغل عندنا منذ خمس سنوات ...

كانت دونيا تنظف المصباح فى الدهليز .

وقد استعجلت لتضع زجاجة المصباح والخرقة على حافة المرآة لتتقدم الى عتبة الباب . كان عنقها وساعداها العاريان حتى المرفق محمرة . وكان وجهها العريض الطيب مضرجا بالحمرة ، ومتشنجا من الالم .

وصاحت :

ــ حرمنى الله سعادة الحياة اذا لم يكن تلك الدراهم قد أخذها السيد الصغير وخسرها فى لعبة « الآذان » مع غافريك !

نظر الوالد الى بيتيا .

أدرك الصبي أنه لا بد له على الفور من أن يقول كلاما نبيلا معتزا صحيحا رهيبا كي يبدد كل شبهة أو شك .

لو كان الأمر قبل لحظة ربما اعترف ، الا أنه ما دام الأمر تناول « الآذان » فلن يقر مهما كلف الأمر !

صـــاح بيتيا بصـــوت أجش وضرجت حمرة غيظ زائف وجهه :

— لا يحق لك أن تتكلمى هكذا . أنت تكذبين !

الا أن الأمر بدا له ليس بذى شأن أبدا !

وصرخ بيتيا وهو يضرب برجله :

— أنت .. أنت حتما سارقه !

هز الوالد رأسه بهيئة لائمة حزينة جدا : اذ لم يتوصل الى فهم ما يعتلج فى نفس ابنه .

وبينما كانت دونيا تتحرك مهتاجة فى المطبخ وهى تجمـــع حوائجها وتطلب أجرتها انســـل بيتيا الى غرفة الأولاد وضرب الباب وراءه بعنف حتى أن الصورة الصغيرة للمـــلاك الحافظ ناست على اطار السرير .

لقد رفض رفضا قاطعا أن يطلب الصفح من دونيا ، فارتمى فى السرير واصطنع الاغماء فتركوه هادئا .

لم يأت أبوه ليطبع على جبينه قبلة قبل النوم .

وكان بيتيا يسمع خالته تحث دونيا على البقاء : وقد قبلت هذه فى نهاية الأمر وهى تنتحب .

وفى الليل استيقظ بيتيا مذعورا مما فعل . كان يكاد يهم بالركض الى المطبخ ليقبل قدمى دونيا ويطلب منها الصفح . غير أن اضطرابا أشد استولى على الصبى عندما تذكر أن غافريك سيأتى ليطلب دراهمه غدا .

وفى الصباح استفاد من اللحظة التى يأخذ فيها الأب بافليك الى الحمام وأخرج من الخزانة رودنجوتا عتيقا للخدمة .

وكان يروى فى الأسرة أن هذا الرودنجوت قد وصى عليه الوالد غداة تخرجه من الجامعة . وقد لبسه بابا مرة واحدة بطلب من أهل زوجته المزهوين الذين طلبوا أن يجرى زفاف بابا وماما حسب المراسم المقررة . ومنذ ذلك الحين ورودنجوت الخدمة هذا معلق فى الخزانة وقد نسيه الجميع

كان فيه عدد كبير من الأزرار غير أن أغلبها لسوء الحظ كان صغيرا جدا ولا يصلح للعب .

ما كان يوجد سوى أربعة أزرار كبار الا أنها كانت بقيمة « الثلاثة » سميكة وبيضاء وتكاد تكون خارجة عن الاستعمال .

كانت الأزرار مخيطة فى الجوخ الناعم للرودنجوت خياطة متينة ، وقد قام بذلك خياط من أوديسا يشتغل بذمة ، لذا كانت الأزرار لا يقوى عليها المقص . وكان بيتيا فارغ الصبر فاقتلعها بأسنانه مع قطع من الجوخ .

هل هناك حاجة الى القول ان بيتيا هذه المرة أيضا قد خسر فى اللعب !

ازداد دينه زيادة غريبة .

لقد استبد به الارتباك . وكان غافريك ينظر الى صديقه بعطف متجهم لا يبشر بخير .

سأله بصرامة :

— هيا يا بيتيا ماذا ستفعل ؟

لا سبيل الى اساءة فهم مقصود هذه الكلمات . انها تعنى هذا تقريبا :

« كيف هذا يا صاحبى ؟ لقد استدنت منى « آذانا » ولم تسددها لى . هذا شيء محزن جدا . سأضطر الى كسر بوزك ، على أننا صديقان فلا سبيل الى غير ذلك . هذا هو حكم العادة ؛ وأنت تعرف ذلك جيدا . ان « الآذان » ليست مربعات الورق المقوى ، فهى ذات قيمة مالية ، فلا تنزعج منى » .

ما كان بيتيا لينزعج من صديقه . كان يعرف أن غافريك على حق . فاكتفى بأن تنهد وطلب مهلة قصيرة أيضا فقبل غافريك .

كان العذاب ينهش قلبه طيلة الليل ، كان يفكر بشدة حتى ان خديه كانا ملتهبين يضيئهما المصباح فيلمعان مثل العقيق .

استرجع الصبى بخاطره آلاف الطرائق ليحصل على المال بسرعة ، ولكنها كانت كلها اما خيالية واما اجرامية ، وفجأة لمعت بفكره خاطرة بسيطة بشكل مدهش وذكية . ان المرحوم جده والد أمه ، قد كان ضابطا برتبة ماجور ! فكيف نسيه ؟

وعلى الفور انتزع بيتيا من دفتر الحساب ورقة وشرع يكتب رسالة الى جدته فى ايكاتيرينوسلاف .

غمر جدته بالأسماء اللطيفة وأنبأها بنجاحاته الباهرة فى المدرسة - وهذا والحق يقال مبالغة مفرطة - ورجاها أن ترسل اليه كذكرى - بأسرع ما يمكن - بدلة جـده العزيز الذى كان برتبة ماجور .

كان الصبى الماكر يدرك نقطة الضعف لدى العجوز الطيبة التى تجل ذكرى الجد ، بطل حمـلة تركيا والتى تحب بيتيـا حفيدها الاكبر حبا جما .

كان بيتيا يقول أيضا أنه على غرار جده البطل قد عزم عزما راسخا ليصبح بطلا مثله فاختـار الحقل العسكرى وهو بحاجة الى البزة ليعزز هذه النزعة العسكرية فى نفسه .

كان بيتيا يأمل فى أن يجد على بزة جده العسكرية كثيرا من الآذان ربما عشرين ان لم تكن ثلاثين . انها ازرار جميلة للضباط بقيمة « خمسة » وعليها نسور منقوشة !

لسوف يجد فى هذا كفاية لسداد ديونه ، وربما عاد وكسب ما قد خسره .

كان فى حسبان بيتيا أن الطرد يجب أن يصـل بعد أسبوع حتما .

أنبأ بيتيا صـديقه فوافق غافريك دونما تحفظ . تطاول الصبيان ووقفا على رؤوس أصابع أقدامهما وألقيا الرسالة فى صندوق كبير أصفر رسم عليه مغلف رسمى وعليه خمسة أختام من الشمع وبوقان متصالبان .

لم يبق سوى الانتظار بهدوء .

وبانتظار هذه الثروة الضخمة فتح غافريك لبيتيا اعتمادا جديدا غير محدود وأخذ بيتيا يبذر سلفا تركة جده غير عابىء بشيء .

٣٦

المحفظة الثقيلة

انقضى اسبوع وتلاه اسبوع آخر ، غير أن طرد الجدة لم يصل .

وعلى الرغم من « الحرية » التى أعلنها القيصر كانت الاضطرابات تتفاقم . كان البريد يعمل بشكل سيء . وما عاد الوالد يتلقى الجريدة « روسكييه فيدوموستى » من موسكو وكان يمكث فى المساء صامتا منزعجا فلم يعد يعرف ماذا يجرى فى العالم وماذا يجب أن يفكر بالأحداث .

كان الصف التحضيرى قد صرف الى آجل غير مسمى . فكان بيتيا يتسكع طول النهار ليس لديه ما يشتغل فيه . وفى غضون ذلك تضخم دينه لغافريك حتى انه ما عاد يفكر به الا وتعتريه قشعريرة الذعر .

وذات يوم جاءه غافريك ليقول له وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـ الآن يمكنك أن تنتظر طويلا « آذانك » . ان « العام » سيبدأ بعد عدة أيام .

لو كان قبل شهر لما فهم بيتيا ماذا يقصد غافريك ، الا أنه الآن يعرف أن « العام » انما هو « الاضراب العام » .

لم يكن هناك مجال للارتياب فى أخبار غافريك . لقد لاحظ بيتيا منذ زمن طويل أن الناس فى الطواحين القريبة يعرفون كل شيء قبل وصول الأنباء الى المدينة بوقت طويل . لقد وقع هذا النبأ وقوع الصاعقة على بيتيا .

ـ ولكن قد تصل قبل مع ذلك ؟

ـ لا أعتقد .

فامتقع لون بيتيا . وأعاد غافريك القول :

ـ وكيف سنصنع بدينك ؟

بادر بيتيا الى القسم بشرفه وبالصليب الأقدس ، الصليب الحق ، انه غدا على كل حال سيصفى حسابه معه ، فعل هذا وهو يرتعد من نفاد صبره لأنه كان يود معاودة اللعب بأسرع ما يمكن.

قال غافريك وهو يفتح ساقيه على شاكلة البحارة وهما فى بنطلون جوخ عريض بنفسجى وهو لون الثياب التى يلبسها أولاد الملاجىء :

ـ انظر ، والا ...

وفى نفس المساء اختلس بيتيا دراهم حصالة بافليك واتخذ احتياطات مشددة . فقد ركن الى الحمام وسحب من العلبة كل

ادخارها بواسطة سكين : كانت الحصيلة ثلاثة وأربعين كوبيكا من النقود الفضية والبرونزية .

وبعد ما قام بهذه العملية المعقدة بمهـارة فائقة ألقى الصبى فى الحصالة المنهوبة قطعا لتحدث الرنين : مسامير صـغيرة ، وقطع رصاص وأزرارا عظمية وقطع حديد .

لقد كان هذا ضروريا كل الضرورة لأن بافليك موفر دقيق يتحقق من كمال حصيلته مرتين فى اليوم بانتظام فى الصباح والمساء . فيحمل الى أذنه حصالة النقـود المصنوعة من الصفيح ويسد لسانه ويخض الحصالة لترن الكوبيكات ملتذا من سماع أصوات كنزه ومن ثقله . ومن يتصور الصيـاح الذى سيطلقه عندما يلاحظ هذا الاختلاس !! الا أن كل شىء قد مر بسلام .

فقبل أن يهجع خض بافليك حصالته المحشوة قطعا معدنيـة فوجد أن كل شىء على ما يرام .

معروف جيدا أن المال الحرام يذهب ضياعا ، ولم تمض ثلاثة أيام حتى خسر بيتيا كل دراهم بافليك .

وكان الأمل باستلام بزة جده العسكرية فى وقت قريب قد تلاشى . وصار غافريك يلح فى طلبه تسديد الدين .

كان بيتيا يجلس كل يوم عند حافة النافذة ينتظر غافريك

وكان يفكر فينتابه الذعر من اليوم الرهيب الذى سيكشف فيه أمر « الآذان » والحذاء ورودنجوت الخـدمة وحصـالة بافليك . لا بد أن يكون هذا ان عاجلا أو آجـلا . واذ ذاك يا للهول !!

23 — 4018

على أن بيتيا كان يحاول ألا يفكر بذلك ، كان يؤرقه ويقض مضجعه الحلم الدائم العقيم للاعبين الخاسرين : حلم استعادة المال المفقود .

كان من الخطر أن يتجول فى الشوارع ، ولكن هذا لم يمنع غافريك من أن يأتى فيقف وسط الباحة ويدس اصبعين فى فمه ويطلق صفيرا بديعا ، فيبادر بيتيا ويهز رأسه من النافذة وينزل بسرعة من الدرج الخلفى .

ويسأله غافريك :

— هل استلمت « الآذان ؟ »

— أقسم لك بشرفى ، حتما سأستلمها غدا . وأقسم لك بالصليب الأقدس ! لآخر مرة .

وذات يوم قال له غافريك انه ما عاد يملك انتظارا أكثر من هذا . وكان هذا يعنى أن بيتيا المدين العاجز سيغدو بعد الآن عبدا لغافريك الى أن يستوفى ما له عليه .

هكذا كان العرف فى الشـــارع قاسيا ولـــكنه عادل كل العدالة .

ربت غافريك على كتف بيتيا بخفة على غرار الفارس الهائم الذى يروض تابعه .

قال بلطافة :

— ستذهب الآن معى الى كل مكان .

ثم أردف بصرامة :

— هات محفظتك .

— ولم .. المحفظة ؟

— يا بهيم ! وأين تضع الآذان بدونها .

ولمعت عينا غافريك بمرح ماكر .

كان بيتيا — والحق يقال — مسحورا بهذا الاستعباد المرح : لطالما أراد أن يطوف مع غافريك فى المدينة . وبسبب الأحداث الخطيرة التى كانت تجرى ، كان محظورا على بيتيا حظرا قاطعا أن يتخطى الباب ، الا أن ضميره الآن لم يعد لديه شيء للقول . فلم يعد بيتيا بذى شأن ، هكذا كانت ارادة غافريك الذى يجب عليه أن يطيعه طاعة عمياء . فلا سبيل الى المخالفة : هكذا كان العرف .

ركض بيتيا وجلب محفظته .

أمره غافريك :

— ضعها على ظهرك .

نفذ ذلك بيتيا طائعا . فتش غافريك من كل ناحية طالب المدرسة الصغير الذى يرتدى معطفا طويلا يصل حتى قدميه ومحفظة على ظهره . كان غافريك بادى الرضى والغبطة .

— معك هويتك المدرسية ؟

— نعم .

— أرنى اياها .

قدم بيتيا هويته ، فتحها غافريك وقرأ وهو يهجى الكلمات الأولى : « الطالب حريص على شرفه ويجب أن يحرص على شرف مدرسته .. »

قال غافريك وهو يعيد اليه الهوية :

— حسنا . احتفظ بها ، فقد تفيد وقت اللزوم .

وبعدئذ فتل غافريك بيتيا كي يكون خلفه وملأ المحفظة بأكياس ثقيلة من « الآذان » . قال غافريك وهو يعيد اغلاق المحفظة وينقر على غطائها الجلدى :

يسكننا الآن أن نمر فى كل مكان بحرية .

لم يفهم بيتيا حق الفهم معنى هذه الكلمات ، غير انه التزم الصمت رعاية لعرف الشارع العام : أسئلة قليلة ومعرفة كثيرة . وخرج الصديقان من الباحة باحتراس .

وهكذا ابتدأ طوافهم فى المدينة التى تملأها الاضطرابات .

وقد غدا التطواف فى الشوارع خطيرا يوما بعد يوم ، ومع ذلك فان غافريك لم يضع حدا لحياته السرية الساحرة كلاعب أفاق ؛ بل على العكس كان الوضع كلما ازداد تحرجا ورهبة ، ازداد غافريك اندساسا فى أكثر الأماكن عتمة وخطرا . وكان يخيل لبيتيا فى بعض الأحيان أن بين غافريك والفوضى السائدة صلة لا يدرك كنهها .

فمنذ الصباح حتى المساء كان الصبيان يتسكعان فى الساحات المظلمة حيث كان غافريك يقوم بجميع شئون البيع والشراء والتبادل « بالآذان » . وكان يقبض من بعض الساحات ماله من دين وفى البعض الآخر كان يلعب ، وفى بعض الساحات أيضا كان يقوم بتصفية حسابات سرية مع رجال . ولشد ما كان يدهش بيتيا أن لديهم للعبة « الآذان » ولعا بقدر ما للأولاد .

كان بيتيا يحمل على ظهره محفظته الثقيلة ويتبع غافريك طائعا . وبفضل غافريك كان يرى مرة أخرى المدينة التى تكشف له باحاتها التى لكل واحـدة مخرجان ، وأقبيتهـا والثغرات المحدثة فى السياجات وعنابرها ومستودعاتها وشرفاتها الزجاجية وبعبارة موجزة جميع خفاياها .

كان بيتيا يرى البؤس الرهيب والاصيل لمساكن أوديسـا القميئة التى لم يرتب بها قط .

كانا يلجآن الى الأبواب عندمـا يطلق الرصـاص ويلفـان ليتحاشيا العربات المقلـوبة فى الطريق ويطوفان المدينة ويزوران أبعد الضواحى .

وبفضل بدلة بيتيا المدرسية كانا يلجان دونما مشقة الأحياء التى تطوقها الشرطة والجنود . كان غافريك قد علم بيتيا الطريقة الجيدة فى مقابلة رئيس المخفر ، ليلقى على مسامعه بصـوت كسير .

— سيدى الضابط ! اسمح لنا أن نمـر الى الطرف الآخر أنا وصديقى نسكن فى البناية الكبيرة الرمادية المقابلة . ان أمى يستولى عليها القلق لأجلى ...

كان هذا الصبى الصغير بمعطفه المدرسى والمحفظة من جلد العجل على ظهره يبدو بريئا ساذجا حتى ان الضابط المـكلف بعدم السماح بدخول الناس الى الأحياء المشبوهة كان يستثنى الولدين الوجلين .

— هيا اذهبـا ، ولكن خـذا حـذركما ! سيرا بمحاذاة

الجدران ، ولن أعود أراكما . هيا !

وهكذا كان الصديقان يتمكنان من دخول الأجزاء المنيعة من المدينة .

لقد زارا عدة مرات شارع أرناؤطسكايا ودخلا الى بيت عتيق يونانى له ساحة داخلية ، وكانت فيها نافورة بشكل هرم من أحجار البحر الاسفنجية وطير مالك الحزين من الحديد المدهون باللون الأخضر فى أعلاها . كان الماء يخرج من فم الطائر فيما مضى .

ترك غافريك بيتيا فى الباحة ونزل الى القبو مسرعا وأخرج منه كومة من الأكياس المليئة « بالآذان » الثقيلة جدا . كان يستعجل بملء محفظة بيتيا بها ثم يغادران جريا هذه الباحة الهادئة المحاطة بشرفة قديمة مائلة .

وفى هذه الباحة نفسها أبصر بيتيا ذات يوم جد غافريك . كان العجوز يسير على مهل وساقاه متراخيتان الى حفر الأقذار المنزلية عبر الباحة .

صاح بيتيا :

— هذا أنت يا جدى ! ماذا تعمل هنا ؟ كنت أظنك فى مخفر الشرطة !

ولكن الجد نظر الى الصبى ولم يعرفه .

نقل سطله من يد الى اليد الأخرى وغمغم :

— أعيش الآن هنا .. أنا حارس . حارس ليلى . نعم .

واستأنف سيره .

كان الصبيان يزوران الميناء وحى تشومكا وحديقة دوكوفسكى وضاحية بيرسيب ومصنع غبن . كانا يذهبان الى كل مكان ما عدا الطواحين القريبة .

كان غافريك يعود وحده الى الطواحين القريبة بعد نهار عمله . من يدرى ماذا يكون لو علمت الخالة والوالد بالأماكن التى يتردد عليها بيتيا فى ذلك الوقت !

٣٧

القنبلة

وذات يوم انتهت هذه الحياة اللذيذة المؤثرة ، حياة التطواف .

فى ذلك اليوم التاريخى وصل غافريك أبكر من العادة وسرعان ما انطلق الصديقان الى المدينة .

كان وجه غافريك ممتقعا متوترا بشكل غريب ، ساكنا ، وقد ازرقت شفتاه المزمومتان من البرد . كان يسير بسرعة مترنحا ويداه مدسوستان عميقا فى جيوب بنطلونه العريض : وهو صغير مقوس مصمم . كانت عيناه الشفافتان وحدهما كعينى جده محملقتين تلمعان احيانا ببريق حاد . شق على بيتيا أن يسير فى اثر صديقه . وكان الصبيان يعدوان فى شارع مقفر ، وكان يخيل لهما كأنما يعيشان فى حلم .

كان التوقع الحاد لحادث مجهول يشيع فى الهواء الأغبر . وكان وقع الخطى يرن على بلاط الرصيف ، وكان نعل الحذاء فى بعض الأحيان يسحق جليدا متبلورا يغطى رومة فارغة .

وفجأة سمعت ضجة داوية فى مكان بعيد . فى الوسط . وقد قيل ان أكداسا من الصناديق الفارغة تحملها عربة شحن ، قد تهاوت فجأة الى أرض الشارع .

وقف غافريك مصيخا السمع الى رجع صدى ضجة ضعيفة .

سأل بينيا بصوت خافت :

— ما هذا ؟ صناديق ؟

قال غافريك بلهجة جافة حاسمة :

— قنبلة .

وبعدما قطع الصبيان مفترقى طرق أبصرا مرأة تحمل سلة تتساقط منها قطع فحم وسفرجلات ، وتبرز من منعطف أحد الشوارع .

كانت المرأة تردد فاقدة اللب وتحاول أن تصلح وضع منديلها بيد مرتجفة :

— أوه ! أيها السيد اليسوع ، أوه أيتها العذراء القديسة ! أوه يارب العالمين ! ماذا يجرى ؟! تمزق اربا اربا ..

— أين هذا ؟

— شارع بوليتسايسكايا .. كنت أمشى هكذا وهو يمشى هنا .. وفجأة حدث انفجار .. وتطاير متمزقا فى الهواء . يا الهى ارحمنا ، الخيل قتلت والعربة تطايرت شظايا .

— ومن هذا ؟

— رئيس مخفر الشرطة .. مخفر شرطة الكساندروفسكى كنت هنا هكذا وهو هكذا .. ، والارهابى قبالتى .. وكانت فى يده حزمة صغيرة عادية مغلفة بجريدة .

— وهل أوقف ؟

— الارهابى ؟ أتعتقد ؟ لقد هــرب ، فر كل واحد باتجاهه وتوارى ... الارهابى ... يقال انه بحار متنكر .

واصلت المــرأة ســيرها تركض . وعلى الرغم من تحفظ غافريك الشديد فقد أمســك بيتيا من كتفيه وقرع الأرض برجله .

وهمس بصوت متحمس :

— انه هو الذى ضرب جدى بيده . ألا يجب أن يضرب ؟ أليس صحيحا ؟

قال بيتيا وقد تجمد الدم فى عروقه :

— هذا صحيح .

قام الصبيان فى ذلك اليوم بزيارتين لشارع أرناؤطسكايا الصغير الى الباحة ذات النافورة وعليها اللقلق .

فى المرة الأولى أخذا « بضاعتهما » كما كان يقول غافريك واتجها الى شارع الكساندروفسكايا المحاصر بالجيش . وقــد سمح لهما بالمرور بدون صعوبة .

وبعد عدة بنايات أدخل غافريك بيتيا فى أحد الأبواب .

اجتاز الصديقان الباحة الكبيرة المقفرة ومرا بجانب مربط خيول قوزاقية على أمشاط وخراطيش فارغة مدسوسة تحت جزمات الجنود على الأرض المتصلبة من البرد .

نزلا الى القبو وسارا طويلا فى الظلمة الرطبة على طول مستودعات الحطب ليصلا فى النهاية الى باحة أخرى . ومن هنا عبر فرجة صغيرة بين جدارين عاليين وقاتمين من القرميد كان يمكن الوصول الى باحة ثالثة .

كان غافريك يعرف هنا جميع المنافذ .

كانت الفرجة ضيقة جدا حتى ان بيتيا وهو ينسل وراء غافريك كان يصدم الجدار بمحفظته . وفى نهاية الأمر دلفا الى باحة ثالثة ضيقة عالية ومظلمة مثل الكهف .

ان المرء ليقدر من الزمن الذى يستوجبه الوصول الى هنا والمنعطفات والالتواءات التى قاما بها ، أن واجهة البناية التى تطل على هذه الباحة هى فى شارع آخر .

كانت الباحة كلها ينتشر فيها حطام الزجاج والجبصين . والمصاريع قد أحكم اغلاقها والعمارة تبدو خاوية على عروشها .

كان سكون داو يسود المكان وما حوله .

بيد أن المرء كان يقدر من خلال السكون أن فى الطرف الآخر من العمارة ، فى شارع غريب ضجة حركة مريعة .

وفى مكان آخر كان المرء يسمع من وقت الى آخر من أعلى طلقات نارية كأنما تأتى من السماء وتدوى فى الباحة التى

كالكهف . أسند بيتيا محفظتــه الى الجــدار وطــرف بعينيه مرتعدا . وضع غافريك اصبعين فى فمه — وهــو متريث — وصفر .

انفتح مصراعان من أحد الطوابق العليا وسمع صوت :

— لحظة !

وبعد دقيقة بدت لبيتيا بطــول الساعة قفز الى الباحة من الباب الخلفى رجل أحمر الوجه ينفصد عرقا بدون معطف ويلبس جاكيتا ملوثا بالحوار .

رآه بيتيا وأطلق صيحة دهشة : انه تيرتتى .

كان تيرتتى يغمغم وهو يمسح وجهه المبلل بكمه ويقول :

— هات ، هات ، هات !

وبدون أن ينتبه الى بيتيا انقض على محفظته :

— هات بسرعة ! شكرا ، لقد جاء فى وقته ! اذ لم يعد لدينا شىء .

فك الحزام بعجلة ووضع الأكياس الصغيرة فى جيوبه وعاد راكضا بعد ما صاح :

— قل ليوسف كارلوفيتش أن يرســل المــزيد منها على الفور . اجلب كل ما يوجد . والا لن نستطيع المقاومة .

رد غافريك :

— طيب . سنجلب منها .

وفى هذه اللحظة أصابت رصاصة نقطة تحت السقف وسقط على الصبيين تراب أحمر من القرميد .

وسارعا الى العودة بنفس الطريق الى شارع أرناؤطسكايا الصغير لنقل قسم جديد من « الطرود » وفى هذه المرة كانت المحفظة ثقيلة جدا حتى أن بيتيا قد ثقل عليه حملها .

أدرك بيتيا أخيرا طبيعة « الآذان » التى تملأ محفظته . لو كان فى وقت آخر لترك كل شىء ولاذ بالفرار الى البيت ، الا أنه هذا اليوم سحره اقتحام المخاطر وهو أقوى من حماسة للعب فلم يقبل مهما كلف الأمر أن يتخلى عن صديقه . وكيف يستطيع أن يتخلى عن مشاطرة غافريك فى المجد ! كانت تستفز همته لمجابهة الأخطار عندما يخطر له أن هذا - او هرب - سيحرمه من حق التباهى ببطولاته فيما بعد !

وعاد غافريك وبيتيا أدراجهما . ما أكثر ما تغيرت المدينة ! لقد أصبحت فى حالة غليان .

وعلى التوالى كان الشارع يمتلىء بالناس الذين يجرون فى كل اتجاه ، فيفرغ بسرعة عندما تكنسه رجة من الرصاص .

لم يكن الصبيان على بعد أكثر من خطوتين من الحاجز عندما أمسك غافريك بيتيا من يده ودفعه بسرعة الى أحد الأبواب .

- قف !

- ماذا يوجد ؟

ألقى غافريك نظرة باحتراس الى الخارج وهو ما يزال ممسكا يد بيتيا وسرعان ما ارتد الى الوراء ملصقا ظهره

بالجدار الذى علق عليه لوح أسود كتب عليه أسماء المستأجرين .

— اسمع يا بيتيا ... لن نعاود السير ... فقد لمحت هناك ذلك الجاسوس القذر الذى شد اذنى ... انظر ...

مشى بيتيا على رؤوس أصابع قدميه وتقدم ونظر . كان رجل بمعطف من الجوخ وعلى رأسه قبعة كراكول مستديرة يتجول أمام الحاجز على طول سياج الحديقة المقلوب والبنادق موضوعة على شكل هرم . وحينما التفت رأى بيتيا وجها أجرد خشنا ذا أنف لحيم كان شىء فى هذا الوجه المجهول مألوفا لديه جدا . ان بيتيا قد رآه حتما ولكن أين ؟ كان شىء يغشى ذكرياته . ربما تلك الزرقة التى تلون شفته العليا ؟ ولكنه تذكر فجأة حتما انه الرجل ذو الشاربين الذى كان على ظهر الباخرة « تورغينيف » ولكنه كان حليقا وليس له شارب الآن . ان صورته عالقة فى خاطر بيتيا الى الأبد وانه يعرفه من بين آلاف الناس حتى ولو كان حليقا .

همس بيتيا وهو يلتصق الى جوار غافريك والمحفظة الى الجدار .

— ذو الشاربين ! هذا هو الذى كان يلاحق البحار ولكنه الآن بدون شاربين . أتذكر لقد ضحكت أنت عندما حدثتك عنه .

قال غافريك غاضبا :

– أرأيت ! لقد حلق كيلا يعرف ... القذر ... انه يعـرفنى جيدا .

– ولكن لعلنا نمر مع ذلك ؟

– أتمزح ؟

نظر غافريك من الباب .

– انه يتجول ...

شد قبضته الصغيرة وأخذ يعض عقد أصابعه .

– وهم الآن ينتظرون ... يا له من كلب !

أزت رصاصات بعيدة فى غمرة سكون الانتفاضة المطبق العميق الذى كان قد خيم قليـلا وترامت الضوضـاء بعيدا على أسطحة المدينة .

قال غافريك فجأة :

– اسمع يا بيتيا . أتعرف هذا ؟ انهم ينتظرون ... وسوف ينتظـرون بدون طائل ... ولا تصلهـم الطـرود ... ولسـوف يقتلونهم هناك بالرصاص ، وليس ذاك أصعب من هذا . وأنا لا أستطيع أن أذهب لأن هذا القذر يعـرفنى وسوف يمسكنى لا محالة !

انبجثت دموع غضـب فى عينى غافريك . استنشق الهواء من أنفه ومخط على الأرض ونظر الى بيتيا بهيئة حانقة :

– أتسمع ما قلت ؟

قال بطرفى شفتيه وهو ممتقع من تأثير هذه النظرة الحانقة والصديقة والملحة والضارعة :

ـ أسمع .

ـ هل تستطيع أن تذهب وحدك ؟ لا تجبن ؟

لم يستطع بيتيا أن يلفظ شـيئا من شـدة الانفعال . فقد ابتلع ريقـه وقبل بهزة من رأسـه . نظر غافريك فيمـا حوله وجلا ومد رأسه من وقت الى آخر من الباب ثم أخذ يملأ جيوب بيتيا بأكياس صغيرة .

ـ أتسمعنى ستذهب لتعطيهم كل شىء ، كل هذا القسم ؛ ما فى المحفظة وما فى جيوبك . واذا ألقى القبض عليك فاسكت وقل انك وجدتها فى الشارع وانك لا تعرف شيئا . أفهمت ؟

فهمت .

ـ وحالما تعطيهم هذا ارجع الى هنا بسرعة فسوف انتظرك تحت الباب . أفهمت ؟

ـ فهمت .

اقترب بيتيا من الحاجز وقد اثقلته جيوبه المنتفخة وشـل حركته الخوف والانفعال .

صاح الرجل ذو الشارب وهو ينقض على الصبى :

ـ ماذا تعمل هنا ؟ أنت أعمى ؟

تباكى بيتيا بصوت ضعيف كما فعل غافريك .

ـ يا عم ، يا عم ! أرجوك دعنى أمر . نحن نسكن غير بعيد عن شارع ألكسندر فى البناية الكبيرة الرمادية ان ماما قلقة على جدا وقد تظن أننى قتلت حتما .

وتفجرت من عينيه دموع طبيعية جدا . كانت تسـيل على

خديه الغضين الملوثين . نظـر ذو الشـارب بتقزز الى الطالب الصغير ووضع يده على المحفظة .

قاد الصبى الى حافة الطريق ودفعه دفعا خفيفا بركبته .

— اهرب !

أطلق ساقيه للريح يركض الى البيت الذى علمه .

٢٤

هيئة قيادة فرقة القتال

ولج الصبى الباب وأخذ ينسل عبر الباحة .

ما كان بيتيا ليشعر بقلق شديد عندما مر من نفس المكان مع غافريك قبل ساعة . كان يشعر أنه فى حماية صديق ماهـر مجرب . كان رفيق طريق مطيع مجرد من الارادة فما كان بحاجة الى التفكير . كان مكانه أحد غيره أقوى منه يفكر ويعمل .

وها هو ذا الآن وحده . ما عاد يملك الا أن يعتمـد على نفسه .

وسرعان ما غدت الدنيا كبيرة رهيبة مليئة بالمخاطر الخفية ، عندما غاب غافريك .

كان الخطـر يكمن تحت القنـاطر الحجرية فى الردهـة الداخلية بين الصناديق المشـئومة والموبيليا العتيقة المخـربة . كانت تقف ساكنة وسط الباحة وراء شجرة التوت ذات القشر

الذى كشطته أسنان الخيل ، وتبرز من الفتحة السوداء لحفرة الأقذار المنزلية .

كانت جميع الأشياء تتخذ حجوما هائلة . وكانت خيول قوزاقية ضخمة تزدحم وهى تدوس بيتيا بأردافها الراقصة المذهبة والمخملية . كانت ذيولها الهائلة تلسع محفظة بيتيا .

كان القوزاق ذوو الغرر يلبسون بنطلونات زرقاء ذات حواش حمراء يثبون على رجل واحدة والرجل الأخرى فى الركاب .

كان صوت الملازم الثانى يصيح :

— الى اليمين بالرتل الثلاثى !

كان السيف المشهر من غمده يشق الهواء مثل قوس براق فوق قبعات قوزاق الدون المسطحة والمائلة الى الأذن .

نزل بيتيا الى القبو .

سار طويلا فى الظلمة الخانقة الباردة وهو يستنشق هواء المستودعات المغبر ويمشى بالتحسس كان الصبى يرتعد من الخوف فى كل مرة تمس أهدابه فيها خيوط العنكبوت حتى ليحسبها جناح وطواط .

وأخيرا بلغ الباحة الثانية . هنا لا يوجد أحد .

وحينذاك فى هذا الفراغ الغريب شعر بيتيا بالوحدة الرهيبة . كاد يهم بالعودة أدراجه مسرعا الا أن آلاف الكيلومترات والأهوال تفصله عن الشارع الذى كان ينتظره فيه غافريك .

وفى الفسحة التى تفصل البناية الثانية عن البناية الثالثة كان السكون شاملا حتى ان المرء لتستبد به الرغبة فى الصياح بأعلى صوته دونما تحفظ صياح يأس ولهفة وجنون كى يهرب من وحشة هذا السكون .

سكون مثل هذا ما كان ينجم الا فى الفترة بين عيارين ناريين .

الآن يقتضى أن يدس اصبعيه فى فمه ويصفر ، ولكن بيتيا خطر له فجأة انه لا يحسن الصفير . كان قد تعلم جيدا أن يبصق من بين أسنانه ، ولكنه لم يتعلم الصفير . ولم يفكر بهذا فقد نسيه .

دس الصبى اصبعيه بين شفتيه بدون مهارة ونفخ ولكنه لم يصدر صفير ، نفخ مرة أخرى وقد تملكه اليأس — وبذل كل جهده فلم يخرج سوى لعاب ونوع من الوسوسة .

لم بيتيا شتات قواه وأغمض عينيه وصاح :

— أوهيه !

رن صوته رنينا ضعيفا ولكن الصدى الداوى سرعان ما ملأ كهف الباحة الفارغ .

ومع ذلك فلم يرد أحد . فعاد السكون أكثر اقلاقا .

وفى الأعلى طقطق شيء مصدرا ضوضاء داوية ، وانحدرت قطعة أنبوب الى الأسفل تجر وراءها قطع قرميد وقطع خشب وجبصين .

صاح الصبى بكل قوته :

— أوهيه ! أوهيه ! أوهيه !

انفرج مصراع الأعلى وظهر وجه مجهول .

— لماذا تصيح ؟ هل جلبت ؟ اركض الى هنا بسرعة ! هيا !

وتوارى الوجه .

القى بيتيا فيما حوله نظرة مترددة ولكنه كان وحيدا : ما من أحد يوجد ليطلب منه النصيحة . وفى الأعلى طقطق شىء مرة أخرى . وسقطت قطعة كبيرة من الملاط وتحطمت عند قدمى بيتيا .

انكمش الصبى وانطلق صوب باب الدرج الخلفى . كان يصعد السلم الحديدى الداوى وهو يتعثر بمعطفه الطويل .

صاح صوت غاضب من الأعلى :

— هات ! هات ! هات !

كانت المحفظة الثقيلة تقرع ظهره قرعا أليما ، وكانت جيوبه المحشوة تضايق مشيه . كان يشعر بحرارة وكانت عمرته ندية كلها ، والعرق يسيل على حاجبيه وعينيه . كان وجهه يلتهب حرارة .

وكان الصوت الحانق والضارع خلال ذلك يستمر فى الصياح من الأعلى :

— هات ! هيا هات ! يا غضب السماء !

وما أن وصل بيتيا الى قرص الدرج فى الطابق الرابع وهو

لاهث الأنفاس ممدود اللســان حتى أمسكه من كتفيه رجــل يلبس معطفا ذا ياقة من فرو الخروف الفاخر ولكنه وسخ وهو حاسر الرأس وشعره مبلل ملتصق بجبينه .

كان شاربه الأنيق ولحيته المقصوصة لا يتلاءمان مع وجهه العادى المحتقن وأنفه الأفطس .

اتقدت عيناه الجريئتان المرحتان والمذهــولتان فى الوقت ذاته تحت حاجبيه اللذين غطتهما طبقة رقيقة من الجبص وكان يبدو بمظهر الرجل الذى استحوذ عليه عمل شــاق ومستعجل جدا وانتزع منه انتزاعا .

بادر مسرعا وأمسك بيتيا من كتفيه بيديه القويتين .

ظن بيتيا أنه سيهزه من كتفيه كمــا يفعل بابا فى حالات غضبه ، فجثا من خوفه بنفس الحركة لحماية نفسه ولكن الرجل نظر اليه بحنان وسأله متمتما بسرعة :

— جلبتها ؟

ولم ينتظر الجواب فجر الصبى الى المطبخ الفارغ فى احدى الشقق ، وكان يجرى فى داخلها شيء غريب مريع لا يجرى عادة فى شقة وقد أحس بيتيا بذلك بحدسه على الفور .

ألقى الرجل على بيتيا نظرة عــابرة ثم دس يده فى جيوبه بدون أن ينبس ببنت شفة وأخذ يخــرج الأكيــاس الصغيرة الثقيلة . كان بيتيا يقف أمامه وذراعاه منفرجتان .

يوجد فى هذا الرجل المجهول ذى الشــارب واللحية شيء

مألوف لدى بيتيا . ان بيتيا قد رآه حتما فيما مضى . ولكن أين ؟ وفى أى مناسبة ؟

اعتصر الصبى ذاكرته فلم يتذكر شيئا . كان شيء يضايقه ويصرفه عن القصد أتراه الشارب أو اللحية ؟

أخرج الرجل بسرعة الأكياس الصغيرة الأربعة من جيوب الصبى . ثم سأل :

— هذا كل شيء ؟

— لا ، يوجد أيضا فى المحفظة .

صاح الرجل :

— يالك من فتى ! آه شكرا ! انك لنعم الطالب !

ولكى يعبر عن اعجابه أمسك الرجل عمرة بيتيا من رفرفها وأدخلها فى رأس الصبى حتى أذنيه .

ورأى بيتيا قرب أنفه يدا مفتولة مغطاة بالشحار وتفوح منها رائحة البارود وعليها مرساة صغيرة زرقاء موشومة .

صاح بيتيا :

— البحار !

بيد أن هناك شيئا قد هوى فى داخل الشقة فى نفس اللحظة وحدثت هبة هواء شديدة . لقد سقط قدر من على الرف . ركض البحار بحركة خفيفة الى الدهليز بعد ما صاح :

— ابق هنا !

وبعد دقيقة دوت ست طلقات نارية منقطعة فى مكان

مجاور . وبادر بيتيا لخلع محفظته وأخذ يفكها بأصابع مرتعشة .
وفى هذه اللحظة دخل تيرتتى الى المطبخ وهو مترنح خارج من الدهليز . ما كان يرتدى جاكيتا بل كان يلبس قميصا ذا كم منزوع . كان هذا الكم يعصب رأسه ، والدم يجرى على صدغه من تحت الضماد . وكان يمسك مسدسا بيده اليمنى .

وعندما أبصر بيتيا ود أن يقول شيئا ولكنه قام بحركة من يده وابتدأ بالشرب ورأسه مقلوب تحت صنبور الماء .

سأله وهو لاهث يبلع الماء الجارى على وجهه الشاحب .

— أنت جلبتها ؟ وغافريك ؟ ما يزال حيا ؟

— نعم !

ما كان لدى تيرتتى وقت ليطرح عليه أسئلة ، فأخذ يخرج الأكياس الصغيرة من المحفظة بدون أن يمسح وجهه المبلل .

دمدم وهو يستوى على قدميه بصعوبة :

— على كل حال لن نستطيع الثبات . سنهرب من الأسطحة ... ها هم ينصبون مدفعا ... وأنت يا صبى اهرب والا عرضت نفسك لخطر الاصابة بالرصاص ... اهرب بسرعة . شكرا . مع السلامة .

جلس تيرتتى على مقعد ولكنه سرعان ما انتصب واقفا وهو يمسح مسدسه على ركبته . ثم انطلق الى الدهليز حيث كان يسمع أزيز الطلقات النارية وضجة الزجاج المحطم .

تناول بيتيا محفظته التى صارت خفيفة وجرى الى الباب ،

على أن فضوله قد أوقفه بعض حين فقد ألقى نظرة الى صدر الدهليز فرأى من الباب المفتوح على مصراعه حجرة مليئة بالأثاث المكسر .

وقد لمح بيتيا وسط الحجرة المفروشة جدرانها بالورق الرقيق ذى الزخارف القاتمة ، فجوة مفتوحة وظهـر هيكل الجـدار عاريا .

كان بعض الرجال ملتصقين بحواف النـوافذ وقد نزعت أطرها ، يطلقون الرصاص من المسدسات بسرعة .

أبصر بيتيا رأس تيرتتى المعصوب وياقة الفرو للبحار ورأى أيضا معطفا ذا وبر أسود وعمرة طلاب .

كان هذا كله يرف ويغيب فى سحب الدخان الزرقاء .

كان البحار يقف على ركبته أمام حافة النافذة حيث وضع منصب فولاذى وكان فى كل مرة يخرج يده المهتزة من اطلاق الرصاص خارج النافذة صارخا بحنق :

— أطلقوا النار ! النار ! النار !

وبين كل هذه الحركة والفوضى والجلبة والدخان كان رجل واحد باقيا بهدوء تماما ، وجهه أصفـر غير هياب وفوق عينه المغمضة ثقب أسود .

كان متمددا وسط الحجرة بدون راحة ، ووجهـه ملتفت الى السقف بين الخراطيش والأمشاط الفارغة .

أما نظارته المكسورة التى ظلت حمالتها السوداء عالقة بأذنه

البيضاء القاسية ، فكانت ملقاة بجانبه على الأرض التى يملأها الجبصين . وكان على الأرض أيضا قبعة كأنما وضعت عمدا ، وهى قبعة مهندس عتيقة ذات رفرف مشقوق .

نظر بيتيا الى هذا الرجل وأدرك فجأة أنه جثة هامدة .

انطلق خارج البيت ، فما عاد يتذكر كيف خرج وكيف وصل الى الباب الذى ينتظره فيه غافريك .

هل سلمتها ؟

-- أجل !

حكى بيتيا ـ وحلقه يغص من الانفعال ـ كل ما رآه فى الشقة الرهيبة .

تمتم بيتيا وهو يتنفس بصعوبة :

— على كل حال لن يستطيعوا الثبات والمقاومة ... سيهربون من على الأسطحة ... فقد نصب مدفع قبالة البناية ...

امتقع وجه غافريك ورسم على صدره اشارة الصليب . هذه أول مرة يرى فيها بيتيا صديقه يرتاع ارتياعا شديدا .

وعن كثب كأنما بجانبهما قصف مدفع قنبلة ، فقرع الصدى الحديدى على الأسطحة .

صاح غافريك يائسا :

— ضاع كل شىء ! هيا نهرب !

قفز الصبيان الى الشارع وجريا فى المدينة التى تبدل مظهرها للمرة الثالثة فى الصباح نفسه .

كان القوزاق آنذاك يسيطرون على الموقف ، وكان قرع نعال خيولهم يبلغ المسامع من كل اتجاه .

وكانت فصائل من قوزاق الدون بغررهم المتدلية على جباههم قد اختفوا في الساحات وكانوا يخرجون بسرعة من أبواب المباني ويجلدون الناس بملء أيديهم .

لم يكن هنا من ملجأ أمين : فجميع المداخل والأبواب كانت مغلقة باحكام يحميها الجيش والشرطة . وكان كل زقاق شركا .

وكان ما تبقى من المتظاهرين المتشتتين يركضون في كل اتجاه اعتباطا دونما أمل لهم بالنجاة . كان القوزاق يمسكون الناس ويحصدونهم واحدا واحدا .

وفي شارع أرناؤطسكايا الصغير رأى الصبيان رجلا ذا ساقين مفتولتين بدون معطف ولا قبعة يمر راكضا وسط الشارع . كان يتأبط علما أحمر مع عصاه انه صاحب المرمى . كان يركض بشكل متعرج وهو يعرج ملقيا بنفسه تارة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال .

لو كانت هذه المشية السريعة الغريبة في وقت آخر لأضحكت الصبيين ولكنهما هذه المرة لم تبعث في نفسهما سوى شعور الذعر .

كان يوسف كارلوفيتش كلما سار عدة خطوات أدار رأسا شاحبا منهكا ذا عينين زائغتين وكان قوزاقيان يطاردانه .

كانت نعال الجوادين تقرعان بلاط الطريق الغرانيتى فيتطاير الشرر ويبدو باهتا فى نور النهار .

وفجأة وجد يوسف كارلوفيتش نفسه قد أدركه الجوادان تركهما يمران ورمى بنفسه جانبا متشبثا بأحد الأبواب .

كان الباب مغلقا . فجره وقد تملكه اليأس وضربه برجله ودفعه بكتفه وما كان الباب ينفتح . لفت القوزاقيان العنان وصعدا على الرصيف .

انطوى يوسف كارلوفيتش وأمال رأسه وشد العلم على صدره بكلتا يديه . ولمع سيف . تذبذب ظهره وكان الجاكيت قد تمزق من طرفه وانتفض صاحب المرمى واستدار .

تشنج وجهه من الألم وبدا للأعين مع سوالفه المائلة .

وصاح بلهفة فى الشارع :

— يا أنذال ! يا جلادون ! فليسقط الاستبداد !

وفى نفس اللحظة لمع سيفان بقسوة فى وقت واحد . سقط يوسف كارلوفيتش وهو يستمر فى ضم العلم الى صدره المكشوف ذى الشعر فبدا فيه وشم أزرق .

مال أحد القوزاق الى جسمه .

وبعد دقيقة كان الفارسان يخبان مبتعدين وهما يجران بطرف حبل جثة رجل تخلف على الطريق الأغبر أثرا أحمر قانيا .

كان الجمهور يركض خارجا من أحد الأزقة وفرق الصديقين .

٣٩

فتنة ضد اليهود

فى هذا اليوم فقد بيتيا حس الزمن .

وحينما انتهى به المطاف ووصل الى البيت بدا له ان الليل قد أرخى سدوله بينما كان الوقت فى الساعة الثانية بعد الظهر .

كان كل شيء هادئا مطمئنا فى حى ساحة كوليكوفو والقيادة . كانت أحداث المدينة تصل الى هنا على شكل شائعات ، وصدى الطلقات النارية البعيدة . غير أن الناس اعتادوا على ذلك منذ وقت طويل .

كانت السماء منخفضة متلبدة بالغيوم سوداء تقريبا تنذر ببرد قارس لثلج قريب . كان المساء فى ذلك الفصل يبتدىء منذ الصباح . كانت قد ظهرت بعض بلورات الثلج تتطاير فى الهواء العكر المزرق . ولكن الأرض المتصلبة بقيت سوداء كلها ولم تقع عليها أية قطعة من الثلج بيضاء .

دخل بيتيا من الدرج الخلفى تاركا فى المطبخ محفظته الفارغة وانسل باحتراس الى حجرته . لم يكن الوقت متأخرا كثيرا حتى انه ما من أحد قلق عليه .

وجد بيتيا الغرف ساكنة هادئة وسمع وسوسة ماكنة الخياطة

وهى تدور بأقصى سرعتها ، وشم رائحة حساء الشمندر الذى كان يغلى وشعر فجأة برغبة فى الانقضاض على عنق والده ليضم خده الى رودنجوته ويبكى ويقول له كل شىء .

على أن هـذا ما كان سـوى بارق لمـع فى نفس الصبى المضطربة . ثم استبد به شعور آخر قوى وصامت : انه شعور المسئولية والسر . لقد أدرك الصبى ببساطة وجد ومن أعماق قلبه لأول مرة فى حياته أن فى الحياة أشـياء يجب ألا يقولها حتى لأقربهم اليه وأعزهم عليه وأنه يجب أن يحتفظ بها لنفسه مهما كلف الأمر .

كان الوالد يتأرجح فى كرسيه ويداه وراء رأسه وأنفه مجرد من النظارة . تقدم بيتيا عـدة خطـوات وجلس على الكرسى بجانب والده ويداه موضوعتان برصانة على ركبتيه .

— لقد ضجرت يا بنى ؟ فلم يعـد لديك ما تعمله ؟ اصبر قليلا . كل شىء سيدبر عما قـريب . لسـوف تفتح الصفوف وتذهب الى المدرسة وتأخذ علامات سيئة . وسوف تشعر بقلبك أكثر خفة وطربا .

وابتسم ابتسامته المعهودة الحنون .

انصـفق باب فى المطبخ وسارعت خطـوات فى الدهليز . جاءت دونيا لتستند متعبة منهارة على اطار الباب وتضم يديها الى صدرها :

— أوه ! يا سيد ...

ولم تستطع أن تزيد كلمة ...

كانت تلهث . وكانت خصلة من شعرها فى طرفها دبوس قد أفلتت من منديلها المنحرف وتهدلت على وجهها الشاحب .

لقد اعتادوا فى الوقت الأخير فى البيت على هذه الاقتحامات المفاجئة . كانت دونيا كل يوم تقريبا تعلن نبأ التقطته من المدينة . وفى هذه المرة كانت عيناها زائغتين ونفسها متقطعا وكل هيئتها المجنونة تفصح بأنه قد حدث شيء غريب مريع .

كانت تدخل معها صمتا مشئوما جدا حتى ان الساعة النواسة تبدو قد ضاعف تكتكتها وأعتم لون ألواح الزجاج . توقفت وسوسة ماكنة الخياطة فجأة وأسرعت الخالة ويداها على صدغيها اللذين برزت عروقهما الزرقاء .

— ماذا ؟ ... ماذا يوجد ؟

كانت دونيا ساكتة وهى تحرك بسكون شفتيها .

ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

— اليهود يقتلون فى شارع الحبال .

صاحت الخالة وجلست على كرسى ويدها على قلبها :

— غير ممكن !

— قصف الله عمرى ... انهم يتلفون حوانيت اليهود وقد رموا خزانة الثياب من الطابق الثانى الى الشارع وبعد عشر دقائق سيكونون هنا .

قفز الوالد واقفا على رجليه ممتقعا وفكه يرتعش يتحسس نظارته ليضعها .

— ولكن ما سيكون هذا يا الهى ! ؟

رفع بصره الى الايقونة ورسم اشارة الصليب على صــدره مرتين .

ظنت دونيا أن هذا اشارة . استعادت صوابها وصعدت فوق كرسي وأخذت تنزع الايقونة بحركات متقطعة :

— ماذا تعملين يا دونيا ؟

سارعت لجمع الايقونات ولم ترد . كانت تضعها فى النافذة قبالة الشارع بحركة عصبية وتسندها على أكداس الكتب وعلب الشاى وكل ما يقع تحت يدها .

كان الوالد يتابعها بنظره ساهما .

— لا أفهم ماذا تريدين ؟

تمتمت مذعورة :

— أوه يا سيد ! وكيف اذن ؟ يحطمــون كل شىء لدى اليهود . ولا يلمســون الروس ... عندمــا تكون فى النوافذ ايقونات لا يدخلون الى البيت .

تشنج وجه الوالد فجأة .

وصاح بصوت حاد متقطع ، وأخذ يضرب الطاولة بيده :

— أمنعك عن هذا ! لا تحاولى أن تعمــلى هذا ! أمنعك عن هــذا ... أتسمعين ؟ كفى عن هــذا على الفــور ... ان الايقونات ليست موجودة لهذا الغــرض ! ... هذا ... هذا تدنيس للمقدسات ! على الفور ! ...

كان سوارا كميه المنشيين قد خرجا من الكمين وامتقع لونه وتغطت جبهته العالية المحدودبة ببقع وردية .

لم ير بيتيا أباه بهـذه الحـالة قط . كان يرتجـف وكان مخيفا . اندفع الوالد وأخذ أيقونة من على النافذة .

ولكن دونيا كانت تمسكها بيأس دون أن تفلتها .

صاحت يائسة :

ــ يا سـيدى ... ماذا تعمـل ؟ سيأتون ويقتلون الجميع هنــا ! يا تاتيانا ايفانوفنــا ! يا آنستى ! سيقتلون الجميــع ! ولا يردعهم رادع ! ...

صرخ الأب وقد انتفخت أوداجه :

ــ صــه ! أنا السـيد هنــا ! لن أسـمح فى بيتى ... فليــدخلوا ! ... وليقتلوا الجميع هؤلاء الوحوش ... لا يحق لك ... لا ...

فقشت الخالة بأصابعها .

ــ يا فاسيلى بيتروفيتش ... أرجوك . هدىء من روعك !

أسند الوالد رأسه الى الجدار وغطى وجهه بيديه .

صاحت دونيا فجأة :

ــ ها هم !

وأطبق الصمت .

كانت أنغام خافتة من أنشودة تبلغ المسامع فى الشارع . كان المرء يحسب هذا موكبا دينيا أو جنازة تمر فى مكان بعيد !

ألقى بيتيا نظرة محترسة من النافذة . ما كان فى الشارع أحد . كانت السـماء فوق ساحة كوليكوفو المقفـرة متلبدة الغيوم سوداء ..

وكانت الريح قد التفت فى تجاعيد الأرض العارية بعض قطع الثلج الخفيف كالزغب .

اتسعت الأنشودة وانضحت انغامها وأدرك بيتيا أن السحابة المتلبدة القاتمة فى أفق ساحة كوليكوفو الى يمين المحطة لم تكن سحابة بل جمهور يقترب على مهل .

كان فى البيت ضجيج كوى النوافذ .

وكانت تبلغ الأسماع فى المطبخ أصوات متحفظة وهمس ووقع خطى ووسوسة تنورة . واذا بامرأة مسنة تمسك بيدها فتاة باكية ذات شعر أحمر تبدو فى الدهليز .

كانت تلبس ثيابا كأنما هى قادمة فى زيارة ، وترتدى تنورة سوداء متموجة وخمارا وقفازا لا أصابع له وكانت تضع على رأسها قبعة سوداء عالية عليها ريشة دجاجة مائلة جانبا قليلا . كان يبدو وراء كتفها وجه نوسيا المستدير الشاحب وقبعة « بوريس دان من أسرة الجرذان » .

انها السيدة كوغان مع كل اسرتها .

لم تجرؤ على تخطى الباب فكانت تقدم الاحترامات فى عتبة الغرفة فتلم تنورتها بيد وتضع يدها على قلبها . وكانت ابتسامة باهتة مهذبة مذعورة ترف على وجهها الصغير المتغضن والمنفعل .

صاحت بصوت حاد كصوت الطائر وهى تمد يديها المرتعشتين بالقفازين الى الوالد .

— يا سيد باتشى ! يا تاتيانا ايفانوفنا ! لقد كنا دائما جيرانا طيبين ! ... أهذا من ذنب البشر اذا لم يكن لهم نفس الاله !..

وركعت على ركبتيها .

وصاحت وهى تنتحب مذعورة :

— انقذوا أولادى ! فلينهبوا كل شيء ولكن فليبقوا على الأولاد !

صاح نوسيا حانقا وهو يدس يديه فى جيوبه :

— يا ماما لا تذلى نفسك !

والتفت فبدا عنقه حليقا مزرقا .

قال « بوريس دان من أسرة الجرذان » بصوت صافر :

— ألا تسكت يا نعوم أم تريد أن أصفعك ؟ ان أمك تعرف ما تفعل . انها تعرف أن السيد باتشى رجل مثقف ولن يقبل أن نقتل .

تمتمت الخالة مبتدرة لتنهض اليهودية التى ركعت متوسلة :

— أرجوك يا سيدة كوغان ! ماذا تعملين ! ألا تخجلين ؟ نعم حقا ! آه يا الهى هيا ادخلوا ! هيا يا سيد كوغان ... يا نوسيا ... يا دورا ... يا للمصيبة !

وبينما كانت السيدة كوغان تنتحب وتسدى آيات الشكران التى احمر لها وجه الوالد والخالة وبينما كانت تخفى أولادها وزوجها فى جميع أركان الشقة كانت الأنشودة ما تزال تتسع وتقترب .

كان جمهور ضئيل يسير الى البيت عبر ساحة كوليكوفو ، جمهور أشبه ما يكون بالفعل بموكب ديني .

كان يمشي فى المقدمة عجوزان أشيبان بمعطف شتوى حاسرى الرأس يحملان صورة الامبراطور على منشفة مطرزة . وتبين بيتيا على الفور الشريط الحريرى الأزرق على الكتف ووجه القيصر كأنه بلوطة . ووراء الصورة كانت تتقدم الرايات مرفوعة عاليا فى الهواء البارد المزرق قليلا كأنه ماء الصابون .

وبعدئذ برز جمهور من الرجال والنساء يلبسون ملابس جميلة دافئة يمشون مشية مهيبة وينتعلون شتى أنواع الأحذية . وكان بخار أبيض يخرج من أفواههم الفاغرة وهم ينشدون :

— انقذ يا رب خادميك وباركهم ...

كان مظهرهم مسالما وورعا جدا حتى ان وجه الوالد قد أشرق بابتسامة مترددة بعض الوقت . وقال :

— انظروا ! ها هم أولاء الناس يمشون مشية هادئة مسالمة ولا يؤذون أحدا وتعتقدون ...

ولكن الموكب توقف قبالة المنزل وخرجت من وسط الجمهور بعنف امرأة بدينة لها شاربان وخدان توردا حتى ازرقا وعلى صدرها شالان متصالبان . كانت عيناها الجاحظتان السوداوان كأنهما حبتا عنب أسود تحدجان النوافذ بحنق . ثم فتحت رجليها الغليظتين المغلفتين بجورب صوفى أبيض سميك وكأنها رجل ، وهددت البيت بقبضة يدها .

صرخت بصوت حاد كبائعات السوق :

— آه يا أوباش ! يا يهـود ! لقد اختفيتم ؟ لا قيمة لهذا سوف نمسك بكم . أيها المسيحيون هيا وأرونا أيقوناتكم !

وما أن انتهت من كلامها هذا حتى رفعـت ذيل تنورتها من الأمام وذهبت بخطا حازمة لتلم أحجارا كبيرة مخصصة لتصليح الطريق .

وخرج فى اثرها من الجمهور عشرون رجـلا تقريبا طويلو القامة بزنود قوية وتهدلت على عيونهم خصـلات من الشعر وأشرطة حريرية بألوان ثلاثة مشكولة على معاطفهم . اجتازوا الطريق واحدا واحدا على مهل يأخـذون الأحجـار بخفة وهم يمرون أمام الكومة .

وعندما مر الرجل الأخير من هـؤلاء الناس كانت كومـة الأحجار قد انتهت وما عادت تظهر سوى الأرض المستوية .

ساد صمت رهيب . وما عادت السـاعة تتـكتك بل كانت تقصف كالمدافع وكانت ألواح الزجاج اسودت . وطال الصمت جدا حتى أن الوالد وجد الوقت ليقول :

— لا أفهم ... ماذا يصنع رجال الشرطة ؟ وجنـود القيادة لماذا لا يرسلونهم الى هنا ؟

صاحت الخالة وقد انتابها غضب هيسترى :

— آه يا للشرطة !

بقيت جملتها عالقة فى الهواء .

وعاد الصمت أكثر رهبـة . كان « بوريس دان من أسرة الجرذان » يجلس على حافة كرسى وسط الصالون وقبعته مائلة الى جبينه يرمق زاوية الحجرة بعينين مريضتين محملقتين !

كان نوسيا يمشى جيئة وذهابا فى الدهليز ويداه فى جيوبه ثم وقف يصيخ السمع وكانت شفتاه تفتران عن ابتسامة ملؤها الازدراء .

دام الصمت لحظة أيضا بشكل لا يطاق ثم انفجر . فقد ضربت حجرة من الأسفل فأصابت الزجاج . وسرعان ما قيل ان العاصفة انقضت على البيت . كانت ألواح الزجاج تتساقط على الرصيف وكان صفيح اللافتة المقلوعة يحدث ضجيجا شديدا . وكانت تبلغ الأسمـاع ضـجة الأبواب والجرارات التى تفتح عنوة . وكانت الأنظار ترى علب السـكاكر ودنان الخمر وعلب الكونسروة تتدحرج فى الطريق .

وكان جمهور مسعور يحيـط بالبيت ويصرخ صراخا يصم الآذان . وكانت الصـورة ذات الاطار الذهبى وفوقها الأكليل تتذبذب وتنوس . وكان يقـال ان ضـابطا بكتيفتيه تحيط به الرايات يتطاول على رؤوس أصـابع قدميه لينظـر من فوق الرؤوس .

تمتم كوغان وهو يفتل يديه بهدوء :

— يا سـيد باتشى ! أترى ماذا يجـرى ؟ مئتـا روبل من البضائع أتلفت !

صاح نوسيا :

— بابا أسكت . لا تذل نفسك . لا قيمة للمال .

كانت الفتنة مستمرة .

— يا سيد انهم يفتشون المساكن ويبحثون عن اليهود !

صرخت السيدة كوغان واندست فى الدهليز المعتم كالدجاجة لدى رؤيتها السكين :

— يا دورا ! يا نعوم ! ... يا أولادى ...

— يا سيد ، انهم يصعدون الدرج ...

كانت تصل المسامع الضوضاء المدوية الفظيعة للأصوات والجزمات التى كان يضخمها صيوان المدخل .

زر الوالد جاكيته بأصابع مرتجفة وبحركات سريعة وانطلق صوب الباب وهو يسزق بكلتا يديه ياقته المنشاة التى تخنقه . ولم يكن لدى الخالة وقت لتقول كلمة اذ أصبح فى الدرج .

— كرامة لله ، يا فاسيلى بيتروفيتش !

— لا تذهب ، يا سيد ، سيقتلونك !

صاح بيتيا :

— بابا !

وجد فى اثره .

نزل الوالد الدرج بسرعة برودنجوته الأسود مستقيم القامة خفيفا ووجهه جامد ، وسوار كميه يوسوسان .

كانت قد صعدت لمقابلته المرأة البدينة ذات الجورب الصوفى الأبيض ورجلاها منفرجتان . كانت تمسك حجرا ثقيلا

بشدة بيدها ذات القفاز الذى لا أصـــابع له ولم تعد عيناها سوداوين بل ذاتا زرقة باهتة تغشاهما بقع كامدة مثل عين ثور ميت . وصعد فى اثرها الرجال الأشـــداء المعرقين فى قبعاتهم الزرقاء مثل قبعات البقالين .

صاح الوالد بصوت حاد ناب وقد انتفخت أوداجه :

— يا سادة ! من أعطاكم الحـــق بانتهاك حرمات المنازل ؟ هذا نهب ! ولا أسمح لكم بذلك .

— ومن أنت ؟ رب الدار ؟

نقلت المرأة الحجر من يدها اليمنى الى اليد اليسرى وصفعت اذن الوالد بعنف بدون أن تنظر اليه .

ترنح الوالد ولكنه لم يترك يسقط : فقد أمسكته من ذيل روبدنجوته الحريرى يد حمراء فيها بقـــع وردية ، وجـــرته الى الأمام فتمزق الجوخ العتيق .

صاح بيتيا وقد خرج عن طوره وأخذ يبكى :

— لا تضربوه ، هذا أبونا ! لا يحق لكم أن تصنعوا هكذا يا أوغاد !

شد أحدهم السيد باتشى من كمه بحـــركة قاسية ملؤها الحقد والعنف . فانفصل الكم ووقـــع ســـوار الكم مع زره وتدحرج على الدرج . رأى بيتيا خدشا ينزف فى أنف أبيه . ورأى عينيه الضعيفتى البصر مغرورقتين بالدموع ونظارته على الأرض وشعره قد تشعث .

اخترق قلب الصبى ألم لا يطاق . وود لو يموت ولا يمس أحد أباه بأذى .

كان الأب يدمدم من بين أسنانه وهو يتراجع أمام المعتدين :

— يا لكم من وحوش ، يا لكم من حيوانات ! يا لكم من بهائم !

سارعت الخالة ودونيا من الأعلى والأيقونات فى يديهما .

وكانت الخالة تردد وعيناها تترقرقان بالعبرات :

— ماذا تعملون يا سادة ! ألا تخافون الله ؟!

كانت دونيا ترفع عاليا بقدر ما تستطيع أيقونة المنقذ مع غصنه الصغير من الأزهار البرتقالية المصنوعة من الشمع تحت الزجاج وتصيح حانقة :

— ألستم مجانين ! ها أنتم تضربون مسيحيين أورثوذوكسا ! ابدأوا بفتح عيونكم عودوا من حيث جئتم ! ليس لدينا يهود ! هيا اغربوا !

وسمعت صفارات الشرطة تطلق صفيرها ، أولئك الشرطة الذين كعادتهم لا يأتون الا بعد نصف ساعة من الفتنة . وضعت المرأة البدينة الحجر على الدرج ومسحت يديها جيدا بذيل تنورتها وهزت رأسها :

— هيا كفى هنا ! ليس كل شىء فى وقت واحد . ألا تسمعون شرطتنا الذين لا يكفون عن الصفير . هيا بنا الى

اليهـود في شـارع العين الصغيـرة في منعطـف شـارع بوتانيتشيسكايا .
نزلت الدرج وهي تلهث وترفع تنورتها الثقيلة .

٤٠

بدلة الضابط

بقي الرصيف المقابل للبناية عدة أيام مغمـورا بالأحجار وحطام الزجاج والصناديق وأزرق الغسيل المبعثر والرز والخرق وغيرها من الخردوات من كل صنف .

كان يعثر في المرج والأعشاب على ألبوم صور ورف من الخيزران ومصباح أو مكواة .

كان المارة يلفون ليتجنبوا هذه الأنقاض كأنما مجرد لمسها يصلهم بالفتنة ويصمهم مدى الحياة .

وكان الأولاد أنفسهم الذين ينزلون ، مرتاعين فضوليين ، الى الحانوت المنهوب يضعون أيديهم في جيوبهم كيلا يدعـوا لأنفسهم أن تغريها قطع الحلوى الملقاة على الأرض أو علب مدهوسة لسيكارات ماركة « كيرتش » .

كان الوالد يقطع الغرفة طيلة النهار وقد تصابى واشتد أيده فجأة وغدت حركاته أسرع من العادة ، وبدا صدغاه مبيضين بعض الشيء وذقنه ناتئة متوترة . وكان رودنجـوته قد أصلح

بمهارة كبيرة حتى ان المرء ما كان يرى من أثر للتلف تقريبا .
عادت الحياة الى مجراها العادى .

ما عادت طلقات الرصاص تشق الفضاء فى الشوارع . كان صمت الهدوء قد أطبق على المدينة . ولأول مرة منذ الاضراب مرت عربة الركاب أمام المنزل ، عربة ضخمة خرقاء من نوع العربات المدنية ذات دواليب خلفية ضخمة بينما الدواليب الأمامية صغيرة كل الصغر .
صفرت قاطرة فى المحطة .

وجلبت الجرائد والمجلات : « روسكييه فيدوموستى » و « نيفا » و « زادوشيفنويه سلوفو » .
وذات يوم نظر بيتيا من النافذة ورأى أمام الباب عربة البريد الصفراء .
غمرت قلب الصبى حرارة ، وخارت قواه .
فتح ساعى البريد باب العربة الخلفى وأخرج منها طردا .
صاح بيتيا وهو يضرب بكلتا يديه حافة النافذة :
— انه من عند جدتى !

كان قد كف عن التفكير به . ولدى رؤية العربة الصفراء تذكر « الآذان » والبدلة الرسمية المتلفة والحذاء المبيع والحصالة المسروق ما فيها ، وبعبارة موجزة تذكر جميع جرائمه التى يمكن أن تكتشف فى كل لحظة .
رن الجرس . فأسرع بيتيا الى الدهليز وصاح بانفعال :

ـ لا تلمسوه . هذا لى . هذا لى .

وبالفعل أدهش الجميع أن قرأوا على القماش هذه الكتابة بحروف بنفسجية كبيرة :

« الى السيد بيوتر فاسيليفتش باتشى .

يسلم بيده »

انتزع الصبى القمـاش المخيط بخيط ثخين وهـو يكسر اظافره . كان صبره قد نفد .

أخذ بيتيا سكينا من المطبخ وشـق العلبـة الخفيفة مثل الكمنجة . وأخرج منها شيئا مغلفا بعناية فى رقم قديم جدا من جريدة « الانفاليد الروسى » .

انه بدلة ضابط عسكرية .

صاح بيتيا مزهوا :

ـ بدلة جدى ! ها هى ذى !

ما كان فى الطرد سواها .

تمتمت الخالة :

ـ لم أفهم ...

قال الوالد بجفاف وهو يهز كتفيه :

ـ شىء غريب أن ترسـل الى ولد بزة عسكرية . ان هذا مخالف لأصول التربية ! ...

صاح الصبى مبتهجا :

ـ ولكن لا ! صه ! انكم لا تفهمون ! ما أحسن ما صنعت جدتى !

وأخذ يعدو الى غرفة الأطفال مع الصرة التى طالما انتظرها .

لمعت الأزرار المذهبة المغلفة جيدا من تحت ورق ناعم جدا . تفحصها بيتيا بسرعة .

يا لخيبة الأمل ! كانت بدون نسور !

انها ازرار لا تتميز بشيء عن أزرار الجنود العادية ، وهى أرخص الأنواع . عد بيتيا منهـا ستة عشر لا أكثر ولا أقل ، ولكن هذه المجموعة كلها ما كان يمكن استبدالها بأكثر من ثلاثة أزرار ذات القيمة « خمسة » .

ماذا يعنى هذا ؟ لم يعـلم بيتيا الا فى وقت متأخـر ، بعد سنوات عديدة أن أزرار البدلات العسكرية للضباط فى عهد الامبراطور ألكسندر الثـانى لم يكن لها نسـور . ومن كان يستطيع أن يتنبأ بذلك ؟ شعر الصبى المسكين بالخيبة المريرة . ظل جالسـا على حـافة النافذة تاركا البدلة غير المفيـدة على ركبتيه .

كانت بلورات الثلج تتطاير وراء الزجـاج أمام مقياس الحرارة . كان الصبى يتتبعها ببصر ساهم دون أن يشعر بالفرحة التى كانت تبعثها فى نفسه عادة رؤية أول سقوط الثلج .

عادت صور الأحداث تمر أمـام عينيه واحدة اثر واحدة ؛ تلك الصور التى مثلها وشهدها هو بنفسه . كان هـذا كله يبدو له غامضا بعيدا غير محتمل كأنه حلم . ألم يجر هذا فى مدينة أخرى فى بلاد أخرى ربما ؟

ولكن بيتيا كان يعرف أن هذا لم يكن حلما . لقد حدث هذا هناك على مقربة وراء حقل كوليكوفو وراء هذا الثلج الأبيض الذى يرف بين السماء والأرض .

وغافريك أين هو ؟ وما مصير تيرتتى والبحار ؟ هل نجحا فى الفرار من على الأسطحة ؟

بقيت هذه الأسئلة بدون جواب .

كان الثلج أثناء ذلك يستمر فى التساقط ويغشى الأرض السوداء لحقل كوليكوفو بغلالة الشتاء النقية البهيجة التى انتشرت أخيرا .

٤١

شجرة عيد الميلاد

كانت عشية عيد الميلاد .

استيقظ بافليك قبل الفجر . كانت عشية عيد الميلاد بالنسبة له عيدا مزدوجا اذ أن هذا اليوم يوافق عيد ميلاده .

ولعل المرء يتصور مدى اللهفة التى كان الولد ينتظر بها هذا النهار السعيد والغريب فلسوف يغدو فى الرابعة من عمره دفعة واحدة !

قبل يوم كان فى الثالثة من عمره وهو الآن فى الرابعة ! فمتى تم هذا التبدل ؟ لا ريب أنه تم فى الليل .

كان بافليك قد عزم منذ وقت طويل أن يترقب هذه اللحظة السرية التى يكسب فيهـا الأولاد عاما . استيقظ فى منتصف الليل وحملق عينيه ولكنه لم يلاحظ شيئا خاصا . كل شىء كما هى العادة : الكومودينا ومصباح الليل الصغير والنخلة اليابسة وراء الايقونة .

كم عمره ؟ ثلاث سنوات أم أربع ؟

أخذ الولد يتفحص يديه بامعان ، ثم ضرب اللحاف عـدة ضربات برجليه . لا ، ان يديه ورجليه هى نفسـها كما كانت البارحة مسـاء عندما نام . ولـكن ربما رأسه قد كبر قليلا ؟ جس بافليك رأسه وخديه وأنفه وأذنيه ... فبدا له انه لم يتبدل فيه شىء .

غريب !

وهذا غريب بشكل خاص لأنه فى الصباح سـيكون فى الرابعة من عمره .هذا شىء أكيد . ولكن : كم عمره الآن ؟ لا يمكن أنه فى الثالثة وما كان هذا يشبه الرابعة .

من الحكمة أن يوقظ بابا ؛ انه وحده يعرف ذلك أكيدا . ولكن أيخرج من تحت اللحـاف الدافىء ويمشى حـافيا على الأرض ... أوه لا ! يحسن أن يتظاهر بالنوم ويرقب التبدلات مغمض العينين .

أغمض بافليك عينيه بهدوء وسرعان ما نام . وعندما استيقظ رأى أن المصباح منطفىء منذ وقت طويل وأن ضوءا قاتما أزرق منذرا بصباح شتوى ينفذ من شقوق المصاريع .

لم يعد هناك أدنى شك أنه فى الرابعة .

كان الجميع ما يزالون يغطون فى سبات عميق ، وما تزال حركة دونيا فى المطبخ لا تصل الى مسمعه . بافليك الصبى الذى فى الرابعة من عمره قفز بخفة من سريره وارتدى ثيابه « وحده » أى لبس صدريته بالمقلوب تلك الصدرية ذات الأزرار المغطاة بالقماش ودس رجليه الحافيتين فى حذائه .

فتح الباب الثقيل الذى يصر بكلتا يديه باحتراس ودلف الى الصالون . كانت هذه جولة طويلة عبر الشقة المقفرة . ففى الظلمة كان ينتصب شىء ضخم ، شبح غامض ، تسقط أرجله القائمة حتى الأرض وهى مكللة بسلاسل من الورق يملأ كل الحجرة برائحة قوية من الصمغ .

كان بافليك يعرف أنها شجرة عيد الميلاد وبينما كانت عيناه تتآلفان مع الظلمة دار باحتراس حول الشجرة الكثيفة المخملية التى تبرق عليها خيوط فضية بريقا ضئيلا .

كانت كل خطوة من الولد تثير فى الشجرة حفيفا فى الورق ورنينا لطيفا من الكرات الزجاجية وألاعيب الورق المقوى وألاعيب المفرقعات الورقية .

بعد ما ألفت عينا بافليك الظلمة أبصر فى أحد الأركان طاولة مليئة بالهدايا وانطلق اليها ناسيا شجرة عيد الميلاد قليلا . كانت الهدايا بديعة أكثر مما توقع . قوس وسهام موضوعة فى كنانة مخملية وكتاب بديع فيه صور ملونة : « باحة

الطيور للجدة تاتيانا » و « لوتو » حقيقى « لأشخاص كبار » وحصان أكبر وأجمل وأكثر جدة من كودلاتكا . وكانت توجد علب سكاكر من عند جورج بورمان وألواح شوكولا لها صور متحركة وقطعة حلوى صغيرة فى علبة مستديرة .

ما كان بافليك يتوقع هذا القــدر من الغنى . طاولة مليئة بالألعاب والسكاكر وكل هذا له !

بيد ان هذا كان قليلا على الصبى . فقد نقل الى الصالون بهدوء جميع لعبه العتيقة ولم يستثن منهــا كودلاتكا المكشوط كله وضمها الى الألعاب الجديدة . لقد جمع الآن مقدارا من الألعاب بقدر ما فى المخزن ، ولكن هــذا ليس كافيــا . جلب بافليك حصالة نقوده الشهيرة ووضعها فى وسط الطاولة على الطبل كرمز للثروة . وبعد ما نصب هذا الصرح للنصر بألعابه وتملى من مفاتنها عاد الصبى الى شجرة عيد الميلاد . وقد شعر باغراء من قطعة حلوى كبيرة مغطاة بالسكر الوردى معلقة فى الأسفل بطرف خيط أصفر . كان جمال هذه الحلوى التى على شكل نجم وفى وسطها ثقب ذا اغراء لا سبيل الى مقاومته .

لم يجد بافليك ضيرا فى أن تنتقص شجرة عيد الميلاد قطعة حلوى ، فانتزعها وأخــذها الى فمه وقضمهــا . يا للخيبة ! لم تكن قطعة الحلوى لذيذة كما كان يظن ، بل انها قززته . ومع ذلك فان المــرء اذا رآهــا يحسب أن الملائكة التى تغنى فى السماء ودفاتر الموسيقى بأيديها لا تأكل شيئا غيرها .

تقزز بافليك وأعاد الحلوى المقضـومة الى مكانها . انها لهفوة بسيطة لا ريب فى ذلك . لعل البائع قد أخطأ اذ وضـع هذه القطعة فى الكيس .

لاحظ بافليك قطعة أخرى أجمل مغطاة بالسكر الأزرق ، ولما كانت معلقة عاليا وجب عليه أن يجلب كرسيـا ، وبدون أن ينتزعها الصبى من الغصن عضها وسرعان ما بصقها ، وهذه أيضا كانت سيئة الطعم .

كان لا يستطيع أن يعتقد أن كل قطع الحلوى مقززة .

قرر بافليك أن يذوق جميع قطع الحلوى المعلقة بالشجرة وشرع بذلك .

مد الصبى لسانه يشهـق ويزفر ويدفـع الكرسى الثقيل حول الشجرة ، فيصعد فوقه ويضعها ويتذوق طعمها السىء ثم ينزل ويجر الكرسى الى غيرها .

وانتهى الأمر فاذا بجميع القطع صارت مقضومة ما عـدا اثنتين معلقتين عاليا قرب السقف كان يسـتحيل الوصـول اليهما . بقى بافليك ساهما ورأسه الى الوراء . كانت قطـع الحلوى تغريه .

وكان الصبى متـأكدا من أن هذه القطع لن تخدعه . كان يهم بأن يضع كرسيا على الطاولة ليصل الى غرض نهمه .

ولكنه سمع وسوسة فستان العيد وألقت الخالة نظرة فى الصالون وهى مشرقة مبتهجة :

— آه ! ها هو ذا بطل العيد قد نهض قبل الجميع ! ماذا تعمل هنا ؟

أجاب بافليك بتواضع وهو يحدج خالته بنظرات بريئة واثقة لولد مهذب .

— أطوف حول شجرة عيد الميلاد .

— يا حبيبى العزيز . حول ! ليس حول ولكن عند يجب أن تقول . أهنئك أهنئك !

ووجد الصبى نفسه بين ذراعى خالته الدافئين والحنونين والمعطرين .

وفى أثناء ذلك كانت دونيا قد اعترتها حمرة الارتباك فركضت من المطبخ تحمل فنجانا أزرق كتب فيه بحروف مذهبة : « كل عام وأنتم بخير » !

هكذا ابتدأ هذا النهار المرح الذى كان سيأخذ خاتمة غريبة غير متوقعة .

وفى المساء جلب المدعوون الى بافليك أولاد وفتيات صغار ، صغار كثيرا حتى ان بافليك كان يحسب أنه من المهانة اللعب معهم أو التكلم .

كان بيتيا يشعر فى أعماق قلبه بنوع من القلق ، عبء ثقيل ساحق ، فظل جالسا على حافة النافذة فى الغرفة المعتمة . كان يتفحص لوح الزجاج الذى زينه الصقيع بزخارف تتلألأ فيها جوزة فانوس ذهبية .

كان توجس مشئوم يساور نفس بيتيا .

كانت الأضواء الدافئة لشجرة عيد الميلاد المتلألئة بالشموع والخيوط المذهبة تجرى من الصالون وكان بيتيا يسمع الأنغام المثيرة من البيانو . كان أبوه ـ قـد فتح رودنجوته وضوضى سـوارا كميـه المنشيـان ـ يعـزف رقصـة البولكا . وكان الأولاد حول الشجرة يقرعون الأرض بأرجلهم الصغيرة بشكل غير متناسق .

قالت الخالة وهى تمر بجانب بيتيا .

— حنانيك ، حنانيك ! لا تكن حسودا . وأنت سـيكون لك عيد .

أجاب الصبى بصوت حزين :

— آه يا خالتى ! انك لا تفهمين شيئا . فهيا اذن !

وأخيرا حان الوقت المنتظر بفارغ الصبر لتوزيع الجوزات والحلوى . أحاط الأولاد شجرة عيد الميلاد واشرأبوا على رؤوس أصابع أقدامهم يمدون أيديهم ليتناولوا قطع الحلوى البراقة مثل الصلبان العسكرية . ماست الشجرة وتحركت أكاليلها .

واذا بصوت حاد يصيح مذعورا :

— آه ! انظروا ان قطعتى مقضومة !

— وقطعتى أيضا !

— هاتان اثنتان مقضومتان .

صاح أحدهم خائب الأمل :

— انها ليست جديدة . لقد أكلت ذات مرة .

تضرجت الخالة بحمرة الخجل كلها وسط قطع الحلوى هذه المقضومة الممدودة اليها من كل طرف .

وأخيرا توقفت عيناها عند بافليك :

— أنت الذى عملت هذا يا لعين !

قال بافليك وهو يحملق عينيه البريئتين بخالته الغاضبة :

— أنا يا خالتى أردت أن أذوقها فقط .

وأردف وهو يتنهد :

— كنت أظن أنها لذيذة المأكل ، فرأيتها للضيوف المدعوين فقط .

صاحت الخالة وهى تلوح بيديها :

— ألا تسكت يا صعلوك ؟

وسارعت الى خزانة الطعام حيث كانت ما تزال توجد قطع من الحلوى لحسن الحظ . ابتهج الأولاد وخنقت الفضيحة فى مهدها .

وبعد قليل أخذ الأهل يقودون المدعوين الذين ذر الرقاد فى أعينهم . وانتهى العيد . وأخذ بافليك يرتب كنوزه .

وفى هذه اللحظة ظهرت دونيا محترسة وإشارت الى بيتيـا بيدها وهمست وهى تنظر ذات اليمين وذات الشمال :

— يا سيدى ! ينتظرك على الدرج مجنونك غافريك .

ركض بيتيا الى المطبخ .

كان غافريك جالسا على حافة نافذة الدرج الخلفى وكتفه

مستند الى الألواح الزجاجية المتجمدة حيث يلمع نور القمر الأزرق . كانت عيناه الشرستان تلمعان تحت القبعة . كان الصبى يتنفس بصعوبة .

ظن بيتيا فى بادىء الأمر أن غافريك جاء يطلب دينه . فاستعد ليقول له عن المصيبة التى حلت بهم وحكاية أزرار جده ثم يحلف له بشرفه بأنه بعد يومين على أبعد تقدير سيسدد كل شىء .

ولكن غافريك أخرج من جاكيته المبطن أربعة أكياس صغيرة يعرفها بيتيا جيدا وقدمها خلسة لصديقه . وقال بصوت خافت حازم :

ــ خبىء هذا فى أحد الأمكنة وأنت لم تعد مدينا لى بشىء . هذا كل ما تبقى من يوسف كارلوفيتش يرحمه الله .

وهنا أخذ يرسم اشارة الصليب على صدره بحماسة .

ــ خبىء هذه واحتفظ بها الى أن نحتاج اليها .

واجاب بيتيا هامسا :

ــ اخبئها .

بقى غافريك صامتا طويلا . ثم مسح أنفه بحركة شديدة بيده ونزل من على النافذة .

ــ هيا يا بيتيا .. الوداع ..

ــ والآخرون هل استطاعوا أن يهربوا ؟

— لقد فروا من على الأسطحة . وهم يفتشون عنهم فى كل مكان .

سأل غافريك نفسه فيما اذا كان لم يفض بالشيء الكثير ولكنه مال بعدئذ بهيئة مسرة الى أذن بيتيا وهمس :

— لقد ألقى القبض على الكثيرين من الناس . ولكنهم هم لم يصلوهم . أنا أقول لك هذا . انهم فى الديماس ينتظرون . جميع أنصارهم هناك . سيعاودون الكرة فى الربيع . وأنت تعرف أن صاحب الدار طرد زوجة تيرنتى مع الولدين جينيتشكا وموتيا . أرايت كيف تجرى الأمور ..

حك غافريك حاجبيه بهيئة مهمومة .

— لا أدرى أين أضعهم . ربما أضطر الى نقلهم جميعا من الطواحين القريبة الى كوخ جدى وان جدى — كما تعرف — ما عادت لديه قوة . وقد يموت عما قريب . تعال زرنا يا بيتيا فى أحد الأيام ولكن ليس على الفور ، وعلى الأخص أحسن اخفاء الأكياس . لا ضير فى هذا . لا تبكى يا ماروسيا . هات يدك !

مد غافريك لبيتيا يده وصافحه ومضى وهو يقرع الدرج بحذائه المكسور . وعاد بيتيا الى غرفته وأخفى الأكياس فى محفظته تحت الكتب .

وفجأة انفتح الباب بعنف ، فقد دخل الأب سريعا وهو يمسك بيده رودنجوته المتالف .

سأل بصوت خافت جدا خارت به عزائم بيتيا :

— ماذا يعنى هذا ؟

تمتم بيتيا بدون أن يجد القوة ليرسم اشارة الصليب على صدره :

— أقسم بالصليب الأقدس ..

وفي الوقت الذى كان صوت الأب الغاضب يدوى ارتفع صراخ بافليك الشديد فى الصالون ..

ركض الصبى وساقاه الصغيرتان مرتخيتان تصطكان من الخوف وضم أباه من ركبتيه . كان فمه المربع فاغرا حتى بدا حلقه وهو يصيح . كانت لهاته الصغيرة ترتعش . وكان يبكى بكاء مريرا . لقد كانت حصالة النقود مفتوحة ترتعش فى يده وهى مليئة بالقطع المعدنية بدلا من قطع نقود ..

كان بافليك يدمدم وهو يشهق :

— ب.. با.. ب.. با.. ! بيتيا س.. سر.. سر... قنى !

هم بيتيا أن يقول :

— أقسم بشرفى ..

ولكن أباه أمسكه بعنف من كتفيه .

وصاح :

— يا رذيل ! يا أزعر ! أعرف كل شىء ! تلعب بالقمار ! يا كذاب !

وأخذ يهز بيتيا بعنف كأنه يريد ان يخرجه من جلده ، كان فكه يرتجف وكذلك نظارته ذات الرباط الأسود والتى انزلقت عن أنفه ذى المسام المتفصد عرقا .

ـ على الفور ، حالا ، اعطنى هذه .. كيف تسميها ..

تمتم بيتيا مبتسما ابتسامة مصطنعة محاولا أن يقلب الأمر الى مزاح :

ــ آذان .

ولدى سماع هذه الكلمة تضاعف غضب الوالد .

ــ آذان ؟ طيب .. أين هى ؟ أعطني اياها الآن . أين هذه اللعبة القذرة ؟ أين هذه الجراثيم ؟ هاتها للنار ! للفرن ! لن أعود الى رؤيتها .

طاف بصره سريعا فى الحجرة ثم انقض على المحفظة .

انفجر بيتيا منتحبا وأخذ يتبعه ويركض وراءه على طـول الدهليز حتى المطبخ حيث أسرع الوالد بخطى واسعة عصبية وسريعة حاملا الأكياس الصغيرة متقززا كأنما هى قطط صغيرة ميتة .

صاح بيتيا وهو يمسك والده من مرفقيه :

ــ يا بابا ! يا بابا !

دفع الوالد بيتيا بشدة وأزاح قدرا محدثا ضوضاء ، ودس الأكياس الصغيرة فى الفـرن المشتعل بدون أن يخاف توسيخ سوارى كميه .

وقف الصبى جامدا من الارتياع . ثم صاح كالمجنون :

ــ اهرب !

كانت طلقات نارية تطقطق فى الفرن وحدث انفجار صغير .

وانبجس لهيب ملون بألوان شتى من فوهة الفرن وتطايرت المعكرونة من القدر والتصقت بالسقف ، وانشق الفرن ، وخرج دخان حاد من الشقوق وملأ المطبخ كله .

وعندما صب الماء على الفرن لاخراج الرماد اكتشفت كومة خراطيش مسدس محروقة .

ولكن بيتيا ما عاد يرى شيئا . فقد فقد وعيه ووضع جسمه المحترق فى السرير . وقيست حرارة جسمه واذا بمقياس الحرارة يشير الى ٣٩ر٧ .

٤٢

ساحة كوليكوفو

ما كادت حمى الحصبة تنتهى حتى جاءت النزلة الرئوية .

ظل بيتيا مريضا طيلة الشتاء فلم يبارح سريره الا فى منتصف عيد الصوم الكبير .

كانت بشائر الربيع قد أخذت تفد وقد ولى الشتاء ولكن الربيع ما يزال بعيدا .

وكان الثلج الواهى الجنوبى الذى لم يتمكن بيتيا من التمتع به هذه السنة ، قد انحسر عن وجه الأرض منذ وقت طويل . كان الطقس غائما جافا كما يجرى عادة فى شهر آذار فى أوديسا .

كان بيتيا يترنح على ساقيه الواهنتين ويمشى فى الغرف التى غدت صغيرة واطئة جدا منذ أن غادر السرير . كان يتطاول على رؤوس أصابع قدميه أمام المرآة فى الدهليز المظلم ويتفحص وجهه الشاحب الناحل بشعور من الشفقة الأليمة ، وعينيه الزائغتين اللتين تحتفظان بتعبير المفاجأة والذعر .

بقى الصبى وحده فى الشقة طيلة نصف النهار الأول . وكان أبوه يدرس دروسا خاصة فى المنازل وخالته تتجول مع بافليك .

كان صدى السكون فى الغرفة الخالية يصيب رأسه بدوار خفيف . وكانت ضوضاء رقاص الساعة تريعه بدوامها المصر القاسى . اقترب بيتيا من النوافذ . كانت ما تزال مسدودة كما فى الشتاء وبين الاطارين عصابة من القطن المصفر فوقها مسامير صغيرة .

كان الصبى يرى عراء الطريق الأغبر الجاف والأرض الصلبة لساحة كوليكوفو والسماء الغائمة وفيها بقع زرقاء انحسرت عنها الغيوم لا تكاد تبين . وكانت تظهر من نافذة المطبخ أغصان الليلك العارية فى المرج . وكان بيتيا يعلم أنه اذا انتزع بأسنانه قشرتها المرة الرقيقة خرج خشب أخضر .

وكان قرع الناقوس فى عيد الصوم الكبير يتعالى فى الفضاء من حين الى آخر كأنه نحيب حزين .

ومع ذلك فقد كانت قوى الربيع الناشطة تكمن فى هذا

العالم الواهن تلك القوى التى تنتظر أوانها . وكان المرء يتحسس بها فى كل شىء ولا سيما فى بصل السوسن .

وكان ربيع الغرفة ما يزال مختفيا فى الخزانة المنزوية المظلمة . فهنا كانت الخالة قد وضعت على طول الجدران مزهريات صغيرة ضيقة بين كل سقط المتاع الذى تفوح منه رائحة الفئران . وكان بيتيا يعرف أن نمو البصلات الهولاندية يقتضى الظلام . ان سر النمو يتم فى ظلمات الخزانة المنزوية .

كان رأس صغير شاحب ولكنه قوى يخترق غلاف البصلة الذابل الحريرى . كان الصبى يعرف أنه قبل عيد الفصح بقليل تظهر أزهار السوسن تتفتح على ساق صغيرة سميكة بمختلف الألوان .

بيد أن قلب الصبى بيتيا قد أن وحن فى هذا العالم الفارغ الغائم من الاعتدال الربيعى .

كان النهار يطول وما عاد يعرف كيف يملأ الساعات التى تتطاول تطاولا لا نهاية له فى فترة الظهر والغروب . أوه ! ما أطول ساعات الاعتدال الربيعى وما أشد مللها ! وانها لأطول من الشوارع المقفرة التى تمتد الى الطواحين القريبة .

وأخيرا سمح لبيتيا أن يتجول حول البيت . كان يذهب ويجىء على الرصيف الجاف يرف بعينيه تحت أشعة الشمس التى تغرب وراء المحطة .

كانت هذه المحطة قبل سنة تبدو له نهاية المدينة . وكانت

الجغرافيا تبدأ من ورائها . ولكن بيتيا كان يعرف آنذاك أنه بعد المحطة تستمر المدينة وتمتد الشوارع الطويلة المغبرة فى الضواحى كان يراها بوضوح تتجه الى الغرب .

وكان قرص الشمس الأحمر المتقد الذى ماتت فيه الاشعة معلقا فى صدر المشهد الذى يبدو من الفرجة الفسيحة التى تفصل بين المنازل الكئيبة المبنية من القرميد .

وقبل عيد الفصح بخمسة عشر يوما حملت عربات الشحن عوارض الى ساحة كوليكوفو وجاء نجارون وحفارون ورؤساء ورشات وامتدت المقاييس المطوية فى كل اتجاه . كان المقاولون مع أمتارهم الصفراء المطوية التى يخرجونها من جيوبهم يقيسون الأرض ويحددون الأقسام سوف تبنى سقائف لسوق عيد الفصح .

ما كانت لدى بيتيا متعة أعظم من التطواف فى ساحة كوليكوفو بين الصناديق المليئة بالمسامير الكبيرة والفؤوس والمناشير بين العوارض والنشارة ، وهو يسأل نفسه ماذا سيبنون ؟ كان يرهق خياله كل خشبة جديدة توضع على الأرض وكل حفرة جديدة تشق وكل أرض تقاس بالشريط وتحدد بأوتاد صغيرة .

كون خياله سقائف جميلة جدا تحتوى أسرارا بديعة ، بينما كانت خبرته تحدثه بأن كل شىء سيتم كالسنة الماضية تماما . فلن يكون أسوأ ولا أحسن . ولكن خياله ما كان يسعه أن يقبل

ذلك انه يطلب شيئا جديدا لم ير قط . بلغ بيتيا العمال والمقاولين ودار حولهم وحاول بكل جهده أن يستخبر منهم :

ـ قل لى يا عم ألا تعرف ماذا سيكون هنا ؟

ـ هذا معروف . سقيفة !

ـ وأى سقيفة ؟

ـ هذا معروف . سقيفة خشبية .

ضحك الصبى ضحكة مصطنعة محاولا أن يستدرج الرجل .

ـ أعرف أنها ستكون من الخشب . يا للنكتة ! ولكن ماذا سيجرى فيها ؟ سيرك ؟

ـ سيرك .

ـ ولكن كيف هذا السيرك ؟ السيرك مستدير وهذه السقيفة ليست كذلك .

ـ اذن لن يكون سيركا .

ـ ربما معرض العجائب ؟

ـ نعم هذا هو .

ـ صغير جدا ؟

ـ اذن شىء آخر هذا .

ـ لا ، بشكل جدى ، ماذا سيكون هذا ؟

ـ مراحيض !

ارتبك بيتيا لهذه الكلمة غير اللائقة وطفق يضحك ضحكا

أشد وبدا مستعدا لكل اذلال فى سبيل أن يعلم شيئا على الأقل .

— ها ! ها ! ها ! لا ! بشكل جدى قل لى ماذا سوف يكون هنا ؟

— اذهب يا صبى اذهب ! ليس شغلك هنا . ستتأخر عن المدرسة .

— لا ، لا أذهب الآن الى المدرسة . فقد أصبت بالحصبة ثم بالنزلة الرئوية .

— اذن هيا الى سريرك بدلا من ان تدس نفسك بين الأرجل . لا تزعجنا هيا !

ذهب بيتيا مصطنعا الابتسام ورأسه قد أرهقته المشكلة المستعصية .

وفى الواقع كان يعرف أنه ما دام الستار لم يضرب على السقائف وما دامت الاعلانات لم تلصق فلن يكون فى مستطاعة ان يعلم شيئا . وكذلك تستحيل معرفة لون أزهار السوسن التى ستتفتح فى أعالى السوق الشاحبة فى اليوم الأول من عيد الفصح .

نقلت الى السقائف فى سبت الآلام صناديق خضراء سرية عليها كتابة « سريع العطب » وما من ولد فى أوديسا كان يعرف ماذا وجد فى هذه الصناديق .

كان يمكن المرء أن يفترض ، قد تكون : دمى شمع ؟ طاولات

سحرية ؟ ثعابين ثقيلة ذات أجسام مسطحة وعيون خامدة ولسان مشعب ؟

كان من المعروف أن فى أحد الصناديق عروس البحر ذات قامة كقامة المرأة وبدلا من ان يكون لها ساقان ، قد كان لها ذنب كالسمكة . ولكن كيف تعيش بدون ماء ؟ قد يكون يوجد حوض فى الصندوق ؟ أو ربما تكون عروس البحر ملفوفة بلفائف بليلة ؟ افتراضات !!

كان بيتيا على جمر الانتظار لافتتاح السوق . كان يخيل اليه أنه ما من شيء جاهز حتى ذلك الحين وان السوق لن يفتح هذه السنة !

مخاوف فارغة ! كان كل شيء جاهزا من أجل اليوم الأول للعيد : فالاعلانات فى أماكنها والصوارى المخصصة للأعلام مدهونة باللون الأبيض والساحة ترش بالماء الموضوع فى براميل خضراء طويلة تدور طول النهار بين السقائف . كانت تمر وتسود الأرض الجافة بمائها المتلألىء المتدفق من مشط الرش .

والخلاصة ، وحل عيد الفصح وانكشف اليوم المنتظر بالتقويم .

كانت النواقيس تقرع قرعا مملا ، وترف شمس جديدة بين الغيوم المشعثة . كانت الخالة لابسة فستانا محلى بالدانتيلا البيضاء ، وتقطع فخذ لحم الخنزير وتثنى الجلد السميك الدائر كأنه غلاف مسدس .

كانت خراف من السكر تنتصب فوق كعكة عيد الفصح . وكان يسوع وردى يطير مثل راقصة على سلك وهو يلوح براية من الورق . وكانت بيضات من جميع الألوان لماعة مدلوكة بالزبدة مرصوفة حول فنجان من البورسلين وتعكس النوافذ المغسولة جيدا .

كان السوسن الموضوع فى آنية مغلفة بورق وردى يفوح بعبق شديد حتى انه كان يبدو يتبخر بغبشة بنفسجية فى أشعة الشمس فوق الطاولة .

ولكن اليوم الأول من عيد الفصح كان طويلا ومملا لبيتيا ، لأن جميع التمثيليات وجميع الاحتفالات كانت ممنوعة فى اليوم الأول لعيد الفصح . ان هذا اليوم يخصصه الشرطة لله الرحيم ، ولكن الناس فى اليوم التالى منذ الظهر ينكبون على الأفراح باجازة من السلطات .

وقد سمع صفير رئيس قسم الشرطة المناوب عند الظهر تماما ونشر العلم بألوانه الثلاثة فى أعلى صار كبير أبيض مغروز وسط ساحة كوليكوفو .

وفجأة حدث صخب مدو فقد أخذت طبول الجوقات العسكرية تقرع تتبعها الارغانات وموسيقى دوامة التسلية ، وتعالت صيحات المشعوذين الحلقية اشبه بصيحات القرد يدعون الجمهور من فوق شرفات السقائف . وكان المرء يرى زينات زائفة تدور والعربات والخيول الخشبية مندفعة فى جريها .

كانت زوارق الأراجيح تشق الفضاء الازرق الذى تجوبه قرعات من الغيم وفى كل مكان تسـمع ضـوضاء النـواقيس النحاسية والصناجات التى تنقر دونما هوادة .

مر بائع متجول يحمل على رأسه ابريقا زجاجيا مليئا بماء مثلج ملون فيه قطع ليمون وقطعة جليد والشمس الفضية المغبرة .

وكان جندى مجدر الوجـه عائد من بور - آرثور ، على رأسه قبعة فرو سوداء ، قد خلع جزمته بخفة وأحاط به جمهور من المتفرجين ، يتسلق عمودا ليتناول موس حلاقة وفرشاة معلقين فى أعلاه .

بقيت مدينة الملاهى فى ساحة كوليكوفو طيلة أسبوع منذ الظهر الى غروب الشمس لا تفتأ تملأ مسكن أسرة باتشى بصخب ناس الضواحى الذين جاؤوا للتسلية .

كان بيتيا يمضى نهاره فى مدينة المـلاهى . وكان يأمل أن ينتهى به الأمر فيرى غافريك . وكثيرا ما صادف فى الجمهور بنطلونا بنفسجيا وقبعة بحرية لها أزرار عليها مراس - اذ هكذا كان غافريك يلبس فى عيد فصح السنة الفائتـة - فكان بيتيـا ينطلق اليه ويدفع الناس ولكنه سرعان ما كان يمنى بالخيبة فى كل مرة .

كان فى هذا العيد الشعبى شىء يذكر بالطواحين القريبة . كان كثير من الرجال يحملون عصيا حديدية مثل تيرنتى وكثير

من الفتيات كن يتحلين بأقراط زرقاء مثل قرطي موتيا .

كان انتظار بيتيا خائبا . وحل اليوم الأخير لمدينة الملاهى . كانت الموسيقى تعزف للمرة الأخيرة قطعة : « الحنين الى الوطن » وأنزل العلم وكان يتعالى صفير صفارات الشرطة من جميع الجهات . وأقفر المكان وانتهى كل شيء .. حتى عيد فصح السنة القادمة .

كانت الشمس الغاربة تتقد طويلا وبشكل حزين وراء السقائف المزدانة ولكنها صارت ساكنة فجأة وراء دواليب العربات الحديدية ووراء الصوارى المجردة من أعلامها .

وفى فترات قليلة ، وسط هذا السكون الكئيب للعيد الغارب كان يدوى زئير أسد أو صياح ضبع .

وفى اليوم التالى وصلت عربات الشحن ، وبعد يومين أصبحت مدينة الملاهى أثرا بعد عين . وعادت ساحة كوليكوفو واتخذت مظهرها كساحة عامة سوداء متجهمة يدوى فيها طوال النهار أصوات النقباء الذين يدربون الجنود :

— الى اليمين در ! واحد ، اثنان !

— الى اليسار در ! واحد ، اثنان !

— الى الوراء در !

— واحد ، اثنان !

كانت الأيام تطول ويصعب ملؤها . وفى أحد الأيام قصد بيتيا البحر ليزور غافريك .

٤٣

الشراع

كان الجد يحتضر .

وكان غافريك وموتيا وأم موتيا وبيتيا الذى كان يقضى النهار كله تقريبا على شاطىء البحر ، جميعهم كانوا يعرفون أن الجد سيموت عما قريب .

وكان الجد نفسه يعرف ذلك .

كان يبقى من الصباح حتى المســـاء مضـــطجعا فى السرير الحديدى الغائر الذى أخرج من الكوخ ليوضع فى الهواء الطلق تحت أشعة شمس نيسان الدافئة .

وحينما جاء بيتيا ليسلم عليه لأول مرة اضطرب لدى رؤيته صفاء هذا الوجه وشفافيته وقد بدا على الوسادة الحمراء وقد غشيه ضوء أزرق رهيف .

كان هذا الوجه الصافى الهادىء مطوقا بلحية طويلة بعض الطول بيضاء ويؤثر فى نفس بيتيا بجماله وهيبته .

الا أن الشيء الأكثر ادهاشا وافزاعا هو أن هذا الوجه لم يعد له عمر . لقد كان يبدو كأنما يعيش على هامش الزمن .

قال بيتيا :

— مرحبا يا جدى !

لفت العجوز عينيه ذاتى الجفون الشاحبة المزرقة وتأمل الطالب الصغير طويلا . كان يخيل له انه لا يعرفه .

هذا أنا ، بيتيا من شارع الحبال فى زاوية ساحة كوليكوفو .

كان الجد يحدج الأفق .

ذكر غافريك قائلا :

— فى العام الماضى عملت رصاصا لشصه يا جدى . ألم تعرفه ؟

مر ظل ذكرى بعيدة كسحابة على وجه العجوز ، فابتسم ابتسامة صاحية واعية حتى بدت لثتاه وقال بصوت خافت دونما جهد كبير :

— رصاصا . نعم عملت هذا . رصاصا .

ونظر الى بيتيا بحنان وهو يحرك شفتيه .

نعم . لقد كبرت . اذهب يا بنى اذهب ، اذهب والعب على الشاطىء بالحصا . اذهب والعب ولكن حذار أن تسقط فى الماء .

لا ريب أن بيتيا كان يبدو له ولدا صغيرا كل الصغر مثل ابن حفيده جينيتشكا الذى يزحف بين أزهار الهندباء الصفراء . وكان العجوز من وقت الى آخر يرفع رأسه ليتملى من بيته .

بعد ما استقرت عائلة تيرتتى هنا كل شىء تبدل مظهره فى الكوخ . كان فى وسع المرء أن يحسب أن عائلة تيرتتى قد جلبت معها مسكنها فى الطواحين القريبة .

فقبل عيد الفصح مهدت زوجة تيرنتى الأرض فى داخل الكوخ وطلت الجدران .

تجدد الكوخ وأخذت آلواحه الزجاجية المغسولة ذات الاطار الأزرق تلمع تحت أشعة الشمس .

وكان الترنجان حوله مخضرا ويهم بالتفتح ، وهناك وضعت موتيا دماها التى كانت تمثل فى خيال الولد نساء غنية قادمة للاصطياف .

وكان غسيل منشور على الحبال لينشف . وكانت موتيا مقصوصة الشعر مثل الأولاد تسقى البستان وهى تضم بيديها الى صدرها ابريق السقاية الكبير . وكان الكلب رودكو يعدو بابتسامته المتجهمة مربوطا بسلك ممتد بين عمودين . وكان موقد حجرى عليه وعاء حديدى لا قعر له استعمل كمدخنة يتصاعد الدخان منه . وكانت تفوح رائحة الحساء اللذيذة .

كانت أم موتيا تلبس تنورة متغضنة ، وتميل على وعاء للغسيل . وكانت فقاعات الصابون تتطاير حولها .

كان يخيل للجد فى بعض الأحيان أن الزمن يمشى القهقرى، وأنه قد عاد الى سن الأربعين وأن زوجته المرحومة جاءت لتطلى المنزل وأن حفيده تيرنتى يحبو على أربعة وسط الهندباء وأن على السطح صاريا مغطى بشراع جديد اشتراه من وقت قريب .

وكان يخيل للجد أيضا أنه فى اللحظة نفسها ذاهب ليضع الصارى على كتفه ويحمل تحت ذراعيه المجدافين والدفة الخشبية المدهونة باللون الأحمر ليقلع فى البحر .

ولكن الذكرى كانت تستعيد صوابها . فكان العجوز يفكر فجأة فى شئون البيت . وينهض بمشقة متكئا على مرفقيه ويستجمع قواه ويدعو غافريك .

— ماذا تريد يا جدى ؟

حرك العجوز شفتيه طويلا وهو يلم قواه ثم قال :

— ألم يجرف البحر القارب ؟

— لا ، لا ، ياجدى اضطجع .

— يجب أن نزفته .

سأزفته يا جدى لا تخف شيئا . ابق مضطجعا .

عاد الجد واضطجع طائعا ولكنه بعد لحظة نادى موتيا .

— ماذا تعملين هنا يا صغيرة ؟

— أسقى البطاطا .

— نعم ما صنعت . اسقيها . يجب ألا تقترى بالماء والأعشاب الضارة هل اقتلعتها ؟

— نعم يا جدى .

— أرأيت لولا ذلك لقضت على البستان . هيا يا بنيتى واستريحى ، هيا والعبى بدماك .

وعاد الجد وتهاوى على ظهره بتثاقل .

ولكن رودكو أخذ يعوى ولفت العجوز من طرفه عينيه الغاضبتين ذاتى الحاجبين الكثيفين . كان يبدو له أنه يصيح صياحا شديدا كأنه رب الدار :

« هيا يا رودكو اهدأ ! يا مجنون ! مكانك ! كفى ! »

ولكن كان المرء يكاد يسمع :

— كفى ، كفى ، كفى ..

كان الجد يقضي أغلب وقته في النظر بعيدا . وهناك بين تلين على الشاطىء كان يبدو مثلث أزرق من البحر مع مجموعة من أشرعة الصيادين . كان الجد يحادث نفسه بمهابة وهو ينظر اليها :

— هذا ، هذا صحيح . الريح ، انها تحب الشراع . مع الشراع هذا شيء آخر ليس كما بدونه . مع الشراع يستطيع المرء أن يذهب أينما يشاء . فاذا أراد ذهب من شاطىء دوفينوفكا أو لوستدورف . وبالشراع يسكن المرء أن يطوف حتى أوتشاكوف حتى خيرسون أو حتى أوباتوريا . ولكن بدون شراع بالمجاديف وحدها هذا ليس بالأمر الجد ، انه لشيء مضحك جدا . فمهما جدف المرء لا يصل بعد أربع ساعات الى العين الكبيرة ثم أربع ساعات أخرى للعودة ! لا ، عندما يكون المرء صيادا يلزمه شراع . وبدون شراع لا يكلف نفسه عناء الخروج الى البحر . فلن يلقى فيه سوى الخزى فى خاتمة المطاف . قارب بدون شراع هو كما يقال رجل بدون روح . هذا هو الأمر !

كان الجد طيلة الوقت يفكر بالشراع !

وفى احدى الليالي جاء تيرنتى ليرى عائلته لحظة . وجلب

معه حلوى للأولاد وثلاثة روبلات لزوجته لأجل السوق ، وقال انه بعد عدة أيام سيجلب شراعا جديدا .

ومنذ ذلك اليوم ما عاد الضجر يسيطر على الجد .

كان حلم الشراع الجديد يملأ خاطره ، كان يرى هذا الشراع الجديد بوضوح كأنما هو منتصب أمامه ممدودا من قماش متين ينفخه النسيم العليل .

أنهكت الخواطر الثابتة عن الشراع الجـد ففقـد مفاهيم الأشياء . ما عاد يدرك اين هو موجـود وما يحـدث له وظلت الأحاسيس وحدها .

كان الوعي الذي يعزله عن كل ما هو غيره ينمحي رويدا . كان يختلط مع العالم الذي يحيط به وأصبح بدوره عطرا وهدير بحر وزهرا ..

كانت فراشة شقراء ذات أجنحة معرقة بالأصـفر ، تطير متلوية وكان الجد هذه الفراشة يطير .

وكانت موجة تتبدد على حصى الشاطىء وكان الجد يتحد بهديرها الرطيب .

وكان النسيم يحمل رذاذ الماء الذي يخلف على الشفاه طعما مالحا ، وأصبح الجد ملحا وهواء .

كان هناك طفل يجلس على الأرض وسط الهندباء وكان الجد هو هذا الطفل وهذه الأزهار المشرقة صفراء مثل الصيصان وكان الطفل يحاول أن يبلعها .

كان الشراع والشمس والبحر .. كان كل شيء .

ولكنه ما عاش عيشة كافية ليرى الشراع بأم عينيه .

وذات صباح لم يعد يجد بينيا العجوز بجانب الكوخ . كانت قد وضعت مكان سريره مصطبة وعجوز طويل القامة يحمل فى عنقه الأسود صليبا صغيرا من كييف ، وهو ينشر لوحا خشبيا .

كانت تخرج نشارة طويلة متلوية من مبشره .

وكانت تقف موتيا بجانبه مرتدية فستانا جديدا ولكنه قبيح . وكانت تنتعل حذاء ضيقا .

قالت وهى تصل الى الصبى :

— لقد مات جدنا اليوم . أتريد أن تراه ؟

أمسكت الفتاة الصغيرة بيدها الباردة يد بينيا واقتادته الى الكوخ محاولة ألا تصدر صريرا من حذائها .

كان الجد ممددا على سريره الحقيقى وعيناه المغمضتان ناتئتان وعقد تحت ذقنه منديل . وكانت شمعة صغيرة صفراء تقف بين يديه الكبيرتين الموضوعتين فوق صدره على أيقونة القديس نيقولاى . وكان ينفذ عبر الزجاج النظيف شعاع من الشمس ساطعا حتى ان لهيب الشمعة ما كان ليظهر . وفوق الثغرة التى حفرها اللهيب ما كانت لتظهر الا عقفة الفتيلة المحاطة بالهواء المرتعش الذى يظهر بأن الشمعة مشتعلة .

وفى اليوم التالى شيع الجد الى مقره الأخير .

وفى عشية الدفن جاء تيرتتى فى الليل . ما كان يعرف أن الجد قد مات . كان يحمل على كتفه لفيفة ضخمة ثقيلة : انه الشراع الموعود !

ألقاه تيرتتى فى أحد الأركان وظل بعض الوقت ساكنا أمام جده الممدد فى نعش من خشب الصنوبر الأبيض ، فمال على العجوز ولثمه دون أن يرسم اشارة الصليب من شفتيه الجامدتين الباردتين وخرج صامتا .

رافق غافريك أخاه على طول الشاطىء حتى العين الصغيرة . وبعد ما أمره تيرتتى عدة أوامر بشأن الدفن اذ كان لا يستطيع أن يشهده ، صافحه وغاب .

.. كان أربعة صيادين لهم شوارب شقراء يحملون الجد على أكتافهم فى نعش خفيف مكشوف .

كان غافريك يمشى فى المقدمة نظيفا مستحما ممشطا الى جانب القبار الذى يلبس بدلة مثقوبة ويحمل على كتفه صليبا غير محكم النجارة . وكان يحمل فى منشفة قدرا فخاريا كبيرا فيه الكوليفو .

كانت أم موتيا تحمل ابنها جينيتشكا على ذراعيها ، وتسير مع موتيا وبيتيا وبعض الجيران والصيادين بثياب العيد ، كانوا كلهم ثمانية أشخاص يتبعون النعش . ولكن الموكب كان كلما اقترب من المقبرة تزايد عدده .

سرى نبأ جنازة الصياد العجوز الذى عذب فى مخفر الشرطة

على طول الشاطىء من لانجرون حتى لوستدورف

كان سكان العين الصغيرة والوسطى وسكان فالتوخ واركاديا والشاطىء الذهبى يفدون من الأزقة وأسر الصيادين بكاملها ويخرجون الى الشاطىء لينضموا جميعا الى الموكب .

كان جمهور يتألف من ثلاثمئة شخص على أقل تقدير يسيرون صامتين وراء النعش المتواضع للجد .

كان هذا اليوم الأخير فى نيسان ، والمطر ينذر بالهطول والعصافير تستحم باسطة أجنحتها فى غبار الشوارع . كانت سماء دكناء تخيم على البساتين والخضرة الجديدة المتدلية دونما قوة بانتظار المطر كانت تظهر بارزة فى هذا المشهد .

كانت الديكة فى الباحات تطلق صيحات ناعسة وما من شعاع الشمس يخترق سجوف الغيوم المطبقة .

وعلى مقربة من المقبرة لحق بالصيادين العمال وعمال القطارات فى تشومكا وساخلينتشيك ومحطة أوديسا للشحن ومولدافنكا والطواحين القريبة والبعيدة .

تأمل الشرطى حارس المقبرة ، بدهشة مليئة بالذعر الجمهور الغفير الذى دخل من الباب .

كانت المقبرة كأنها مدينة ، لها شارعها الرئيسى وساحتها للكاتدرائية وحيها المركزى وشوارعها وضواحيها . وان الموت نفسه كان يبدو لا حول له ولا قوة أمام سلطان الثروة والجاه ، حتى أن الانسان بعد موته كذلك يستمر فى كونه غنيا أو فقيرا .

طاف الجمهور صامتا الشارع الرئيسى لمدينة الموتى الظليلة ومر بقبور الرخام أو الغرانيت كأنها فيلات فاخرة تظهر وراء الدرابزين فيها وبين خضرة أشجار السرو والآس تماثيل ملائكة متعالية تخفض أجنحتها .

هنا كل قطعة من الأرض ذات الثمن الباهظ تملكها سلالات الأغنياء .

اجتاز الجمهور المركز وانعطف، فى شارع أقل فخامة ليس فيه أضرحة ولا دور خاصة . وكان وراء السياجات الحديدية بلاط رخامى مطوق بالميلك والأكاسيا الصفراء ، وقد عضت الأمطار تذهيب الكتابة المحفورة وكان حازون المقبرة يغطى صفائح المرمر التى أصبح لونها رماديا من مرور الزمن .

وبعدئذ ابتدأت السياجات الخشبية ومرتفعات صغيرة مخضوضرة ثم جحافل قبور الجنود العارية الكئيبة عليها صلبان متشابهة مثل البنادق المنتصبة لدى الأمر : « قدم سلاحك ! » .

ولكن هذه أيضا غنية كثيرا لا يطولها الجد . لقد دفن فى مرج ممتلىء بقشور بيضات عيد الفصح البنفسجية ، قرب جدار تظهر من ورائه عسرات رجال الشرطة الخيالة . تحلق الجمهور حول القبر الذى كان ينزل اليه النعش البائس محمولا بقطع من القماش .

كان بيتيا يرى فى كل مكان وجوها مطرقة وأيديا سودا « تجعلك » القبعات .

السماء غائمة ثقيلة والصمت يسود موحشا . وشعر بيتيا أنه يكفي أن ينبعث صوت حاد حتى يحدث اضطراب هائل في الطبيعة : عاصفة أو اعصار أو زلزلة أرضية ..

ولكن كل شيء فيما حولهم كان يرين عليه سكون ثقيل .

كانت موتيا تشعر مثل بيتيا وقد هدها السكون فوضعت يدها على حزام الصبي وأبقت اليد الأخرى متشبثة بتنورة أمها تنظر الى كومة من التراب الأصفر ترتفع فوق القبر .

وأخيرا حدثت حركة خفيفة بين الجمهور لا تكاد تبين . أخذ الناس واحدا واحدا يقتربون من القبر الجديد بهدوء ويرسمون على صدورهم اشارات الصليب ويعزون أم موتيا أولا ثم غافريك ويصافحونهما .

أما غافريك فكان قد عهد الى بيتيا بالقصعة . فكان يغترف الكوليفو بملعقة خشبية جديدة بحركات دقيقة كأنه ربة بيت ماهرة ، وهو متغضن الجبين ويعطى قليلا لكل واحد كي يطعم الجميع منه . كان يسكب حصة كل واحد في الأيدى أو القبعات التى تمد اليه . وكان الناس يبلعون الكوليفو بعناية ورعة محاولة ألا يتركوا حبة تسقط وينصرف الواحد تلو الآخر ليفسح المجال لغيره .

كان هذا كل ما تستطيع عائلة الجد أن تقدمه الى أصدقائها وأصحابها الذين يشاطرونها الحداد على الفقيد .

وكان غافريك يقول مطرق الرأس لبعض الصيادين الذين أخذوا نصيبهم .

ــ يسلم عليك تيرنتي ويرجوك ألا تنساه ، غدا ظهرا اجتماع أول أيار فى الزوارق قبالة أركاديا .

ــ سأحضر !

كان لم يبق فى القصعة الفارغــة سوى أربع قطع مربعــة بنفسجية من معجون الفواكه .

ألقى غافريك السلام بهيئة رصـــينة على الذين لم يحظوا بنصيب قائلا :

« معذرة ! » ووزع القطع الباقية على جينيتشـــكا وموتيا وبيتيا دون أن ينسى أن يحتفظ لنفسه بقطعة .

وعندما أعطى بيتيا القطعة المربعة الصغيرة قال :

ــ ومع ذلك فهذا ليس سيئـــا . هذا من معجون الخـــوخ للأخوة كراخمالنيكوف . كل على روح الفقيد . هل تأتى معنـــا غدا لاجتماع أول أيار ؟

أجاب بيتيا وهو يركع أمام القبر كسائر الآخرين .

ــ سآتى !

وانفض الجمهور دونما استعجال . وفرغت المقبرة . وفى مكان بعيد وراء الجدار كان صوت وحيد يترنم بأغنية سرعان ما أصبحت جماعية :

وداعا ــ أيها الرفيق ــ لقد قطعت
طريقا طويلا ملؤه الشرف والمجد !

وسرعان ما ارتفع صفير صفارة الشرطة . وتوقفت الأغنية

وسمع بيتيا ضجيج جمهور غفير يتراكض وراء الجدار . وهدأ كل شيء .

بللت القبر بعض نقاط من المطر . ولكن هذا ما كان سوى شيء ظاهري ، فالمطر كف عن الهطول قبل أن ينهمر بشكل جدي . وغدا الهواء خانقا معتما أكثر من ذي قبل .

قامت موتيا وأمها وغافريك وبيتيا فرسموا اشارات الصليب على صدورهم لآخر مرة وعادوا الى البيت . افترق بيتيا عن أصدقائه على مقربة من ساحة كوليكوفو .

قال غافريك بهيئة معبرة :

— لن تنسى !

— أتظن ذلك !

هز بيتيا رأسه برصانة ودنا من موتيا دون أن يتظاهر بذلك . واحمر وجهه من التذلل عندما خطر له أن يطلب معلومات من فتاة وأسر في أذنها بسرعة :

— قولي يا موتيا ! ما هو عيد أول أيار ؟

اتخذت موتيا هيئة صارمة وبددت شيئا من حزنها وقالت :

— انه عيد فصح العمال !

٤٤

عيد أول ايار

هطل المطر الدافيء طيلة الليل ، كان هذا المظهر يبتديء

بنيسان وينتهى فى أيار . وفى الساعة الثامنة صباحا حملت الرياح نقاط المطر الأخيرة .

كان البحر يتصاعد منه البخار ويغشاه الضباب ويختلط بالأفــق الذى ما يزال مظلمــا والأفق ما كان يتراءى . وكانت حمامات البحر تبــدو كأنها تعــوم فى الجو المغبش . وكانت الأضواء الملتوية اللامعة من الأوتاد المغروزة فى الماء تتأرجح فوق الأمواج القاتمة .

كان غافريك وبيتيا يجدفان وهما يغمسان بمتعة المجدافين فى الماء الدافىء .

تحمسا فى البدء ، فكان كل واحــد منهما يحاول أن يغلب الآخر . الا أنه كان يصعب على بيتيا أن يتنافس مع غافريك . ان الفتى الصياد ينتصر دونما جهد على الطالب فــكان القــارب يدور .

كان تيرنتى يصيح بهما من حين الى آخر وهو فى مقدمة الزورق يحرك عصاه الحديدى :

— كفى أيها الولدان عبثا ! ستقلبان الزورق .

كف الولدان عن تنافسهما ولــكنه سرعان ما خطرت لهما لعبة أخرى : من يحدث أقل من غيره رذاذا من رش الماء .

كان رشاش الماء حتى ذلك الحين قليلا . ولكن ما ان أصبح موضع تنافس أخذت المجاديف تقذف الماء بشدة كأنما بقصــد وصار الصديقان يتدافعان بالمناكب والمرافق .

ضاح بيتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ هيا يا أزعر !

فدمدم غافريك وشفتاه مزمومتان :

ـ وأنت كذلك !

وفجأة أحدث بالسهو رشاش ماء انبعث من تحت المجدافه وارتفع عاليا فما استطاع تيرنتى أن ينجو منه الا فى قاع الزورق .

طفق الصبيان يضحكان بشدة حتى سال لعاب بيتيا محدثا فقاعات .

ـ لقد رششتنا يا شيطان !؟

ـ هذا ذنبك . يجب ألا تتكلم عندما نعمل .

كاد تيرنتى يستبد به الغضب ولكنه نفسه شعر أن مرح الصغار القوى يأخذ بزمام نفسه فزم شفتيه وأمسك جانبى الزورق بيديه وأخذ يؤرجحه بقوة .

وقع الصبيان على بعضهما بعضا وارتطما برأسيهما وصاحا بملء حنجرتيهما وأخذا يضربان الماء بالمجدافين بعنف جاعلين زبد الماء يتطاير على تيرنتى .

لم يلبث تيرنتى أن رد عليهما : فقد مال بمهارة الى الماء وأدار وجهه المتغضن وأخذ يرش الماء بكفين على الولدين وبعد قليل أصبح الثلاثة مبللين بالماء من مفرق الرأس حتى أخمص القدمين . كانوا يضحكون ويقهقهون وينفخون مثل الفوك ثم تهاووا على المقاعد من العياء .

كان النسيم يسوق الضباب . وبزت الشمس من الماء وملأت عيونهم كأنما وضعت مرآة تحت الزورق فجأة .

كان الشاطىء يبدو بغموض كأنما هو صورة منقوشة .

وقد سطع نهار أيار بكل الوانه الزرقاء والخضراء والبنفسجية .

قال تيرنتى بصرامة وهو يمسح بكمه جبينه المبلل الذى فيه ندبة جرح بيضاء .

ــ لقد لهونا وهذا يكفى ! هيا الى الأمام .

أتخذ الصبيان هيئة جدية وانشآ يجدفان بعزم .

كان بيتيا ينفخ من أنفه ويمد لسانه . وقد شعر ــ والحق يقال ــ بقليل من التعب ولكنه لن يعترف بذلك لغافريك مهما كلفه الأمر .

ثم ان سؤالا كان يشغل باله : أكان هذا عيد أول ايار أم لا ؟ انه لا يريد أن يطرح أسئلة كيلا يبدو مغفلا مثل المرة السابقة فى الطواحين القريبة .

لقد قالت موتيا ان اجتماع أول أيار انما هو عيد فصح العمال ، ولكنهم يسايرون الشاطىء منذ نصف ساعة على أقل تقدير ولم تظهر كعكة عيد الفصح ولا الجامبون ولا البيضات الملونة .

ربما هذا أمر عادى لأنه ليس المقصود عيد الفصح بالذات . وانما عيد فصح العمال .

وأخيرا ما عاد يملك زمام نفسه فقال لتيرنتي :

ــ اسمع ! هذا هو اجتماع أول أيار أو لم يجر بعد ؟

ــ لم يجر بعد .

ــ ومتى سيجرى ؟ قريبا ؟

وما ان قال هذا حتى ابتسم بيتيــا ابتسامة مرحة متملقــة بشكل مصطنع .

ان تجربته الطويلة من التحدث مع الكبار علمته أن يرد عليه : « سيبدأ هذا عندما يبدأ . » ــ « ولــكن متى يبدأ هذا ؟ » ــ « سيجرى هذا عندما يجرى » .

وقد أدهش بيتيا أن تيرنتى يرد عليه كما لو كان يتكلم مع شخص كبير :

ــ أولا سنمر على العين الصغرى لأخذ رجل معنا ثم سيبدأ الاجتماع .

وبالفعل ركب الزورق رجل مجهول متأنق بلباسه يحمــل عصا بيده وسلة على كتفه وذلك عندما بلغوا العين الصغرى وبسرعة جلس بجانب تيرنتى وألقى على الشاطىء نظرة قلقــة وقال :

هيا بنا ! فلنذهب !

انه البحار !

ويا لله ما أجمل لباسه !

نظر اليه الصديقان فاغرى الفم مذهولين من روعة المفاجأة . ما كانا يظنان أبدا أن رجلا يمكن أن يكون جميلا بهذا القدر .

ما كان يلبس بنطاونا أصفر فاهيا وجوربا أخضر وحــذاء صيفيا أبيض جميلا فحسب ، وما كان منديل حريرى أحمر يبرز من جيب جاكيته الأزرق وشكلة جميلة تزين عقدة رقبته « عين الطاووس » فحسب ، ولم يكن قميص منشى ينتفخ على صدره فحسب ، وياقة عالية منشاة ولم تكن قبعته من القش ذات الزاويا الصلبة والأشرطة المخططة موضوعة على رقبته بأناقة فحسب ، ليس هذا كل شيء .. بل كل شيء كان انه يضع على صدره سلسلة مرصعة ويلبس بيديه قفازا رماديا . وهذا هو أوج ما ادهشهم .

كان الصبيان مترددين حتى ذلك الحين : هل كتبة القيادة أو باعة الكفاس أكثر أناقة ؟ الا أنه الآن ما عاد من مجال التردد .

ان شاربى البحار المعقوفين وحــدهما يفوقان جميــع باعة الكفاس والكتبة فى الدنيا كلها .

ما عاد الصبيان يجدفان ، كانا يحملقان بالرجل الأنيق .

صاح غافريك :

— انظر يا بيتيا . له قفازان !

بصق البحار من بين أسنانه بعيدا جدا حتى ان الصبيين لن يتوصلا الى ذلك حتى فى الحــلم وقال وهو يلقى على غافريك نظرة صارمة :

— لا أريد أن يرى كل غريب مرساتى ! لقد وضعت غــلافا عليها . هيا أيها الصبيان كفاكما عبثا

انتصب البحار واقفا وفتل شاربيه ونظر بهيئة الظافر الى تيرنتي الذى كاد يغمى عليه من شدة الضحك وقال بملء صوته كأنه رئيس البحارة :

— هيا يا أصحاب الزورق ! اسمعوا اوامرى ! جدفوا ! واحد ، اثنان ، واحد ، اثنان !

أخذ الصديقان يجدفان بقوة وانطلق الزورق فى عرض البحر متجها الى فسحة البحر التى غمرتها شمس الظهر بنورها الفضى .

وهنالك على بعد نصف كيلومتر من الشاطىء كانت تتأرجح زوارق الصيادين .

سيطر على بيتيا شعور حاد من البهجة والخوف . انه نفس الشعور الذى أحس به فى الخريف الماضى مع غافريك فى الأحياء المحاصرة .

ولكن الصبيين كانا آنذاك وحدهما أما الآن فانهما بصحبة رجلين قويين يكتنفهما الغموض ويتظاهران بأنهما لم يريا بيتيا قط .

أدرك الصبى مع ذلك أن البحار لم ينس وأنه يعرف كل شىء ، وفضلا عن ذلك ألم يغمز لبيتيا بعينه كأنما يقول له : هيا يا صاحبى هيا !

وبيتيا كذلك تظاهر بأنه يرى البحار لأول مرة .

كل هذا كان مرحا وفيه شىء من الذعر . على أنهم جميعا فى

الزورق كانوا يشعرون بنشاط وحيوية وقد استبدت بهم الفرحة والبهجة .

لم يلبث الزورق أن دخل وسط مجموعة قوارب الصيد الماخرة أمام أركاديا كما اتفقوا على ذلك سابقا .

واحاط سرب كامل من القوارب المبرقشة بزورق الجد العتيق .

كان جميع الصيادين الذين ساروا وراء نعش العجوز البارحة ، ـ صيادى العين الصغرى والعين الوسطى وفالتوخ وأركاديا والشاطىء الذهبى ـ قد تجمعوا هنا . وكان هناك من جاء من مكان أبعد ، من لوستدورف ودوفينوفكا . وكان بينهم صياد من أوتشاكوف .

لقد كانوا رجالا يعرفون بعضهم بعضا ، انهم أصدقاء وجيران .

اغتنم الصيادون الفرصة فأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث مسبلين أيديهم وخصلات شعرهم من القوارب .

كان المرء يحسب نفسه فى غمرة هذا الصخب كأنما هو فى سوق . كان كل زورق جديد يستقبل بالصياح ورش الماء وضرب المجاديف .

وما ان دلف زورق الجد الى وسط الحلقة حيث كانت تعوم عدة قوارب من بيرا « سانتسنباخر » وارتطم بالزوارق الأخرى حتى تعالى الصياح من كل جانب :

ـ مرحبا يا تيرنتى !

ـ رويدك ! لا تقلب قواربنا العتيقة بدارعتك !

ـ كفى أيها الزعران ، دعوا القائد السياسى يمر !

ـ يا تيرنتى ! يا صاحبى ! من أين اصطدت هـذا الشاب الصغير ! لا يكاد يصدق : صدرية أنيقة وبنطلون أبيض والتكلم على الموضة !

نفخ تيرنتى خديه السميكين وحيا بهيئة خجولة ومتباهية الجميع فى كل جانب وهو يلـوح بقبعته ذات الزر . وصاح بصوت حاد :

ـ جميعكم ضد واحد ! على الأقل لا تحتشـدوا جميعا اضربوا واحدا واحدا . مرحبا يا فيديا ! مرحبا يا ستيبان ! مرحبا أيها الجد فاسيلى ! وأنت يا ميتيا ! بحال أحسن !؟ لقد ظننت أن أسماك القد فى العين الصغيرة قد اكلتك منذ وقت طويل ! كم تدفع لرطل المحار ؟ يا ساشا اغلبك باليد اليسرى !

هكذا رد على أصدقائه وأصحابه القدماء الذين هاجموه من كل حدب وصوب . كان تيرنتى يغمز بعينه ويبتسم وفمه مفتوح حتى أذنيه . كان ينظر بلـذة فيما حـوله وهو يلفظ اسماء الزوارق التى تحيط به :

ـ « صونيا » وأيضا « صونيا » وها هى ذى « صونيا » و « صـونيا » من لوسـتدورف وثلاث « صـونيات » من لانجورون ! نعم ثمانى « صونيات » لا غير ! ثمانى صونيات وأنا واحد ! « ناديا » و « فيرا » و « ليوبا » و « شورا »

و « موتيا » .. أوه يا أماه ! وصاح مصطنعا الذعر وهو يغطى وجهه بقبعته : الى أين وصلنا يجب أن نعود أدراجنا !

وعلاوة على هذه القوارب كانت توجد أربع « أوليـات » وست « ناتاشـات » وما لا يقـل عن اثنتى عشرة « ثـلاثة قديسين » وأخيرا قارب كبير من أوتشاكوف مع اسم غريب بعض الغرابة ولكنه جذاب : « آه ، بوشكين يا له من فتى ! »

وحينما ساد السكون والنظام دفع تيرنتى البحار بمرفقه :

ــ هيا يا روديا !

خلع البحار بهدوء قبعته ووضعها على ركبتيه وأصلح شاربيه بمشط صغير ثم نهض وفتح ساقيه ليحافظ على توازنه وقال بصوت عال صاف يسمعه الجميع :

ــ مرحبا أيها الرفاق صيادو أوديسا ! أهنئكم بأول أيار !

اصبح وجهه صارما افطس وتصلبت وجنتاه .

ــ سمعت أحدكم يود أن يعرف من أنا ؟ أنا سيد طريف يلبس قفازين وقميصا منشى و « التكلم على الموضة » . أستطيع أن أرد على هـذا بأننى عضو فى حزب العمـال الاشتراكى ــ الديمقراطى الروسى من فرقة البلاشفة انتدبت من قبل لجنـة أوديسا الموحدة ، وأنا شغيل مثلكم ، بحار مثلكم جميعا هنا . أما القميص المنشى والصدرية والبنطلون الأبيض فيمكننى أيضا أن أرد بطيبة خاطر على هذه الأسـئلة ، بسـؤال آخر . أنتم يا صيادى أوديسا تعرفون هذا . لماذا تستتر سمكة الاسقمرى

بحراشف براقة زرقاء ؟؟ ألا تعرفون ؟ فاذسر ذلك لكم بسهولة . ان السمكة المدعوة بالاسقمرى فى بحرنا الأسود هى زرقاء كيلا تلاحظ ولا تعلق بشباك الصيادين . هل اتضح الأمر ؟

ضحك الصيادون فى القوارب وغمــز البحــار بعينه وقام بحركة مفاجئة برأسه وأردف :

— اذن أنا سمكة ألبس جلدا بقصد كيلا يلاحظنى احد .

وتضاعفت الضحكات فى القوارب .

— ما أجمل السمكة !

— دلفين ممشوق !

— ألا تخاف أن تعلق بالسنارة ؟

انتظر البحار حتى انتهت هذه الصيحات وقال :

— حاولوا اذن تمسكونى ! فأنا اماس !

وتابع :

— أنظر فيما حولى أيها الرفاق وأفكر ببحرنا وبأرضنا . الشمس البهيجة تضيئنا . ويوجد سمك فى هذا البحر ! ويوجد يوجد قمح فى الحقول ! والفواكه تملأ بساتيننا من كل صنف : تفاح ، ومشمش وكرز وكمثرى . والكرمة تنمو . والخيول والثيران والأبقار والاغنام تجوب برارينا . الأرض تخفى ذهبا وفضة وحديدا وكل أنواع المعادن . أتريدون منها ؟ ها هى ذى ! يوجد ما يكفى الجميع كما يقال . ويمكننا أن نعتقد أن جميع الناس فى وسعهم أن يبتهجوا ويسعدوا . فماذا ترون ؟ لا !

في كل مكان أغنياء لا يشتغلون وينهبون كل شيء ، وفي كل مكان فقراء وبؤساء يشتغلون ليل نهار ولا يظفرون بشيء . فماذا يعني هذا ؟ سأجيبكم ، انه لأمر بسيط . انظروا الى الصياد . ماذا يعمل ؟ يصطاد السمك . ما ان يصطاد يذهب الى السوق . فكم يعطى في السوق ثمنا لكل مئة سمكة قد ؟ ثلاثين أو أربعين كوبيكا !

توقف البحار ونظر فيما حوله .

قال عجوز يشبه الجد وهو مضطجع في مقدمة زورق ضخم اسمه « دلفين » .

-- لو كان الثمن ثلاثين كوبيكا ما كان فيه من ضير ! أول البارحة أخذت الى السوق أربعمئة سمكة وأبت أن تعطى أكثر من خمسة وعشرين لكل مئة على الرغم من كل ما قلته . وعلى الفور باعتها بثمانين .

دبت الحيوية بين الجميع . لقد أصاب البحار نقطة الداء . كان كل واحد يود أن يقول المظالم التي تعرض لها . كان بعضهم يشكون من البؤس الذي آلوا اليه لأنهم لا يملكون شراعا وكان البعض الآخر يزعق أن الباعة في السوق يمسكون بخناقهم .

وبينما كان الكبار يصيحون ما كان الأولاد ليضيعوا وقتهم فقد جلب بعض الصيادين أولادهم . كانت تظهر في القوارب فتيات عاقلات بثياب جديدة وأولاد حفاة يغضنون جباههم تحت أشعة الشمس التي بقعت خدودهم بلون المشمش . كانوا

يلبسون قمصانا وقبعات صيادين ذات ازرار مزينة بمرساة ، لا جرم أن هؤلاء كلهم كانوا أصدقاء وأصحاب غافريك .

ما كان الصغار أقل صخبا من الكبار .

كانوا يتبادلون المشاكسات وسرعان ما جرت معركة بحرية حقيقية . فقد لطمت غافريك سمكة ميتة على وجهه وترك بيتيا قبعته تسقط فى الماء وكادت تغيب .

وارتفع الضجيج وعاصفة من رشاش الماء فاضطر تيرنتى الى التدخل :

— هيا أنتم اهدأوا والا قطعت آذانكم !

وفى غمرة هذا الضجيج تابع البحار كلامه .

— وهذا يعنى ان البرجوازيين يسرقون من الصيادين ثلاثة أرباع مجهودهم . وماذا نحن ؟ فما ان نرفع رأسنا حتى يضربوه بالسيف . انهم يضربوننا أيها الرفاق يضربوننا الآن ضربا مبرحا . كنا قد رفعنا الراية الحمراء فوق « بوتمكين » ولكننا لم نحافظ عليها . لقد تمردنا وكان هذا سواء . ان دمنا نحن العمال يسيل فى أرجاء روسيا ! ما أفظع التفكير به ! وهناك اخوان لنا ماتوا على أعواد المشانق وفى غرف التعذيب القيصرية وفى سجون الشرطة ! ولا حاجة لقول هذا لكم فأنتم تعرفونه . وليس الأمر أبعد من البارحة على ما أعتقد ، وقد دفنتم عجوزا طيبا قدم حياته بتواضع فى سبيل سعادة أبنائه وأحفاده . لقد توقف قلبه العمالى النبيل عن الخفقان . وقد

فاضت روحه التى كنا نحبها . فأين هى الآن هذه الروح ؟ لقد ذهبت ولن نراها بعد اليوم .. وربما هى تحوم فى هذه اللحظة فوقنا مثل زمج الماء وتبتهج اذ ترانا لم نتخل عن قضيته ، ونريد أن نناضل فى سبيل حريتنا حتى نطيح عن كواهلنا نير الطغاة المستبدين المكروهين ..

سكت البحار ومسح جبينه بمنديل أحمر . كانت الريح تهزه كأنه راية صغيرة .

كان سكون عميق يخيم على القوارب .

ولكن صفير رجال الشرطة كان يسمع من على الشاطىء .

نظر البحار فى ذلك الاتجاه وغمز بعينه .

— ها هم أصدقاؤنا يزعجـون أنفسـهم . لا بأس . هيا اصفروا ! ربما يعطيكم هذا الصفير شيئا ، أيها القذرون !

عاد وثنى ذراعه بحقد وأشار بمرفقه الى الشاطىء الـذى ترصعه مظلات فاخرة وقبعات واسعة .

— عض !

وسرعان ما عزف فيديا بأوكورديونه مارش : « الحنين الى الوطن » وهو متمدد على مؤخرة زورقه البديع « ناديا وفيرا » .

وفجأة ظهرت على جميع الزوارق بيضات ملونة واسماك جافة وخبز وقنان .

أخرج البحار من سلته زاده وقسمه أقساما متساوية .

نال بيتيا قطعة سمكة جافة وكعـكتين من مخبز الـدير وبيضة بنفسجية .

صحيح أن أول أيار عيد فصح العمال .

كان رجال الشرطة يركضون على الشاطئ ويطلقون الصفير المريع . فأخذت الزوارق تتفرق فى كل اتجاه .

كانت رؤوس الغيوم ترتفع من وراء الأفق .

التفت فيديا ووجهه الى السماء وترك ذراعه يسقط فوق حافة الزورق وأخذ يترنم بصـوت صاف قوى أغنية مشهورة لدى البحارة .

البحر مترامى الاطراف
والموجة ترتفع وتزبد من بعيد
ايها الرفيق سنذهب الى عرض البحر
بعيدا عن الارض الاثيمة !

كانت المجاديف تلمع . والأغنية تبتعد فوق المياه :

ــ قال الوقاد : ايها الرفيق
ما عادت لدى طاقة فانهضنى ..

كان لا يكاد يسمع .

وأمر البحار الأولاد :

ــ جدفا ! واحد اثنان ، ثلاثة !

وربت على ظهر تيرنتى وصاح :

البحر الاسود
المركب أبيض
وحبيبى فى البحر
منذ أربع سنوات

— أيها الزعران ! لماذا لا تغنون ؟

وتابع تيرنتى والصبيان الاغنية فرحين

لا تبكى يا ماروسيا
عما قريب سنلتقى
لسوف أعود يا ماروسيا
ونكلل اللقاء بالزواج

مر طير من طيور زمج الماء ابيض ناشرا جناحيه فوق القارب . كان يخيل للمرء أنه تلقف الأغنية المرحة ليحملها بمنقاره المرجانى كسمكة فضية مرتعشة .

تابع الصبيان الطائر بأنظارهما زمنا طويلا ولربما كانا يحسبان أن هذا هو روح الجد الطاهرة جاءت لترى زورقها وأحفادها .

انتهى الاجتماع .

ولكنهم انتظروا طويلا قبل أن يعودوا . فقد أمضوا ساعتين يطوفون فى البحر منتظرين اللحظة المناسبة .

نزل تيرنتى قرب الشاطىء الذهبى ونزل البحار فى لانجورون .

وقبل أن يقفز البحار الى البر نظر طويلا فى كل اتجاه . ثم قام بحركة من يده قائلا : « لا بأس ! من لم يخاطر لم يظفر بشىء .. » وتأبط عصاه الأنيقة ونزل الى البر .

وتمتم بسرعة :

— شكرا أيها الصبيان ! مع السلامة !

وغاب في لجة جمهور المتنزهين .

عاد بيتيا الى البيت وقت الغداء فى يده فقاعات ووجهه قد لوحته الشمس .

٤٥

ريح مواتية

انقضت ثمانية أيام .

لم يذهب بيتيا مرة واحدة الى الشاطىء ! كان منهمكا فى استعدادات السفر الى الريف فكان يرفق مرة أباه ومرة خالته لشراء الحاجيات .

اتخذ كل شيء كلها مظهر الصيف .

ان شهر أيار فى أوديسا يشبه شهر حزيران . حرارة شديدة تحرق المدينة وخيام مخططة تقى الشرافات وعوارض المخازن أذى الحر . وكانت أشجار الأكاسيا التى أخذت تزهر تلقى ظلالا على الأرض .

وبدت الكلاب تركض طلبا للماء ولسانها متدل ، وظهر البحر الملتهب من بين فجوات المنازل فجأة وبقى الصرافون وبائعات الزهر جالسين أمام طاولات صغيرة خضراء فى ظلال مظلات كبيرة وسط المدينة .

كانت نعال الأحذية تغوص في الاسفلت المتميع . وكان الزفت في كل مكان يغلي بمراجل مستعرة .

ما أجمل زيارة المخازن كل اليوم لشراء حاجيات للعطلة : طارات وأحذية وشبكة لصيد الفراشات وشص لصيد السمك وكور وصواريخ نارية ، وبعد ما يحمل الحزم الخفيفة ذات الأشكال الغريبة ، يصعد عربة الامنيبوس ليعود الى البيت !

كان جسم بيتيا قد أوهاه حر المدينة ولكن خياله كان ينقله الى الباخرة التي تسوقها الرياح الزرقاء للأسفار .

وذات صباح سمع من الباحة صفيرا مألوفا لديه . بادر الى النافذة فأبصر غافريك وسط الباحة .

ولم تنقض لحظة حتى كان بيتيا قد نزل الدرج . كان غافريك يبدو مهموم النفس ، وقد اكفهر وجهه وزم شفتيه وعيناه اللامعتان تنذران بشر وبيل !

انسحق قلب بيتيا . وقال وقد خفض نبرة صوته :

— ماذا حدث ؟

أشاح غافريك بوجهه مقطب الحاجبين .

— لا شيء . هل تريد أن تذهب معنا في الزورق ؟

متى هذا ؟

— الآن . أنا وموتيا وأنت في زورق شراعي .

— أتهذر ؟

— معاذ الله .

— زورق شراعى ؟

— يمكنك أن تبصق فى وجهى اذا كنت أكذب .

— سنذهب نتجول ؟

— أتريد أن نتجول ؟.. موافق ..

— كما تريد .

— اذن هيا !

— بسرعة !

فى زورق شراعى !

سارع بيتيا ولم يضع عمرته على رأسه . فبعد عشر دقائق كان الصديقان على الشاطىء .

كان القارب مع صاريه المركز وشراعه المطوى تؤرجحه الأمواج الخفيفة . كان نازلا الى البحر نصفه .

كانت موتيا حافية القدمين تشتغل فى قعر الزورق تثبت فى صندوق موجود فى مؤخرة الزورق وعاء الماء وقطعة من الخبز الأسود .

قال غافريك وهو يدفع مؤخرة الزورق بكتفه .

— هيا يا بيتيا !

بذل الصبيان جهدا ودفعاه دونما عناء كبير الى الماء وعام الزورق فوق الماء وقفزا فوقه .

— الى الأمام !

حل غافريك الشراع المربع الجديد ورفعه بمهارة وهبت عليه

نسمة رخية ودفعته باتجاه منحرف . جثا غافريك على ركبتيه في مؤخرة السفينة ووضع دفة الزورق الثقيلة في مكانها بصعوبة وأصلح وضع السكة .

قوم الزورق مجراه حسب الاتجاه .

— انتبه !

لم يستطع بيتيا ان ينحرف الا بصعوبة .

مرت عارضة الصارى الذى ادارته الريح ، فوق رأسه من يسار السفينة الى يمينها وانجلى البحر المتلألىء مخفيا الشاطىء الطينى حيث غاصت فيه أم موتيا حتى ركبتيها واقفة ويدها على جبهتها تتقى أشعة الشمس .

استند غافريك الى السكة ودفعها بظهره . مال الصارى ميلا خفيفا . كان الماء على طول الحافة يهـدر هديرا داويا . فقفـز الزورق وضرب الموج بقعره المسطح وسـار فى عرض البحـر واتخذ اتجاها موازيا للشاطىء .

سأل بيتيا :

— اين نحن ذاهبون ؟

— سترى .

— بعيدا ؟

— ستعرف بعدئذ .

استعادت عينا غافريك لمعانهما الشرس الشديد .

لفت بيتيا عينيه الى موتيا . كانت الفتاة جالسة فى المقدمة

تاركة ساقيها العاريتين تتدليان ، وهى تنظر أمامهـا . كانت وجنتاها غائرتين بشدة والريح تحرك شـعرها القصـير الذى لا يمكن أن يكون ضفائر .

لزم الجميع الصمت بعض الوقت .

وفجأة فتش غافريك جيبه وأخـرج منه ساعة من الفـولاذ المصـقول كبيرة بعض الشىء . وضـعها على أذنه وسـمع تكتكتها وفتحها بظفره بشىء من الجهد ، ذلك الظفر الأبيض المنقط ببقع بيض هى ـ كما هو معروف ـ علامات حظ .

لم يعد بيتيا يندهش حتى لو أخرج غافريك من جيبه ثعبانا حيا أو حفنة من الألماس .

ساعة جيب خاصة ! انهـا شىء يكاد يماثل الدراجـة أو مسدس مونت كريستو ، لا ، بل هى شىء أجمل .

شعر بيتيا كأنما ضاق نفسه . انه لا يصـدق عينيه ، كان مبهورا .

ولكن غافريك أخذ يعد بامعان الأرقام بسبابته وهو يتمتم :

ـ ساعة ، ساعتان ، ثلاث ساعات ، أربع ، خمس .. تسع ونيف لا بأس ، سنصل فى الوقت المحدد .

صاح بيتيا مبهورا :

ـ أرنى !

ـ لا تلمسها . ليست للبيع !

ـ هل لك ؟

— لا .

همس غافريك سرا وهو يشد بيتيا من كمه :

— هى للمنظمة . للجنة . أفهمت ؟

تمتم بيتيا الذى لم يفهم شيئا :

— طبعا .

أردف غافريك وهو يلقى على موتيا نظرات من طرف عينه

— اسمع . لقد اعتقل بحارنا . آتفهم ؟ وهو فى السجن وها قد مضت عليه ستة أيام . فبعد أول أيار ألقى القبض عليه فى لانجورون . ولـكن ها هو ذا جوازه الذى يجعله شخصا آخر . الآن لا بأس . الا أنه عندما يعرف الجواسيس حقيقة شخصيته فانه سيشنق وعليه السلام ! أفهمت ؟ انهم قد يعرفونه فى أية لحظة ، اذا حلقوا شاربيه ووجدوا نذلا لمواجهته وكشف أمره وحين ذلك الطامة الكبرى .

صاح بيتيا مذعورا :

— غير ممكن !

— قلت انا وهذا صحيح . ولكن اسمع أيضا ، فى خلال اعتقاله هناك يدبر أمر تهريبه . وتهتم بهذا اللجنة . واليوم فى الساعة العاشرة والنصف تماما سيهرب من سجنه الى العين الكبرى رأسا وبعدئذ سيعود الى رومانيا على زورقنا الشراعى . اذن فهل تفهم الى أين نحن ذاهبون ؟؟ الى العين الكبرى . ننقل زورقنا الى هناك . والساعة جلبها لى تيرنتى من اللجنة كيلا أصل متأخرا .

أخرج غافريك الساعة مرة أخرى وأخذ يتفحصها بامعان .
بعد قليل ستكون العاشرة وسنكون فى الوقت المحدد تماما .

تمتم بيتيا .

— وكيف سيهرب ؟ انه محاط بالحراس والجنود .

— دعك من هذا . فى الساعة العاشرة والنصف ستكون فترة النزهة . يخرجون الى باحة السجن . ما عليه الا أن يجتاز البساتين : وهناك تيرنتى ينتظره بعربة على طريق العين الصغرى وحينذاك سيهربان توا الى الزورق . أفهمت ؟

— فهمت . ولكن كيف سيصنع ليقفز من فوق سور السجن ؟ انه عال . عال هكذا ! مثل الطابق الثانى . فحينما سيتسلقه يرمونه بالرصاص .

جعد غافريك وجهه كأنما يذب حشرة ثقيلة .

— لا . اسمع اذن ! لا حاجة به الى تسلق السور . ان ذلك السور سينسفه تيرنتى .

— وكيف ذلك ؟

— يا بهيم ! ما دمت قلت لك انه ينسفه . انه سيثقب السور . ففى الليل قام رفيق من اللجنة ووضع دمانيت واليوم فى الساعة العاشرة والنصف عندما تبدأ نزهة بحارنا سيشعل تيرنتى الفتيل وينتظر قرب العربة . ولسوف ينفجر الدمانيت .

نظر بيتيا الى غافريك .

— ما الذى سينفجر ؟

— الدمانيت .

— كيف ؟

كرر غافريك بصوت غير متأكد :

— الدمانيت . هـذا الشيء الذى يحـدث انفجارا وماذا يوجد ؟

صحح له بيتيا بصوت مرشد :

— هذا ليس دمانيت ، انه ديناميت .

— ليكن ديناميتا الشيء الأساسى أنه سيحدث ثغرة فى السور .

وحينذاك فهم بيتيا غرض كلام غافريك واقشعر جلده .

حدج صديقه بعينيه القاتمتين المحملقتين وقال :

— اقسم لى بشرفك أن هذا صحيح .

أقسم لك بشرفى أن هذا صحيح .

— ارسم اشارة الصليب على صدرك .

— أقسم لك بالصليب الأقدس الحقيقى أمام الكنيسة .

ورسم غافريك اشارة الصليب على صدره بحيوية والتفت صوب قباب كنيســة العين الكبرى . على أن بيتيا كان يشعر أن ذلك صحيح . وقد حمل صديقه بدافع عادة الضمير على أن يرسم اشارة الصليب على صدره .

أنزل غافــريك الشراع فارتطم الزورق بعبارة النزول الى البر . كان الشاطىء مقفرا موحشا ...

سأل غافريك بيتيا :

-- هل معك منديل ؟

-- نعم .

-- أرنى اياه .

أخرج بيتيا من جيبه منديلا يجعل خالته يغمى عليها مؤكدا ولـكن غافريك بدا راضـيا كل الرضا . واستحسن ذلك برأسه .

-- حسنا . أرجعه .

ونظر الى الساعة . « كانت الساعة العاشرة ونيف » .

قال غافريك :

-- سأبقى فى الزورق بينما تذهب أنت ومـوتيا الى هناك وتبقيان فى الزقاق . وسوف تستقبلانهما . وحينما ترى العربة لوح لى بالمنديل لأرفع الشراع . أفهمت يا بيتيا ؟

-- فهمت . ولكن اذا أطلق عليهما الحارس الرصاص ؟

قال غافريك بهيئة متأكدة وابتسم ابتسامة صارمة :

-- سيفلتهما . ان الحارس شاب من دوفينوفكا وهو أحد الأصحاب . أسرع يا بيتيا . حالما تراهما لوح لى بالمنديل . هل تستطيع ذلك ؟

-- مؤكدا !

قفز بيتيا وموتيا من الزورق وتسلقا الضفة .

هنا كما هو شأن من شاطىء لوستدورف حتى لانجورون

كان الصبيان يعرفان جميع الدروب . شقا دربا لهما عبر شجيرات الليلك المزهر وصعدا الأكمة المنحدرة ووقفا فى الشارع بين الفيلات .

من هنا يرى المرء البحر والطريق .

وهناك من بعيد كان القارب الصغير يتمايل عند العبارة الصغيرة ويكاد المرء يرى غافريك .

قال بيتيا وهو ينظر فيما حوله :

— اسمعى يا موتيا ! سأتسلق شجرة التوت لأرى عن بعد أكثر . وفى خلال ذلك تسيرين أنت فى الشارع وتنتبهين . ولنر من سوف يراهما أولا .

ما كان الأمر يقتضى تسلق الشجرة ـ والحق يقال ـ لأن المرء يستطيع أن يرى من الشارع بشكل جيد . ولكن بيتيا شعر أنه أصبح قائدا فيجب أن يأمر وينهى !

أخذ الصبى يتسلق مندفعا فمزق بنطلونه من ركبته ، ولكن هذا لم يجعله يرتبك بل على العكس بدا أكثر صلابة وازدهاء .

قعد على غصن وقطب حاجبيه .

— لماذا بقيت فى مكانك ! امشى !

— مشيت !

نظرت الفتاة الى بيتيا من أسفل الى أعلى مذعورة مخلصة وأصلحت تنورتها وسارت فى الشارع بهيئة رصينة متجهة صوب الطريق .

— قفى ! وانتظرى !

توقفت موتيا .

ــ اسمعي. حالما ترينهما أخبريني بالصياح . وأنا حالما أراهما سأخبرك بالصياح . وافقت ؟

قالت الفتاة بصوت لطيف :

ــ وافقت .

ــ اذن هيا !

التفتت موتيا وذهبت في ظل شجرة ظليل مخلفة وراءها في التراب آثار قدميها الحافيتين .

وصلت الى ركن وتوقفت ثم عادت أدراجها .

ــ ما زالا لم يصلا . وعندك ؟

ــ وعندي كذلك . هيا مرة أخرى .

عادت الفتاة الى الركن وجاءت تقول انها لم ترهما يأتيان .

ــ وأنا كذلك . هيا مرة أخرى .

لقد أمتع هذا اللعب الصبيين في بادىء الأمر .

كان يحلو لبيتيا جدا أن يبقى فوق الشجرة يرقب باتنباه آخر الشارع منتظرا العربة القادمة جريا .

تخيل بوضوح الجواد راكضا والحوذي يسوطه بقوة فتصل العربة بأقصى سرعة ! وفيها تيرنتي والبحار والمسدسان بيديهما فينزلان بسرعة . والجنود في اثرهما . يدافع تيرنتي والبحار عن أنفسهما بالرصاص . ويتساقط الجنود الواحد بعد الآخر صرعى بالرصاص . ويلوح بيتيا بالمنديل بكل قواه

ويصيح ويقفز بمهـارة الى الأرض ويركض الى الزورق سابقا الجميع ليساعد على رفع الشراع . أما موتيا فلا تعرف أنهما قد وصلا الا بعد فوات الأوان . ما العمل ؟ انها فتاة !

ولكن الوقت كان يمر وما من أحد يظهر لقد غدا هذا أمرا مضجرا .

مل بيتيا من مراقبة الطريق الذى يلمع من أشعة الشمس . ومرت عربة يقودها حوذى انكليزى يلبس ملابس مثل ايوجين أونيجين تارة ؛ وتارة أخرى عربة محملة بالجليد الاصـطناعى تسير مسرعة وتحدث ضوضاء رهيبة . ان منظرها يجعل المرء يشعر بالحرارة والعطش .

كان الصبى قد فتش الفيلا المجاورة بكل أجزائها : مروج الأعشاب الأخضر النضير وحصـا الممرات والأشجـار وتمثال الرخام المنقط ببقع ظل بنفسجية والوعاء الذى تنزل منه أوراق طويلة ورسام يرسم منظرا .

كان الرسام معقوف الشاربين مـدبب اللحية يلبس قبعة من المخمل وهو جالس فى ظل مظلة على كرسى مطوى مائلا الى الوراء وينقر بالفرشاة الطويلة على قماش المرسم .

وبعد كل خط يرسـمه بالفرشـاة كان يلقى نظرة تمل من عمله . خط جديد ، ونظرة جديدة .

فتح الرسام أصبع ابهامه وأدخله من ثقب اللوح البيضوى الذى هو أجمـل حتى من اللوحـة وعلى اللوح ألواح مختلطة

اختلاطا سحريا شتى للبحر والسماء والطين والليلك والعشب والغيوم والزورق ...

كانت عربة مغبرة قد وصلت منذ وقت طويل ، وكان رجلان يمشيان فى الشارع على مهل وكانت موتيا تركض أمامهما وتصيح :

— عندى وصلا ! منديل ، منديل !

كاد بيتيا يسقط عن الشجرة . أخرج المنديل من جيبه بشدة وأخذ يلوح به فوق رأسه متحمسا .

اشتد تمايل الزورق ورأى بيتيا غافريك قفز وأخذ يعمل بيديه ليرفع الشراع .

مر تيرتنى والبحار من تحت شجرة التوت التى كان يعلوها بيتيا . كان وجهاهما المحمران يتفصدان عرقا . سمع الصبى صوت أنفاسهما اللاهثة .

كان البحار حاسر الرأس ، وكان يعرج بشدة وكان بنطلونه الأصفر الذى كان يلبسه فى اليوم الذى رآه فيه بيتيا فى اجتماع أول أيار لآخر مرة ، كان هذا البنطلون ممزقا متسخا بتراب القرميد .

وكان قميصه الوسخ المنزوع نصفه يكشف عن صدره المقوس العارى الذى ينضح عرقا .

كانت قبضتا يديه تبدوان مشدودتين بشبكة من العروق الزرق المنتفخة كأنما تكاد تمزق . كان شاربه الصغير متهدلا

وخداه برزا فى صفحة وجهه الممتلىء بالشعر . كانت عيناه ترسلان بريقا جافا . وحنجرته ترتعش .

صاح بيتيا :

— مرحبا يا عم !

نظر تيرنتى والبحار الى الصبى وتبادلا ابتسامة . حسب بيتيا أن البحار يغمزه بعينه .

ولكنهما نزلا راكضين مخلفين وراءهما سحابة من الغبار .

قالت موتيا :

— أنا رأيتهما أولا .

نزل بيتيا عن الشجرة متظاهرا بأنه لم يسمع .

بقى الصبى والفتاة الصغيرة واقفين جنبا الى جنب ينظران الى الزورق فى الأسفل الذى يرفع الشراع فيه .

أبصرا خيال البحار الصغير يقفز الى المركب والشراع تهب عليه الريح فينتفخ وتسوقه بعيدا عن الشاطىء كأنه ريشة خفيفة . لم يبق على العبارة الخالية سوى تيرنتى وغافريك . وبعد لحظة غاب تيرنتى كذلك .

بقى غافريك وحده . أشار الى بيتيا وموتيا وأخذ يتسلق الشاطىء ببطء .

كان الزورق يتراقص فوق الموج ويبتعد فى عرض البحر مضطربا بهدير الأمواج .

قال بيتيا :

— لقد ذهب وحده .

— لا بأس . لقد أعطيناه خبزا وثمانى سمكات جافة .

لم يلبث غافريك أن يصل الى بيتيا وموتيا .

قال وهو يرسم اشارة الصليب على صدره .

— الحمد لله . انها لمصيبة حقا .

سأل بيتيا :

— والزورق ؟ اذن قد فقد ؟

قال غافريك متجهما ويحك قفاه .

— لقد فقد الزورق .

— وكيف تعيشون بدون زورق ؟

— لا تهتم ! سندبر أمرنا .

ما عاد الأولاد بحاجة الى الاستعجال .

تسلقوا السياج ووقفوا بدون ضوضاء وراء الرسام .

كان المنظر يكاد يكون منتهيا . حبسوا أنفاسهم وأخذو يتابعون عالما يظهر على رقعة قماش مربعة وهو مختلف ولكنه يشبه العالم الحقيقى حتى ليحسبه المرء نفسه ، فتتملك الدهشة نفوسهم .

تمتمت موتيا التى وضعت يدها على كتف بيتيا كأنما ذلك عن عرض وقالت :

يوجد بحر وليس فيه زورق .

وضحكت ضحكة خفيفة .

ولكن الرسام أخذ فى طـرف فرشاته نقطة بيضاء وفى وسط اللوحة ، على زرقة البحر اللامعة التى ما تزال طرية وضع عقفة صغيرة نضيرة بهية .

تنهدت موتيا مبتهجة وقالت :

— ها هو ذا الشراع !

صار البحـر المرسوم لا يختلف عن البحـر الحقيقى فى شيء . كل شيء فيه متشابه حتى الشراع .

وتدافع الأولاد بالمرافق ونظروا طويلا الى اللوحـة تارة والبحر الحقيقى العريض جدا تارة أخرى بينما كان شراع زورق الجد يغيب شيئا فشيئا فى الضباب الأزرق خفيفـا لطيفا كأنه طير زمج الماء .

.. الموج يحمله وهو ابهج من اللازورد
والشمس تسطع عليه
ولكنه يريد العاصفة والتمرد
وكأنما يجد فى العاصفة الراحة!

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار، ٢١

موسكو — الاتحاد السوفييتى

اعلام الادب الروسى

ستصدر دار « التقدم » ابتداء من عام ١٩٧٣ سلسلة جديدة : « التقدم . أعلام الادب السوفييتى » ، تضم أعمالا لاعظم رجال الادب السوفييتى المتعدد القوميات . وسيطلع القارىء الاجنبى لاول مرة على صورة كثيرة الشمول وبمنهجية للطريق الذى قطعه الادب السوفييتى خلال أكثر من نصف قرن ممثلا فى انصع ظواهره الفنية وتعدد أساليبه واشكاله الادبية : الرواية ، القصة الطويلة ، القصة القصيرة ، الشعر ، الدراما .

ان السلسلة الجديدة هى سجل فنى حى لحياة الشعب السوفييتى وتاريخه وحاضره .

تصدر فى عام ١٩٧٤

« قصة انسان حقيقى » لبوليفوى و « الباحثون » لدانييل غرانين » و «قصة الرعب والجرأة » « لألكسندر بيك » و « كيف سقينا الفولاذ » « لنيقولاى اوستروفسكى »



التقدم
اعلام الادب السوفييتي

« صادفت طفولتي ثورة عام ١٩٠٥ . وقد بلغت الثامنة آنذاك . لكنني أتذكر جيدا كيف استقبلنا المدرعة « بوتمكين » الثائرة وكيف مرت بمحاذاة شواطىء اوديسا ترفرف فوقها الراية الحمراء . ورأيت معارك المتاريس وعربات الترامـوى المقلوبة والاسلاك المتقطعة ، والمسدسات ، والبنادق ، وجثث الناس .

بعد مرور سنوات عديدة على ذلك كتبت « شراع ابيض فى الافق » . وتخللت هذا المؤلف روح الحياة المعاصرة، التى ولدتها الثورة الاولى » . هكذا يكتب فى مذكراته واحد من اوائل الكتاب السوفييت ، الحائز على جائزة الدولة فالنتين كاتايف (ولد فى سنة ١٨٩٧) . وقد الف كاتايف عددا من الكتب المختلفة بموضوعاتها وطريقة كتابتها من بينها رواية « الوقت الى الامام ! » عن البناء الاشتراكى ، وكتب الاطفال « ابن الفوج » و «بيت فى السهب» و « من اجل سلطة السوفييتات » ، وكتاب عن لينين - « باب حديدى صغير فى الحائط » وكذلك قصص « البئر المقدس » و « عشب النسيان » وغيرها . وقد اعجب القراء بشكل خاص بقصة « شراع ابيض فى الافق » (١٩٣٦) التى اجتازت بنجاح امتحان الزمن، ودخلت عن جدارة فى عداد المؤلفات الكلاسيكية السوفييتية .